هــذا العــدد

أول ما يطالعنا به هذا العدد ، هو حديث من جولة « الفكر » فى المعركة الدائرة بيننا وبين العدو ؛ ونبدأ هــذا الحديث بمقال مستفيض ، فيه دقة العالم الباحث وعمقه ، وفيه عاطفة الوطنى الغيور ، وبهذا فقد اجتمع فيه عقل وقلب ، وهو مقال ينادى به كاتبه أن المعركة لم تنته ، بل بدأت ، ذلك لأنها معركة ستطول ما طال المستعمر ببطشه وطغيـانه وخبثه وخداعه ؛ ويبدأ الكاتب مقاله هذا بذكر طائفة من الحجج التى لا تدع موضع ريبة لمرتاب ، بأن تواطؤا خسيسا قد انعقدت اطرافه بين أمريكا وبريطانيا من جهة واسرائيل من جهة أخرى ؛ ومن عجب أن الذين تواطئوا على المؤامرة ، يسرعون الآن الى التنصل من بقائها ؛ ومن الحجج التى يسوقها الكاتب على وقوع هذا التواطؤ ، ذلك التناقض الذى وقع فيه القادة العسكريون الأمريكيون ، فبينما أعلن رئيس أركان الولايات المتحـدة فى بداية الأزمة أن الأسطول السادس لن يتدخل فى المعركة ، تبين بعد المعركة أنه هو نفسه الذى أشار بأن التمكين لاسرائيل من التفوق الجوى كفيل لها بنصر حاسم على العرب ؛ بل لقد أعلن هؤلاء القادة العسكريون قبل المعركة أن مفتاح العمل فى المعركة هو أن تحرز اسرائيل نصرها العسكرى فى أربعة أيام ، ذلك اذا قدمت اليها المساعدات الجوية غير المحدودة ؛ ومن أدلة التواطؤ كذلك ذلك الجهد الذى بذله الرئيس الأمريكى ليؤجل الهجوم المصرى ، حتى يتيح الفرصة للهجوم الجوى المبيت والمخطط لتعطيل الطيران المصرى ؛ وماذا يريد المتردد من أدلة على التواطؤ أقوى من هـــذه الرسالة الرسمية التى أرسلتها وشنطن الى تل أبيب قبل المعركة ، تقول فيها ان الولايات المتحدة تستطيع أن تقدم لكم ضمانات أكيدة ، بما فى ذلك توفير الغطاء الجوى ؟ وهكذا يمضى الكاتب فى جمع الأدلة ، لينتقل بعدئذ الى تحليل رائع يقارن فيه بين العدوان الثلاثى ١٩٥٦ والعدوان الثلاثى الجديد الذى وقع ؛ فقد كان الأول عدوانا عليه طابع الاستعمار القديم ، وأما الثانى فمطبوع بطابع الاستعمار الجديد ؛ كان الأول سافرا بالغزو المكشوف ، وأما الثانى فمستتر متنكر ، هجم الأول بقوته على أرض عربيـة ، ووقف الثانى للدفاع على أرض اسرائيل ؛ كان الأول يعتمد على حاملات الجنود ، وأما الثـانى فركز على حاملات الطائرات ؛ كانت اسرائيل فى العدوان الأول مخلب قط ، أما فى الثانى فكانت أشبه بحصان طروادة ؛ ثم وقف اطلاق النار ، لكن بدأت بعدها معركة سياسية فى الأمم المتحدة لم تقل عن الأولى نذالة وخسة ؛ ولقد لعبت باسرائيل الأوهام وأسكرها النصر المؤقت ، فراحت توطن العزم على أن تجعل من نتائج هذه الحرب حلقة وسطى تنتقل فيها من اسرائيل الصغرى الى اسرائيل الكبرى ، وما اسرائيل الكبرى هذه الا امتداد من النيل الى الفرات كما يحلمون ؛ ثم يتساءل الكاتب بعد ذلك كله عما نحن صانعون ، ويقدم فكره ، اضافة قيمة الى أولى الأمر فى الأمة العربية ، فلم يعد أمام هــذه الأمة بد من وحدة فى الصف ووحدة فى الهدف ووحدة فى العمل ؛ ولم يعد أمامها بد من شهر اسلحتها جميعا : العسكرى منها والسياسى والاقتصادى ، فمن مقاطعـــة تجارية الى وقف للبترول ، الى تأميم الحصص الأمريكية البريطانية ، الى سحب أرصدة العرب الضخمة من بنوك أمريكا وبريطانيا ، الى تصفية القواعد العسكرية الأمريكية والبريطانية ، الى سائر ما من شأنه أن يكتب لنا النصر المؤكد فى نهاية الشوط .

ومن هذا المقال ينتقل القارىء الى مقال بعده ، فيه مقارنة ذاتية بين حياتنا بين الأمس واليوم ، اعتمد فيها الكاتب على تصوير أولى لما أحسه هو ورآه فى فترتين من حيـــاته ، الأولى سبقت ثورة يوليو ، والأخرى جاءت بعدها ؛ مبينا لنا أنه فى المرحلة الأولى كان يلحظ تفاوتا عجيبا بين الضعف فى حياة الاقتصاد والسياسة ، والقوة فى حياة الثقافة والفكر ، مما بدا كالفصام يشطر المصرى شطرين ، وهو يرى أن من أهم ما استحدثته الثورة ، أنها دفعت بالحياة الاقتصادية والسياسية دفعة حتى وازت الحياة الفكرية ، ثم سارت بالجانبين معا الى أمام فى توازن واتســاق ، ويأتى بعدئذ مقـــال ثالث عن ثورة يوليو ١٩٥٢ وانعكاسها فى كتابات الآخـــرين ، وقد اختـــار الكاتب ثلاثة كتب : أحدها هنــدى ، والثـــانى ايطالى والثـــالث انجليزى ؛ وهى كتب يكاد يجمع

أصحابها — رغم اختلافهم — على أنها ثورة قامت على أسس البناء الروحي والخلقي والاقتصادي والاجتماعي في آن معا ؛ وأنها أقامت اشتراكية غير منقولة بحذافيرها عن الآخرين ، بل هي اشتراكية لاءمت بين نفسها وبين ظروف المكان .

وبعد ذلك يطالع القارىء عن جانب الاقتصاد في معركتنا ، في مقال خصصه كاتبه للبترول العربي كيف خلقه الاستعمار وكيف يمكن أن يكون هو الضربة القاضية التي تقضي على ذلك الاستعمار نفسه ؛ فالذهب الأسود يستطيع في الوقت عينه أن يكون سلاحا أسود ؛ فيوضح لنا صاحب هذا المقال كيف بدأت القصة على يدي بريطانيا ، ثم ما هي الا أن تدخل المستعمرون الآخرون حتى لا يتركوا الفرصة كلها لمستعمر واحد ؛ وذلك لأن البترول ليس موردا لاستعمار اقتصادي فقط ، بل هو كذلك سلاح لاستعمار سياسي ، لأنه وسيلة للسيطرة على موارد البلد سيطرة تتيح للمستعمر (بالميم المكسورة) أن يتحكم في مصائر المستعمر (بالميم المفتوحة) ، ومن سيطر على اقتصاد البلد فقد سيطر على سياسته الداخلية والخارجية جميعا .

ويدخل القارىء بعد ذلك في باب التيارات الفلسفية ليقرأ بحثا عن هيجل يبين فيه الباحث كيف يعد هيجل مصدرا أساسيا لمعظم الفلسفات المعاصرة جميعا ؛ فهو ليس بالفيلسوف الذي يطير مع شطحات الخيال في « مطلق » مبتور الصلة بالعالم الواقع ، بل ان « مطلقه » ذاك متحقق في مناشط الحياة جميعا من فن ودين وفلسفة ؛ واذا كانت مشكلة الاغتراب من أهم ما تصادفه الفلسفة المعاصرة — وبخاصة الماركسية والوجودية — فانها مشكلة رئيسية عند هيجل ؛ هذا الى اهتمام هيجل بفكرة الحرية السياسية التي تجتمع فيها حرية الفرد وحرية الجماعة ، وهي مسألة تشغل جزءا كبيرا من اهتمام الفلاسفة المعاصرين .

أما دنيا الفن والأدب في هذا العدد ، ففيها يطالع القارىء عن فكرة التشويه في الفن الحديث ، كما تتمثل في أحد أعلامها ، وهو الفنان فرنسيس بيكون ؛ وانها لفكرة محورية في الفن الحديث كله ؛ ولذلك فان القارىء سيجد فيها زادا يتزود به في فهمه لهذا الفن من شتى نواحيه ؛ ويجيء بعد ذلك مقال عن شاعر سوري نقلته شواغل العمل الى غينيا ، وهناك وجد الهاما لشعره الصوفي ؛ وقد كتب المقال أديب صديق للشاعر ، حزن على موت صديقه في أرض الغربة ، فجاءت كتابته أدبا نابضا بالحياة ، هو أقرب الى القصيدة المنثورة منه الى النقد الموضوعي البارد . ونختم على هذا الباب بمقال مستفيض عن المضمون الاجتماعي في أدب الأديب يوسف ادريس .

وكان الشاعر محمود حسن اسماعيل هو شخصية هذا العدد في تيار الفكر العربي ؛ كتب عنه كاتب المقال ليوضح لنا المضمون الثوري الغزير في شعر هذا الشاعر ؛ فهو شاعر جرد المحسوس حتى صيره فكرة ، وجسد المجرد حتى صيره كائنا محسوسا ؛ وهو شاعر حل التناقض القائم بين الطاقة الشعرية حين تتدفق سريعة قوية ، وبين اللغة حين تتجمد في قوالب صلبة معوقة ؛ وانه لشاعر أحس مشكلات الحياة المعاصرة ، فعبر عنها مرتكزا على التراث الأدبي العريق ؛ ولعل أهم ما اهتم به الشاعر هو الحرية المنشودة للانسان .

وأخيرا يصل القارىء الى اللقاء الشهري الذي نتابع فيه أحداث الأدب والفكر فيقرأ عن المؤتمر الافرو أسيوي الذي انعقد في القاهرة منذ قريب ، وعن كتاب جديد لجورج بادمور عن قضية الوحدة الافريقية ، وعن الفن التشكيلي ودوره في معركتنا الحالية ، وعن السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط ، وأخيرا عن مولود فرعون الأديب الجزائري الثائر ، ثم عن ديوان الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد .

رئيس التحرير

المعركة لم تنته ..

الفكر في المعركة

- نعم ، فما كنا فى يوم أحوج منا الآن الى الحقد المقدس والثار الأقدس ، ولا كان الحقد والثار فى يوم أنبل وأشرف مما هو الآن .
- ففى ١٩٥٦ كانت اسرائيل مخلب قط أو طعما ـ طعما قذرا يستدرج الفريسة الى المصيدة لتطبق عليه قبضة الصياد الغادر ، أما فى ١٩٦٧ فكانت اسرائيل حصان طروادة ، مجرد واجهة وقناع تخفى العدوان الغادر وراءه بل داخله فعلا .
- ولابد لنا اليوم من اقتصاد وتخطيط وبرنامج شعاره القائد : الكرامة فوق الحياة ذاتها ، ودولة القوة قبل دولة الرفاهية ، ومجتمع الثار قبل مجتمع الخدمات .

بل بدأت

دكتور جمال حمدان

نؤمن تماما — مع الرئيس البطل المناضل — أن « **هذا ليس وقتا للحزن** » ، ولكنا نخشى — ونعترف — أن الأسى موجود مهما دفناه فى أعماق الباطن . فاذا كانت الصدمة قد أصابتنا بلحظة مريرة من الذهول دون ان تلقى بنا الى دوامة الدوار ، واذا كانت الأمة قد ارتفعت بسرعة وشجاعة فوق جراحها وآلامها بل واستقطبت من المحيط الى الخليج فى وحدة قومية لم تعرف لها مثيلا فى تاريخها الحديث ، اذا كان هذا فان من الصحيح ايضا أن وقع النكسة لا يتناسب كما يتناسب مع ضخامة الأمل العربى الشاهق المرموق الذى كان ، وما أشد الهوة — يقينا — **بين عنفوان الأيام العشرة المجيدة الباهرة التى حملت عبق التحرير كله وبين** الأيام الخمسة الحزينة التى لحقتها مباشرة فأضافت الى النكبة النكسة .

الأسى المدفون فى الأعماق قد لا يخبو أو يموت بسرعة اذن ، غير أن عزاءنا أنه يتخمر هناك ويتحول الى شحنة رهيبة من الكراهية للعدو الأثيم والى طاقة مكثفة مختزنة من التصميم العارم على سحقه فى المدى الطويل . انه غذاء نقتات به للانتقام ووقود للاصرار الضارى . **نعم ، فما كنا فى يوم أحوج منا الآن الى الحقد المقدس والثار الأقدس ، ولا كان الحقد والثار فى يوم انبل وأشرف مما هما الآن .**

من هنا ، من الحقد كنقطة انطلاق والثأر كهدف مطلق ، نبدأ وينبغى أن نبدأ كل نظرة الى الموقف وأى عمل لتقويمه وتصحيحه . والحقائق الأساسية الواضحة موضوعيا فى الموقف هى اننا — **أولا** — خسرنا المعركة العسكرية ، ولكنا — **ثانيا** — لم نخسرها على يد اسرائيل وانما على يد التواطؤ الأمريكى البريطانى اساسا ، كما أننا — **ثالثا** — لم نخسر المعركة السياسية ، ونملك القوة على أن ننتزع النصر فيها ، وأخيرا فان المعركة كلها عسكرية وسياسية ليست الجولة الأخيرة فى الصراع ولا تعنى نهايته ،



فالمعركة لم تنته بل بدات . وهــذه المعطيات والمبادىء هي البوصلة التى سوف نسترشد بها فى هذه المقالة .

استراتيجية التواطؤ والغدر

منذ بدأت ازمة الشرق الأوسط الراهنـــة ، ظل السؤال الحرج الذى يبحث عن اجـابة ويفرض نفسه على العرب هو : **هل يعيد التاريخ نفسه ؟** هل يعود الاستعمار فى ١٩٦٧ الى التواطؤ مرة اخرى مع العدو الاسرائيلى على غرار ما فعل ١٩٥٦ ؟ لقد كان من الواضح قطعا أن اسرائيل نفسها لا تجرؤ على مواجهة العرب وحدها ، وان مثل هذه المواجهة تعنى نهايتهـــا على وجه التحقيق . وفى نفس الوقت بدا جليا أن الاستعمار الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة لن يترك ربيبته وصنيعته تواجه مصيرها الأبدى .

فمنذ تحركت القوات المصرية الى الحدود ، تقاطـــرت التصريحات والتهديدات الأمريكية بانتظام ، كأنما هى **((الأمر اليومى))** ، من جميع الدوائر وعلى كل المستويات سياسية وعسكرية . واقترن هذا بتحركات واسعة النطاق فى المعسكر الغربى للتنسـيق والتخطيط مثلما اقترنت هــذه بتجمعات مريبة ومناورات مفضـوحة للأساطيل البحرية ــ الأرمادا الأمريكية ــ فى شرق البحر المتوسط . ويعنينا هنا أن نضع اكثر من خط تحت عدة معالم وعلامات بالغة الدلالة فى ذلك الموقف ، لا لأنها جميعا نذر حـــول التمويه والتمهيد للتواطؤ والتدخل فحسب ، وانماكذلك لأن المتآمرين يحاولون اليوم بعد أن أتموا جريمتهم أن يتنصلوا منها ويكذبوها بل ويصـــوروها بالتضليل والمزيد من التضليل على أنهـا وهم وادعاء عربى !

فعدا عشرات التصريحات الرسمية على كل المستويات عن التزام امريكا بحمـــاية كيان اسرائيل ، وعدا الاشارات الصريحة الى الاعتماد فى ذلك على الأسطول السادس ، وعدا ما اعلنته اسرائيل تهديدا وبانتظام من أنها تعتمـد على أصدقاء أقوياء .. الخ ، فان أولى هذه العلامات التناقض المتعمد ــ بقصد التعمية والتغرير ــ فى تصريحات محور الأعداء . **فبينما أعلن رئيس أركان الولايات المتحدة فى بدايات الأزمـــة أن الأسطول السادس لن يتدخل فى المعركة ، اتضح بعد المعركة أنه هو نفسه الذى أشـــار بأن التمكين لاسرائيل من التفوق الجوى جدير بأن يكفل لها نصرا حاسما على العرب** أو بتحـديد أكثر فرض هزيمة مروعة على العرب . بل لقد أعلنوا بالفعل قبل المعركة انتهاء العســكريين الأمريكيين الى مفتاح عمـل وهو أنه ((يمكن لاسرائيل أن تحرز نصرا عسكريا فى اربعة ايام اذا ما قدمت لها مساعدات جوية غير محدودة)) . **وبينما صرح قائد الأسطول السادس قبل المعركة أنه بعيد ويبتعد عن شرق البحر المتوسط ، فقد عاد قبيل المعركة ليهدد بأن أسطوله على استعداد للعمل فى سواحله الشرقية فور تلقى الأمر .**

كذلك وفى الوقت الذى كان الرئيس الأمريكى يدعو الى **((ضبط النفس))** وعدم البدء بالهجوم والا تدخلت أمريكا ضد مصر علنا ومباشرة ، كان يخطط على نطاق استعمارى للتدخل المرســوم بل وكان ينفذ خدعة جاءت قاتلة بقدر ما كانت دنيئة . فقد كان هذا بالدقة هو مفتاح المؤامرة : اذ اريد به **أن يؤخر الهجوم المصرى حتى يكون الهجوم الجوى المبيت والمخطط على الطـيران المصرى قد تم** ، وبعدها يمكن ان تتلاحق حلقات المعركة فى طريق محتوم هو ايضا الطريق المرسوم . **فكل ضغط الرئيس الأمريكى من أجل ألا تبدأ مصر بالهجوم كان الهدف الأساسى والوحيد منه أن يمكن لاسرائيل من أن تبدأ هى بالهجوم ،** وبالهجوم بالطريقة المحسوبة المبيتة . والواقع ان هذه الخدعة التى نفـذها الرئيس الأمريكى شخصيا كانت أساسية وشرطية لنجاح المؤامرة ، وجاءت بالفعــل والأسف مصيرية بالنسبــة لمعركتنا .

علامة أخرى من علامات التواطؤ أن الاستعمار بعد أن شن حملة دولية مسعورة حول مضيق تيران وهدد باقتحامه بمظاهرة بحرية مسلحة ، وبعد أن أدرك فشله في تحقيقها وبدأ يخطط لتدخل عسكري من نوع آخر ، ظل ماضيا حتى آخر لحظة في الحملة الدعائية عن المضيق لتكون ستارا من الدخان يخفي التحول الجديد في مؤامرته ويكسب وقتا للاعداد لها .

علامة أخرى حاسمة ان اسرائيل التي تهاوت معنوياتها وظلت بكل وضوح ترتعد باليأس والرعب طوال الأيام العشرة الأولى ، لم تلبث فجأة أن انقلبت مندفعة نحو الحرب والعدوان . ولو قد كانت تدرك أن ما تملكه هي من قوة يمكنها من دخول المعركة واثقة ، ففيم كان التردد والهلع ، وما الذي قلب الوضع في يوم وليلة ان لم يكن ضمان محقق مخطط بالتدخل الأجنبي ؟ وليس أبلغ واقطع على ذلك مما أعلن رسميا قبل المعركة : **رسالة وشنطن الى تل أبيب من أن « الولايات المتحدة تستطيع أن تقدم لكم ضمانات أكيدة ضد التدمير بما في ذلك توفير الغطاء الجوي الذي يحمي مدنكم من القاذفات المصرية »** ، تصريح زعماء اسرائيل بعد تلك الرسالة من أن « اسرائيل متأكدة أنها لن تجتاز هذا الاختبار بمفردها » وأن « لدى اسرائيل اقتناع كامل بالموقف الأمريكي الذي لا يقبل التأويل » .

علامة أخرى ودليل ان التهديدات الهستيرية المسعورة الحاقدة التي ظلت تنطلق من كل الدوائر الأمريكية قبل المعركة ، اختفت فجأة قبيل وأثناء المعركة ، بل تحولت الى **مظاهرة من الفرح والشماتة المكشوفة ، وكان المفروض منطقيا أن تزداد التهديدات لاحتمال أن تدور الدائرة على اسرائيل** — لولا أنهم كانوا يدركون حقيقة التدخل المسلح المرتب لصالحها . وأكثر من هذا ، لم تنته المعركة الى ما انتهت اليه حتى سارعت الدوائر الحاكمة والشيوخ في أمريكا الى الاعلان في تشفي وتكبر المتآمر الذي نجح ، أن مصر والعرب أخطأوا حين تصوروا أن انشغال أمريكا في فيتنام يشلها ويغل يديها عن العمل في جبهة أخرى .

وعدا هذا فان من المؤشرات الدالة أن **حاملات الطائرات البريطانية التي وجهت الى البحر المتوسط في بداية الأزمة وحشدت فيه لم تلبث بمجرد انتهاء المعركة أن انسحبت خارجه** ، بعد أن حققت جريمتها النكراء . ومن ناحية أخرى تكشف الأيام بانتظام واطراد ، قبل المعركة وبعدها ، عن عمليات مؤكدة من التدليس والخداع والتزييف على مستوى الأسلحة والجنود داخل محور العدو : فمن **طيارين اسرائيليين يدربون في قاعدة هويلس** الأمريكية بليبيا وفي غيرها من قواعد أوربا ، ومن أعداد محددة **من الطائرات الأمريكية غادرتها أثناء المعارك نحو الشرق** ، الى فضح لعملية وضع **للعلامة الاسرائيلية على طائرات أمريكية** في عديد من القواعد الأمريكية بألمانيا الغربية واسبانيا وتركيا .. الخ .

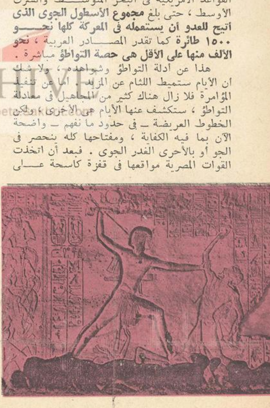
تلك جميعا أدلة دامغة على التواطؤ لا تقبل شكا ، ولكن دليلا واحدا ساحقا يكفي بعدها ليقطع كل شك باليقين ، واعني به واقع المعركة ذاتها . فمن ناحية اتت طائرات العدو المغيرة على مصر من ناحية الغرب ، والمقدر ان مجال طائرات اسرائيل لا يكفي ليغطي الرحلة عن هذا الطريق جيئة وذهابا اذا امتدت حتى آخر حدودنا الغربية السياسية ، وان أمكنها ذلك حتى الحدود الغربية للوادي المعمور نفسه اي غرب الدلتا ؛ وعلى أية حال لو استطاعت لكانت عرضة لأن تكشف وهي في طريقها من الشرق قبل أن تستدير نحو الغرب . **انها اذن اما طائرات غربية لقوى التواطؤ أتت من حاملات البحر أو من قواعده في ليبيا وغيرها ، واما انها طائرات العدو الاسرائيلي اتخذت من تلك الحاملات أو القواعد الأمريكية محطة على الطريق** ومنطلقا او من معلومات طائرات التجسس الأمريكية طريقا آمنة في الأجواء المصرية .

اضف الى هذا **كثافة الأسطول الجوي الذي استخدمه العدو في المعركة** . فالمقدر رسميا بحسب أعلى قيادة عربية ان قوته وصلت على الأقل الى ثلاثة أمثال ما كان معروفا لدى اسرائيل نفسها . هذا عدا **ما شوهد في سماء المعركة من طائرات أمريكية وبريطانية** بلا مواربة ، وما كشفت عنه طائرات العدو التي اسقطت واعترافات ملاحيها بقدوم ودخول طائرات الاستعمار الانجلو أمريكي . وبعد هذا كله ، فكما أكد رئيس الوزراء السوفيتي ، ما كان يمكن لاسرائيل قط أن تحرز نصرا عسكريا على العرب لولا

تدخل الاستعمار الغربى الحاسم . بل قبل هذا كله ما اعترف به العدو الاسرائيلى نفسه حين اعلن قبل المعركة أن ((**الذين يطالبون اسرائيل بأن تقف وحدها انما يطالبونها بمعجزة**)) .

ولابد هنا من وقفة عند توازن قوى السلاح فى المعركة ، حتى ندرك دور ومساهمة التواطؤ . فرغم أن من المرجح على ما يبدو الآن أن تقديراتنا نحن العرب لقوة تسلح اسرائيل لم تكن جامعة تماما ، فجاءت أقل من الحقيقة نوعا ، فان من المؤكد أن هذا لم يكن ليغير من حقيقة تفوقنا ، دع عنك تماما ان يفسر ما اشترك به العدو من ترسانة خطيرة فى المعركة . وهنـــا يكمن دور التواطؤ . فالمعروف الآن أن الولايات المتحـدة أرسلت الى اسرائيل مئات من الطائرات عـلى موجات قبيل المعركة ، عدا الآلاف من **((المتطوعين))** من الطيارين الغربيين ، وفوق هذا كله عدد غير معروف ــ بضع مئات أخرى بالتأكيد ــ شارك فى المعركة من قلب الأسطول السادس وكل حلقة القواعد الأمريكية فى البحر المتوسط والشرق الأوسط ، حتى بلغ **مجموع الأسطول الجوى الذى أتيح للعدو أن يستعمله فى المعركة كلها نحـو ١٥٠٠ طائرة** كما تقدر المصادر العربية ، **نحو الألف منها على الأقل هى حصة التواطؤ** مباشرة .

هذا عن أدلة التواطؤ وشواهده ، ولا شك أن الأيام ستميط اللثام عن المزيد . اما عن تنفيذ المؤامرة فلا زال هناك كثير من المجاهيل فى معادلة التواطؤ ، ستكشف عنها الأيام هى الأخرى ، ولكن الخطوط العريضة ــ فى حدود ما نفهم ــ واضحة الآن بما فيه الكفاية ، ومفتاحها كله ينحصر فى الجو أو بالأحرى الغدر الجوى . فبعد أن اتخذت القوات المصرية مواقعها فى قفزة كاسحة عـلى



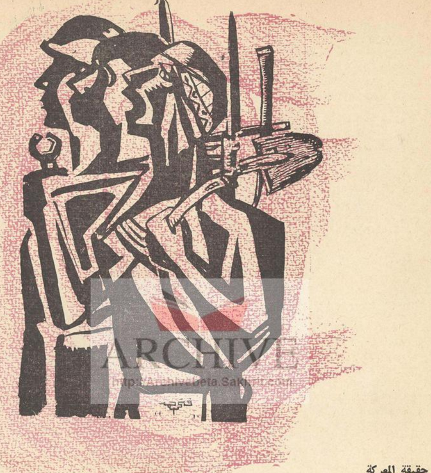
الحدود واحتشدت فى سيناء فى انتظار الهجوم الاسرائيلى المفاجىء ، جاءت المباغتة لا من الشرق كما هو مفروض ، وانما من الغرب اتت ، من الغرب حيث لا مصدر للخطر ولا استعداد للانذار ، فاستطاعت فى ضربة غادرة فى الظهر ، قدر قوامها بنحو ٥٠٠ طائرة ، أن تنال ، وتنال كثيرا ، من سلاحنا الجوى مطارات وطائرات جاثمة ، مـع ملاحظة **أن أسرارنا العسكرية ومواقعنا الجـوية تنقل بداهة الى العدو الاسرائيلى بانتظام عن طريق طائرات بل وسـفن التجسس الأمريكية** التى تغطيها كما تغطى كل بلاد العالم .

وكما رأينا فليس ثمة مصدر ممكن لهـذه الطعنة الغادرة سوى عن طريق الحامـلات الأمريكية فى البحر او القواعد الأمريكية فى ليبيا ، أو عن طريق مجـالات الأمان غـير المطروقة أو المحمية التى حـددتها طائرات التجسس الأمريكية .

وايا ما كان ، فلا مفر لنـا من أن نعترف ــ بالحزن والأسى كله ــ أن هذه الطعنة كانت قاصمة ، لأنها جردتنا من أخطر سلاح فى المعركة منذ أول لحظة ، مما ترك القوات البرية الضخمة بلا غطاء جوى فى قلب صحراء سيناء المكشوفة تماما ، وكانت بذلك تحت نيران العدو المثلث بكل كثافتها فضلا عن مواجهتها للثقل الأكبر من القوات الاسرائيلية البرية . وفى نفس الوقت الذى تفرغت فيه القوات الاسرائيلية الجوية تماما للعمـل الهجومى البحت ، بل وبمدد متجدد لا ينقطع من حماتها ، خارج حدودها ، **تكفلت دولتا التواطؤ باقامة حلقة نارية وحشية مكثفة بالغة الكثافة على التخـوم العربية فى سـيناء وسوريا والأردن** (حيث قدرت قوة الهجوم على الأخيرة وحـدها بنحو ٤٠٠ طائرة) . **أضف الى هـذا ما قدمت قوات التـواطؤ من مظلة حماية جوية كثيفة فى سماء اسرائيل** نفسها كادت تجعلها غير منفـذة لرد الفعل والعقاب العربى .

ورغم بسالة قواتنا البرية وصـمودها فى استماتة نادرة ، فقد أصبح الوضع جميعا غير متكافىء والمعركة غير عادلة أشبه بحرب بين جيش برى وجيش جوى ، بل بين جيش برى وجيشين أحدهما برى والثانى جوى . فكان الانسحاب على مراحل حتى القناة . وعندها استغل العـدو الحاقد فرصة توقف القتال على الجبهة المصرية ليركز ضرباته بحيوانية مسعورة وغل لئيم على سوريا انتقاما من وقفتها الفدائية الوطنية ومن صمودها البطولى وتحقيقا لأقصى قدر من التوسع الاقليمى فى آخر لحظة وبعد قرار وقف الاطلاق .

وشىء مثل هذا يقال عن الجبهة الأردنية .



حقيقة المعركة

والسؤال الآن بعد هذا التشريح هو : كيف نشخص المعركة فى جوهرها وصميمها ؟ نحن ابتداء ازاء عدوان ثلاثى جديد لا سبيل الى الشك او التشكيك فيه ، عدوان اخذت فيه الولايات المتحدة دور الصدارة سافرة رغم كل تمويه وانكار ، واحتلت فيه بريطانيا مكان فرنسا فى عدوان ١٩٥٦ . غير أن عدوان اليوم يختلف فى كثير عن عدوان الأمس . فاذا كان لا يقل حقدا وكراهية ، ولا يقل حجما وحشدا وشراسة ، فانه اكثر ذكاء وتمويها او بالأحرى وكما عبر الرئيس عبد الناصر أكثر خبثا ولؤما ، ويمكن ايضا أن نضيف ـ واكثر قذارة وخسة . فلقد **أفاد العدوان الجديد من دروس العدوان القديم ،** وجاء كما لو كان جولة فى منافسة بين المجرمين فى فن الاجرام ، ودرسا فى الأستاذية التآمرية تلقنه امريكالبريطانيا وتعرض فيه بهاغرورا وصلفا وتأكيدا لتفوقها .

فعدوان المتواطئين فى ١٩٥٦ كان سافرا فى الميدان بالغزو البريطانى الفرنسى المكشوف لأرض عربية ، اما العدوان الأخير فقد تخفى فيه التدخل المتواطىء الأمريكى البريطانى فى ثياب تنكرية اسرائيلية ـ مجازا وحرفيا ـ واتخذ مسرحه أرض اسرائيل حتى لا يفتضح على أرض عربية . وهذا الترتيب بالدقة هو الذى ينكر المتواطئون على أساسه تواطؤهم بكل تبجح وختل .

ومن هنا يأتى الفارق الجذرى بين التدخلين . ففى ١٩٥٦ كان تدخلا شاملا مثلث الأبعاد : برا وبحرا وجوا ؛ ولكنه اليوم كان جوا فقط . الأول غزو بحاملات الجنود ، والثانى غزو بحاملات الطائرات . كان الأول من طراز الحملات التقليدية عبر البحار والتى عرفها التاريخ حتى القرن التاسع عشر ، أما الثانى فمن طراز القواعد العائمة واقرب الى تكنولوجية ولوجستية القرن العشرين . ولعل هذا وحده فى ذاته ان يعكس بعض الفرق بين أساليب وقدرات الاستعمار القديم والاستعمار الجديد .

وفى ظل هذا الدور الجوى يمكن ان نحلل مؤامرة العدوان فى عناصرها الأولية الى اثنين : الأول غارة غادرة مباغتة ، غيلة فى الظهر والظلام ، من طراز « پيرل هاربر » تعتمد على كثافة جوية شديدة تصل الى حد **الحرب الصاعقة** تجردنا بها من سلاحنا الجوى قبل أن تبدأ المعركة البرية المدرعة ، التى تمثل العنصر الثانى فى المؤامرة وترسم بدورها معركة من طراز **« حرب الصحراء »** الذى عرفته الصحراء الغربية فى الحرب العالمية الثانية ، وانما على أرض سيناء وبغير تكافؤ — وهذا هو صلب المؤامرة — **بعد أن** شل الغطاء الجوى المصرى .

ومن هذا التشخيص ينبع أو يبرز فارق آخر بين ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . ففى الأولى أريد لسيناء أن تكون مصيدة برية وفخا أرضيا للقوات المصرية بين العدو الاسرائيلى من أمام والغزو البريطانى الفرنسى من خلف . أما هذه المرة فقد أريد لسيناء أن تكون مصيدة جوية ، مصيدة معلقة ، لقواتنا البرية المسلحة ، وذلك بعد ان كانت هذه قد تقدمت اليها ثم ما لبثت ان تخلفت عنها قواتنا الجوية . والفارق هنا بين العدوانين ان مصر سارعت فى العدوان الأول بسحب قواتها من مصيدة سيناء فى الوقت المناسب ، أما فى الثانى فكان الوقت متأخرا جدا والسهم قد نفذ .

ومن هذه الفروق وتلك جميعا يمكن أن نرى الفارق النهائى بين دور اسرائيل فى المؤامرتين . **ففى ١٩٥٦ كانت اسرائيل مخلب قط أو طعما — طعما قذرا يستدرج الفريسة الى المصيدة لتطبق عليه قبضة الصياد القادر . أما فى ١٩٦٧ فكانت اسرائيل حصان طروادة — مجرد واجهة وقناع تخفى العدوان القادر وراءه بل داخله فعلا .** اما قيمة هذا الدور الاسرائيلى فى المعركة فكان فى ١٩٥٦ وباعتراف وتشبيه القائد الصهيونى موشى ديان نفسه كمن يصعد على دراجة تلا وهو متعلق بعربة لورى . اما فى ١٩٦٧ فموقف التدخل الاستعمارى كمن قيد ذراعى شخص عملاق على غرة ومن خلف بل وكسر احداهما ، فتقدم العميل الاسرائيلى القمىء ليكيل له الضربات بجبن وخسة ولكن بلا رادع .

واذا كان ثمة فارق آخر واخير ، فهو ان العدوان فى ١٩٥٦ — **عدوان الاستعمار القديم** — لم يكسب المعركة العسكرية وخسر المعركة السياسية ، اذ أدى افتضاح التواطؤ والعدوان المكشوف الى انهيار معسكر العدوان وانهيار مهندسيه انهيارا مخزيا مروعا . أما التواطؤ الخبيث المثلم فى ١٩٦٧ — **عدوان الاستعمار الجديد** — فبعد أن كسب معركة عسكرية رخيصة دنيئة ، فان مجرمى الحرب لا سيما منهم الأمريكان لم يزل جميعهم سكارى بانتصارهم وأفلتوا من العقاب والادانة ، بل ويجدون فى أنفسهم الفرور والقحة على التباهى بالنصر والتنصل المتبجح فى نفس الوقت من الجريمة ! ولكنا نثق بأنهم اذا كانوا قد كسبوا المعركة العسكرية فان المعركة السياسية هم فيها خاسرون .

ونصل الآن الى الحكم العام على المعركة ، تأسيسا على هذه المقارنة والتشخيص جميعا . فى ١٩٥٦ لم تكن معركة اصلا بيننا وبين العدو الاسرائيلى ، وكل ادعاءاته الكاذبة باحراز نصر هى خرافة بل سفه محض لا يستحق ردا . اما اليوم فقد وقعت معركة وخسرناها بالفعل ، ولكنها لم تكن فى الحقيقة بيننا وبين اسرائيل ولم نخسرها لاسرائيل أو على يديها ، وانما خسرناها على يدى التواطؤ الأمريكى الجوى المبيت بالغدر والحقد والنذالة ، وهو تدخل لم يكن فى استطاعتنا ردعه وحدنا ، وكان المقدر والمأمول أن يقابله تدخل مضاد من قوة مكافئة . لقد كانت الحرب حربا بين العرب فى ناحية وامريكا واسرائيل فى ناحية أخرى ، أو باختصار عملى بين العرب وأمريكا .

ومن المحقق ان اسرائيل ستملأ الدنيا ضجيجا بانتصار لها جديد ، وستظاهرها فى ادعاءاتها القوى المعادية فى الغرب اذلالا للعرب وتحطيما لأسطورة القوة المصرية او العربية . ولكنا نثق بغير حد أنها انما تمارس خداع الذات مرة أخرى ، ونثق بكل قوة أنه لولا التواطؤ الداعر من جانب الاستعمار لسحقت قوة اسرائيل الذاتية سحقا لا على أرض سيناء وانما على أرض فلسطين المحتلة حتى تل أبيب .

غير أن حساب الأرباح والخسائر لا يتم الا بالنقد الذاتى ، صريحا وشجاعا . هل أخطانا فى المعركة ، وما هى الأخطاء تلك ؟ قد يقال اننا

ضيعنا أياما عشرة ثمينة كان العدو فيها يرتعد فرقا ، فى انهيار وانقسام وحيرة مهلكة . وقد يتساءل البعض كذلك عما اذا لم تكن استجابتنا للضغوط أو المناشدات سواء من الأعداء أو من الأصدقاء بألا نبدأ الهجوم فيصلا عكسيا فى المعركة . **فهل هذا النقد صحيح ؟**

ما أسهل — ولكن ما أسوأ — الحكمة بعد الواقعة . وهذا بالتحديد ما نرى . فالحقيقة انه كان لابد من الانتظار فى الأيام العشرة لنرصد احتمالات التدخل ومداها . وأما تأجيل الهجوم مؤقتا فكان ضرورة لثلاث ، **أولا** ألا نعطى فرصة وحجة للعدو الأمريكى المتربص الذى يتلمس كل ذريعة للتدخل السافر ، **وثانيا** الا نخرج الأصدقاء ، **وثالثا** الا ننفر المحايدين وأصحاب المواقف الهامشية والأصوات العائمة . وعلى أية حال ، فأنى كان لنا ان نعرف بخبايا المؤامرة المبيتة ؟ واهم من ذلك ، وسواء عجلنا بالهجوم أو أجلنا ، فقد كان العدوان الأمريكى الاجرامى آتيا فى صورة او اخرى على أية حال . والواقع أن المرء كلما تمعن احداث المعركة — بعد ما كشف — يكاد يصل الى نتيجة منطقية وهى أنه لم يكن فى الامكان الا ما كان ، وأنه اذا كان ثمة خطأ فهو خطيئة تدخل دولة عظمى جبانة غادرة عادية بالتحيز والتعصب وحدهما ، دون أن ينفى ذلك امكان وقوع أخطاء أولية أو ثانوية من جانبنا لم تعلن بعد . ومهما يكن من أمر ، فان النصر ، هذا الذى كان أملا ضخما فقدناه ، لن نسترجعه الا بعد ان نعى دروس النكسة ونرتفع الى متطلبات الموقف التاريخية ، وهذا ما ينقلنا الى الجانب التالى من دراستنا عما بعد المعركة .

الا أن سؤالا يفرض نفسه ، قبل هذا ، عن الاطار الأكبر للتواطؤ الأمريكى بالذات . ان عداء أمريكا وكراهيتها لنا كانا واضحين لسنين ، بل لعلها كانت فى الحقيقة فى حالة حرب سرية معنا . ولكن حقدها وحربها اللاأخلاقية وصلا الى المنتهى وافتضحا مع العدوان ، حين تحولت الحرب السرية الى حرب سافرة ولكنها مقنعة وغير معلنة . ولقد كنا نعرف تماما **أن أمريكا هى اسرائيل وأن اسرائيل هى أمريكا كما عبر بصدق ونفاذ ثاقب الرئيس عبد الناصر ، ولكنا لم نكن نتصور أن تكون أكثر صهيونية من اسرائيل ومن الصهيونية** . فلماذا كانت ؟

حماية أمريكا لبقاء اسرائيل انما هى مجرد خط فى مخطط وجزء من كل ، وان هى الا الجانب السلبى على ضراوته فى معركة كبرى أكثر ضراوة جانبها الايجابى هو القومية العربية بالتحديد .



ان هدف أمريكا الآن السيطرة على العالم جميعا واخضاعه لنفوذها لخلق أول امبراطورية كوكبية فى التاريخ الامبريالى وان يكن فى شكل غير مباشر هو الاستعمار الجديد . والعالم الثالث ، هشا ومتخلفا ، هو الهدف المباشر ، وقد تساقط بعضه بالفعل . **لكنها القومية العربية ، وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة بالتحديد ، وعلى رأسها عبد الناصر بمزيد من التحديد ، هى الصخرة التى تتحطم عليها مسيرة الطغيان والجبروت الأمريكى .**

من هنا ذلك الحقد الرهيب وتلك الكراهية الرعناء التى وصلت الى حد الحرب غير المعلنة تبغى أن تجعل من المثل أمثولة ، والتى يضاعف منها تلك المفارقة التاريخية — المفهومة على ندرتها — من **أن بعض الدول الصغرى قد تملك زعماء أكبر منها ، بينما قد تملك بعض الدول العظمى زعماء أصغر منها** . فبينما ظفرت القومية العربية بزعيم فلتة تجسد فيه مائة مليون تجسدا قل مثيله وتكاد تحسدها عليه اغلب الشعوب ، رزئت أمريكا — والعالم معها — بوصولى محترف لا أخلاقى (باعتراف بعض الأمريكيين أنفسهم) ، ورث الحكم صدفة فى غفلة من الزمن ويشعر بمركب نقص ذاتى حوله الى طاغية عالمى متعجرف يطفح بالحقد والشراسة والتدمير كالثور فى متحف الخزف . (لاحظ أن الشر والسوء نالنا من أمريكا فى ادارات « الرؤساء بالوراثة » أى عن وفاة رئيس سابق ، ابتداء من ترومان الى جونسون ، وفى كل مرة اتخذ الشر شكلا يتعلق باسرائيل بالتحديد) .

ان الرأسمالية الأمريكية العاتية قطعت شوطا رهيبا نحو الفاشية المبطنة ، **بعد أن سيطرت عليها**

آلة وآلهة الحرب ، ولقد تحولت أمريكا على أيدى عصابات رعـاة البقر وخاصة فرعون تكساس وسفاح العصر الى لعنة العالم الجديد والى تتار الغرب وونـدال القرن العشرين ، بل لقد شبهها البعض بأنها سرطان العالم المعاصر . وقد أصبحت أمريكا العـدو الأكبر أو الأصيل للعـرب ، أما اسرائيل المجرمة المباشرة فهى قاعدة أمريكية عسكرية كسائر القواعد ، الا أنها قاعدة بدرجة دولة وطاقمها جميعـا من اليهود . ولن تزول القـاعدة الا اذا كسر البغى والطغيان الأمريكى الحاقد المتعطش للقوة والدماء .

ولقد ظلت أمريكا تحتفظ بقواعدها العسكرية التى تطوق العـرب من كل جانب وبأساطيلها ـ هذه « **الانكشارية العائمة** » ـ فى البحـر المتوسط سنوات طوالا منذ الحـرب الثانية **دون أن تستخدم اطلاقا الا ضـد العرب حتى الآن ، وذلك أكثر من مرة : أزمة لبنان ١٩٥٨ ،** والعدوان الاجرامى الأخير ١٩٦٧ . بل ان كل جهاز الحرب الأطلنطى لم يستخدم لضرب شعب ما مرتين فى عقد واحـد الا فى العالم العربى . وقد وجب على العرب أن تدرك هذا كله وتتصرف على أساس أن الصراع مع أمريكا صراع حيـاة أو موت ، وأن مقتل اسرائيل انما يكمن فى مواجهة أمريكا .

بين المعركة السياسية وحرب الثأر

ومعركة هى بالتأكيد ، بل انها هى الهدف والقمة للمعركة الحربية التى تمت ، مثلما هى خير ما يعرى تواطؤها ويكشف عنه فى سـفور مطلق . فالموقف الآن منذ وقف اطلاق النـار يتلخص اساسا فى عمل من جانبنا لازالة آثار العدوان والعودة بالوضع الى ما كان قبل الحرب (ante bellum) ؛ وعمـل مضـاد من جانب معسكر العدو لتشريع وتثبيت نتائج العدوان أى فرض الأمر الواقع حسب الحـالة الراهنة (stotus quo) . **وهـذا مدار المعركة السياسية** ومحور استراتيجيتها . وبعبارة أخرى ، فاذا كان هدف المعركة الحربية أن تكسب القتال ، فان هدف المعركة السياسية الآن أن تكسب الحرب .

فأما موقفنا نحن فواضـح كالبديهيات : **لن نسمح للمعتدى بثمار العدوان** ، ولا نقبل ان يكافأ الغدر او المجرم على جرمه ، لا تنازل عن شبر من الأراضى العربية أو عن ذرة من الحقوق العربية ، ولهذا لابد من ادانة العدوان الصهيونى الاستعمارى وانسحاب القـوات المعتدية فورا وبلا شرط الى ما وراء خطوط الهدنة كما كانت يوم ٤ يونيو اى خطوط ١٩٤٩ .

وقد جندت الدبلوماسية العـربية كل أسلحتها وحشدتها لكسب هذه المعركة السياسية المريرة والمصيرية والتى لا شك ستكون ممطوطة مطولة . **ويمكن أن نحلل أسلحة الاستراتيجية العربية فى مجموعتين : قوى ضاغطة هى الأسلحة المعنوية أو الديبلوماسية ، وقوى ضـاربة هى الأسلحة المادية أو الاقتصادية .**

فعن الأولى ، من الواضح أن من ابرز نتائج العدوان الثلاثى الجديد حقيقتين على جانب كبير من الخطورة : **وحـدة العرب** ـ كل العرب ـ شعوبا وحكومات الى حد لم تعرفه من قبل فى الواقع ، اذ تغلبت الوحدة القومية ووحدة المصير والكيان فى وجه الخطر الخارجى الاجرامى على كل الخلافات المحلية الثانوية . فبادرت الدول العربية الى قطع علاقاتها مع دولتى التواطؤ . النتيجة الثانية **اقتناع السواد الأعظم من شعوب العالم** ودوله بعدالة **قضية العـرب المصيرية ،** ووقوفها ضد العدوان . فبادرت دول المجموعة الشرقية وبعض الدول الافريقية الى قطع علاقاتها مع اسرائيل ، كما نددت وكثير غـيرها بدولتى التواطؤ . وتعمل الديبلوماسية العـربية الآن بالاشتراك مع جبهة عريضة من الجهود الصديقة فى العالم الثالث والدول الشرقية والرأى العام العالمى الحر . وذلك لا شك من الضواغط المؤثرة سياسيا .



أما الأسلحة المادية أو الاقتصادية التى شرعتها الدول العربية كعقوبات للتواطؤ والعدوان فتتلخص فى ثلاث هى **البترول ثم القناة ثم مصالح الأعداء المحلية** . ولقد قطع تدفق البترول بالفعل وعلى مستوى العالم العربى كله عن دولتى التواطؤ ، كما أغلقت القناة فى وجه الملاحة ، ومنعت كثير من الدول العربية التجارة مع الأعداء وحجبت عنهم كثيرا من نشاطاتهم الاقتصادية فيها ، وربما سحبت أرصدتها الضخمة من بنوكها . والنقطة الأساسية فى هذه الأسلحة الثقيلة أن فاعليتها رهن باجماع العرب ووحدتهم أولا حتى لا يكون تسرب أو تسلل ، ثم هى رهن بالصمود الطويل المدى ثانيا لأنها أسلحة بطيئة أساسا وحتى يكون خنق العدو اقتصاديا خنقا تاما . ولا شك أن هذا يتطلب تضحيات وصعوبات هامة بالنسبة للدول العربية ، وهذا بالدقة ما سيحاول العدو أن ينفذ منه لتفتيت وحدة الموقف والعمل العربى أو لتمييع فاعلية العقوبات بطرق ملتوية أو التحايل خلسة عن طريق طرف ثالث ... الخ ... ولكن ما أهون كل تضحية مادية واقتصادية فى سبيل الكيان والوجود ذاته ، وليس صحيحا ان قطع البترول سلاح ذو حدين سواء فى المدى القصير او الطويل ، وأبعد منه عن الصحة ما بدأ الاستعمار يشيعه بخبث لتحطيم المقاومة العربية من أنه سلاح **« انتحارى »** .

لا شك اذن ان هذه جميعا يمكن أن تكون أسلحة قاتلة للأعداء ويمكن أن ترغمهم على الضغط على عميلتهم اسرائيل للانسحاب الى خطوط الهدنة : **فلا بترول ولا قناة ولا تجارة حتى تنسحب اسرائيل** . ومع ذلك فينبغى أن ندرك متتالية أساسية فى فاعلية هذه الأسلحة الاستراتيجية . فهى أولا لا تأثير لها مباشرة على اسرائيل ولا علاقة لها بها فى ذاتها . وثانيا فان وقعها على أمريكا التى تملك زمام اسرائيل محدود غير مؤثر لما تملك من انتاج بترولى ضخم ولوقوعها فى العالم الجديد بعيدا عن مجال قناة السويس . أما الضربة الحقيقية والقصوى فتقع ، أخيرا ، على بريطانيا حيث تعيش على بترول العرب وقناة العرب ، ولكن بريطانيا ذنب فى الأمر كله ولا تملك من امر اسرائيل شيئا حاسما .

ذلك موقفنا وتلك أسلحتنا ، اما معسكر العدو فهدفه المباشر فى كلمة واحدة هو التوسع الاقليمى ، وذلك بمنطق الأمر الواقع وقوة العدوان ، ليس فقط ما كان منه وما هو كائن بل وبما يهدد بأن يكون . **فليس من الصدفة أن أعلنت اسرائيل بعد المعركة توا أنها تفكر فى انتاج قنبلتها الذرية نهائيا** . فما هذا التلويح والتوقيت الا مزيد من الارهاب والتهديد والابتزاز للعرب لاثارة المزيد من الذعر والتخلخل بينهم .

وتتوهم اسرائيل وخالقوها أنها قد حققت مرحلة من أحلامها الاستعمارية فى امبراطورية صهيونية توسعية ، وانها اذا ضمت الأراضى التى اغتصبتها فى عدوانها الأخير فانها تحقق لنفسها **« اسرائيل الوسطى »** خطوة على الطريق من **« اسرائيل الصغرى »** — كما تسمى نفسها حاليا — الى **« اسرائيل الكبرى »** كما تسمى حلمها الشرير من النيل الى الفرات .

وتتزعم الولايات المتحدة حملة ديبلوماسية عالمية ضارية لحساب ربيبتها العميلة ، وتحاول أن تفرض مساومة اقليمية بين الحق العربى والعدوان الصهيونى . ويمكن أن نلخص استراتيجية هذه المساومة فى أنها تبدأ بالمزايدة وتنتهى بالمناقصة ، وبهذا تمر بين الطرفين فى عدة مراحل تكتيكية . فالمرحلة الأولى تبدت فى شلها التام لمجلس الأمن بالمناورات المعيبة المبتذلة فى واجبه من ادانة العدوان وتصفية آثاره .

وفى ظل هذه المرحلة وجدنا قمة المزايدة حين انطلقت الأصوات الحاقدة التى تقطر غلا على العرب من شيوخ الولايات الى أشباح الساسة الموتورين فى بريطانيا وأوربا ، عدا زعماء العصابة الاسرائيلية أنفسهم بالطبع ، انطلقت تطالب فعلا باعادة تخطيط حدود اسرائيل على أساس التوسع والاغتصاب الجديد بزعم الحقائق الواقعية الراهنة ، وبحجة ضمان أمن اسرائيل والسلام فى المنطقة (كذا !) . ومعنى هذا ضم شريحة من جنوب سوريا ، ثم الضفة الغربية من الأردن ، ثم غزة وسيناء ، هذا فضلا عن حق المرور لا فى خليج العقبة ومضيق تيران فحسب بل وعبر قناة السويس كذلك (كذا !) .

غير أن هذه الأوهام السفيهة المجنونة تبددت فى المرحلة الثانية حين انتقلت القضية الى الجمعية العامة للأمم المتحدة . ففى مواجهة الضغوط العالمية ضد العدوان ، بدأت المناقصة . ولم تتبد حتى هذه اللحظة مدار هذه المرحلة أو ما بعدها ، وان بدأت تلوح بعض مساوماتها **وهى تحويل الهدنة بين العرب واسرائيل الى صلح دائم — وهو حلم الاستعمار القديم** الذى يتوهم ارغام العرب على المفاوضة المباشرة مع اسرائيل ثم الاعتراف بها . والمفروض الآن فى مقابل هذا الاعتراف أن تنسحب اسرائيل عما اغتصبته فى العدوان الأخير الى « حدود » الهدنة ، ولكنها بهذا الانسحاب تشترى شرعية كيانها الى الأبد وضمان وجودها ،

الأمر الذى يضمن ضمنا حرية مرورها فى خليج العقبة بل وفى قناة السويس !

وقد كشف عن مرامى هذه المساومة اعلان رئيس الولايات المتحدة أن الدول المعنية فى الشرق الأوسط التى ستقبل اقرار سلام دائم ستحصل أو هى التى ستحصل على مساعدات اقتصادية أمريكية . كما ردد دعوة الصلح والاعتراف ، ثمنا لانسحاب العدوان ، قـــادة بريطانيا فى نفس الوقت . كذلك فقـــد بدأت أعراض مؤامرة خسيسة جديدة . فبعد أن ظلت أمريكا تدعى الحق — متطفلة — فى رفض أى تغيير فى الحدود الاقليمية فى الشرق الأوسط وتفرض لنفســـها حقا مزعوما فى التدخل لتنفذ ذلك بالقوة ، فان الملاحظ بعد المعركة التوسعية الاسرائيلية الأخيرة انها كفت عن ترديد النغمة القديمة ، توطئـــة لفرض الحدود الجديدة لا شك . ومعنى هـــذا ببساطة أنها انما كانت تحمى حـــدود اسرائيل ما دامت مهددة وذلك تحت زعم حماية حـــدود العرب أيضا ، ولكنها تشجع وتحمى توسع الأولى اذا وقع ..

وأيا ما كانت أو ستكون مراحل المناقصـــة التالية ، فلعلها ستتقلص فى نهـــاية المطاف الى شرط اساسى هو ضمان حرية مرور اسرائيل فى مضيق تيران ، الى جانب بعض شروط ثانوية كضمان منع عمليات الفدائيين على الحـــدود أو عودة قوات الطوارىء الدولية .. الخ ، وعندها ستعود المناورات الاستعمارية الى مشاريع تدويل خليج العقبة ، أو بالأحرى وبالتحديد تهويده ، على نحو ما دارت بوادر الأزمة .

ونحن نشك فى أن اسرائيل ستقبل حدا أدنى من هذا ، بل نشك أصلا فى أن تصل اليه قبولا أو بالضغط . نقول هذا لسبب بسيط ولكنه قاطع ، فالأزمة التى فجرت الموقف الى درجة الحرب انما بدأت أصلا بمنع اسرائيل من المرور فى المضيق ، ولو قد كانت على استعداد لأن تقبل بذلك لما قبلت بمخاطرة الحـــرب فى وقت كان الموقف الحربى فى غير صالحها ، فكيف وهى ترى نفسها — بغض النظر عن التواطؤ — تضع أيديها الآن لا على المضيق وحده بل على أراض عربية حوله ؟ هل من المتصـــــور ان تقبل اسرائيل — ودعك من حقدها الصهيونى البشع وكراهيتها الحيوانية للعرب وأطماعها المتوحشة فيهم — أن تخسر المعركة السياسية وقد كسبت لها المعركة العسكرية ؟ وبالفعل فقد حملت الأنباء ، بعد أن تم كتابة هذا ، اعلان اسرائيل عدم الالتزام بأى قـــرار بالانسحاب لتقطع الطريق على الضغط والعمل السياسى قبل أن يبدأ .. وهذا ان اتفق مع توقعنا ، فانه قد لا يغير من المراحل التى ستمر بها المعركة السياسية غالبا .

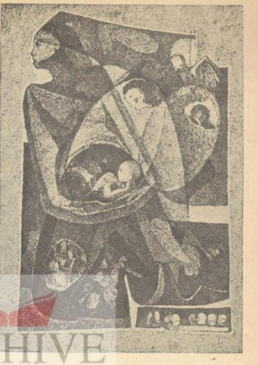
ومن الناحية الأخـــرى ، فقد ذهبت مصر والعرب الى الحرب لاستعادة حقـــوق السيادة البحتة على مياهها الاقليمية ، وهى ليست على استعداد لأن تفرط فى ذرة من رمالها أو مياهها ، ولن تقبل أن يكون العدوان تبريرا للسرقة وأن يكتسب الاغتصاب شرعية أى شرعية . وهى ان فعلت ، فمعنى ذلك أنها خسرت المعركة العسكرية والسياسية وقبلت بذلك ، وهذا محال بالطبع .

من هنا فنحن نرى أن الاحتمال الغالب أن اسرائيل مهما أدينت وطولبت بالانسحاب من قبل الأمم المتحدة ، فلن تمتثل — متى فعلت ؟ ! — ولن تنسحب : انها هناك بالفعل والقوة ، وعلى من يريد أن يخرجها بالقوة .. ونخرج من هذا بأن **المعـــركة السياسية لن نكسبها عـــلى الأرجح بالأسلحة الدبلوماسية أو الضغوط الاقتصادية ، وانما بمعركة عسكرية جديدة نكسبها . المعركة السياسية لن تعدو أن تكون غالبا ، جمـــلة اعتراضية بين معركتين حربيتين ..** انتهـــاء متشائم ربما ، ولكنه واقعى فيما نظن ، واسلم مغبة للأمل والعمل العربى .

المعركة الثارية

جولة ثانية اذن هى وحدها المصحح الأخير والوثيق للجولة الأولى . واذا كان **« هذا ليس وقتا للحـــزن ولكن للعمل »** ، فذلك هو المعنى الوحيد للعمل — والوقت الوحيد أيضا . نريد أن نقول ان فترة المبارزات السياسية فى الأمم المتحدة ، التى قد تطول الى شهور ، هى بعينها وبالضبط فترة الاستعداد المصمم ، المطلق ، الصامت ، لمعركة مسلحة جديدة قد ندعى اليها فى أى وقت وقد تكون أصعب منالا واســـوأ ظروفا ، وبالتأكيد أقل طموحا واهدافا ، من الجولة الأولى ، ولكنها ضمان شرطى لاسترداد الحق العربى المستباح فضلا عن أنها الآن حيوية للروح المعنوية العربية وضرورة للنضال والهيبة معـــا .

فمما لا شك فيه أن العدوان الثلاثى الدنىء قد نجح — ولكن مؤقتـــا — فى تقليص أهدافنا النضالية من تحرير الأرض السليبة الى تحرير الأرض المفقودة . ولعل هذا هو الهدف الممكن موضوعيا ومرحليا لأى جولة اخـــرى مباشرة .



لا تفرقة عنصرية
للفنان
أحمد نوار

أما بعدها فذلك أمر آخر يحتاج الى اعادة تخطيط وتفكير وتوجيه جذرية وشاملة ليس ها هنا مجالها الآن . فاذا ما قبلنا هذا المنطق من حيث المبدأ ، فثمة كثير من الاعتبارات والمناقشات والتقييمات فى كل المجالات الاقتصادية والعربية والحربية تحتاج الى أن توضع موضع النظر ، ومدارها جميعا كيف ينهض جريح من وسط ركام ، ولا يمكن أن نعرض لها هنا الا عابرين .

فعلى المستوى الاقتصادى ، ومع تقديرنا التام للصعوبات والخسائر التى ترتبت وستترتب على العدوان ، **فان من الضرورى أن يعاد توجيه اقتصادنا القومى ليكون فى خدمة المعركة** العسكرية الثأرية اولا وأخيرا . لابد فى كلمة موجزة من **اقتصاد حرب ، وتخطيط حرب ، وميزانية حرب ،** تدور جميعا حول محور أساسى من التقشف ، والتقشف القاسى اذا لزم ، والقبول بالتضحيات والتنازلات وشد الأحزمة على مستوى الشعب والفرد ، مع الحد الأقصى من العمل ومضاعفة الانتاج . اقتصاد وتخطيط وبرنامج شعاره القائد : **الكرامة فوق الحياة ذاتها ، ودولة القوة قبل دولة الرفاهية ، ومجتمع الثأر قبل مجتمع الخدمات .**

ومن هذا المنطق يعاد ترتيب الأولويات ليأتى **التسلح والانتاج الحربى فى الصدارة** ، ثم الخطوط الاستراتيجية فى الانتاج الصناعى والزراعى ، بينما يتم تقليص وتقليم الخدمات الى الحد الأدنى الممكن واختزال كل كمالية أو ترف وتأجيل كل ما ليس عاجلا أو ضروريا . ونحن لا نشك لحظة فى أن التنمية الاقتصادية ، والخدمات الاشتراكية ، والرفاهية الاجتماعية ، كلها مطلب قومى عزيز ، ولكن من المؤكد أن الوجود والكيان والمصير تأتى فوق الجميع . ثم ان تلك الأهداف الغالية ليست ملغاة بل مؤجلة ، فالبرنامج كله موقوت عابر ريثما يتم النصر على العدو المحتل . ان هذا وقت البذل والانضباط ، ونخشى أن نقول اننا لم نعش بعد حقا على مستوى المعركة وعيا وتكريسا وعطاء .

اما على المستوى العربى فقد بات من الضرورى أن تتوارى الخلافات ، أيا كانت أصولها او دلالاتها ، أمام الخطر الجاثم ، لا سيما وقد



فرضت المعركة بالفعل وحدة الموقف الفورية على قادة العرب . لقد أدرك الجميع بصورة درامية ونهائية أننا لا نواجه اسرائيل ولكن أمريكا بكل حقدها ومقتها وبغيها ، نواجه أكبر حلف للتعصب والكراهية فى هـــذا العصر ، نواجه مفترق طرق عنوانه أن نكون أو ان لا نكون . الوجود القومى لا النظم الاجتماعية هى اليـــوم التى تتعرض للاختبار والتحدى . واذن فلا يجوز مثلا أن تبقى مشكلة كاليمن ، بل لابد من الاعتراف بالجمهورية وتأمينها فورا وبلا تحفظ .

لابد اذن من **وحده الصف ووحدة الهدف ووحدة العمل** ، بل لابد من « **وحدة حرب** » فى هذه المرحلة تقوم على وعاء غربى مشترك يشمل كل الدول العربية محاربة وغير محاربة لتمويل التسليح والمعركة بسخاء مطلق وبلا حـــدود ، وتنسق وتنفذ بكل دقة وصمود خطط الحرب الاقتصـــادية من **مقاطعة تجارية ووقف بترول وسحب أرصدة ومصادرة مصالح مادية وتصفية قواعد أجنبية** .. الخ . وليكن الشعار فى هـــذا كله ما قاله الرئيس عبد الناصر اخيرا : « ان من الضمانات الأولية اعادة توجيه المصالح العربية فى خدمة الحق العربى » ، « وأن الأمر الآن يقتضى كلمة موحدة تسمع من الأمة العربية كلها » .

وثمة هنا نقطة او اثنتان قد تقبلان الاختلاف فى هذه المرحلة الموقوتة : فقد يرى البعض أن الوحدة السياسية على مستوى أو آخر دستوريا أو جغرافيا مطلب ضرورى لضمان وحدة العمل الحربى العربى ، وقد لا يرى آخرون ذلك فى المدى العاجل . وبالمثل ، هناك من يعتقـــد ان وقف البترول عن الأعداء قد لا يكون رادعا لخطر التدخل الاستعمارى المسلح مرة ثانية ، وأن التأميم وحده هو الذى يمكن ان يصيب أمريكا بالذات . ولكن البعض يرى أن التأميم عملية أضخم من امكانيات العرب فى الوقت الحالى وقد يخلق من المشكلات أكثر مما يحل . وبين الاتجاهين اقتراح **بتأميم حصص الأعداء فى البترول** مع تحويلها لمـــدة محدودة ـ ٥ الى ١٠ سنوات مثلا ، وبشروط جديدة مقيدة ـ الى دول صديقة كفرنسا ، ليس فقط لضمان الخبرة والانتاج والتسويق ولكن ايضا لنثبت أن صـــداقة العرب لا تقل قيمة وخطرا عن عدائهم .

هذا عن ضرورات العمل على المســـتوى الاقتصادى والعربى كاطار وخلفية لمعركة الثار المنتظرة أو المحتملة . أما عن المجال العسكرى نفسه **فالمفهوم أن جزءا هاما من سلاحنا الجوى ـ نصفه أو زد عليه قليلا ـ قد نجا من غـــدر بيرل هاربر الجديد** ، وانه ما امتنع عن دخول المعركة بعد ذلك الا لتدمير المطارات ، وأهم من هذا جميعا **أن قوة الرجال من الطيارين ، وهى أثمن واخطر ما فى السلاح الجوى بالذات ، لم تمس بسوء خطير** . ومن ثم فبعد اصـــلاح المطارات ـ وهو أمر هين نسبيا ـ يكمن الحل فى تعويض خسائر الطائرات ثم مضاعفتها بالتوسع والنمو .

وهنا يأتى دور الأصدقاء فى الشرق ، وهو التزام اصـــبح أكثر من ادبى بعـــد أن حدث ما حدث . والمفهوم ان هذا قد تقرر بالفعـــل وبالوعى كله فى مؤتمر زعمـــاء الدول الشيوعية الأخير . وهنا يجب أن تكون اعادة التسليح على أسس جديدة تماما من حيث الكم والكيف بحيث تتناسب مع الأخطار الصاعدة وبمقياس يتكافأ مع ابعاد التدخل المتواطىء على نحو ما كشفت الجولة الماضية . كما ينبغى أن تكون أسس الدفع جديدة تماما هى الأخرى ، كلها تسهيلات وأغلبها بالأجل البعيد جدا .

ومثل هذا يقال عن القوات المدرعة ، حيث يفهم **أن الخسائر كانت فى العتاد قبل أن تكون فى الرجال . وواضح من هذا كله أن اعادة بناء القوة المسلحة** يمكن بالعزم والاصرار أن يطفر فى شهور . وباختصار فان المطلوب أن تتحول مصر الى ثكنة عسكرية او ترســـانة مسلحة بأسرع ما يمكن وكما لم تكن من قبـــل ، مع تلافى نقاط الضعف أو عدم الاستعداد التى كشفت عنهـــا

الجولة الماضية سواء فى الانذار أو مكافحة التجسس ، ولكن اساسا وقبل كل شيء مع تلافى « دفاعية » تلك الجولة التى استدرجنا اليها بالتغرير والمخاتلة .

ونقصد بهذا أن نضمن عنصرين جوهريين : الهجوم والمباغتة . ففى اطار من السرية المطلقة ، نتكتم تماما توقيت الهجوم ، ونكرر فى العدو ما حدث لنا تماما فى سيناء . فموقف العدو الآن فى سيناء يشبه الى حد ما موقفنا قبل العدوان حيث قواته موزعة او محتشدة فيها . فاذا أمكن بغارة جوية جبارة مباغتة ، على غرار ما فعل العدو فى بداية الجولة الأولى وبنفس القوة ، تغطى مطاراته دفعة واحدة فى وقت واحد فى سيناء واسرائيل ، اذا أمكن تجريد العدو من غطائه الجوى ، فقد وقعت قواته البرية فى سيناء فى مصيدة — بل فى مقبرة هذه المرة — كالتى ارادها من قبل لنا ، ويمكن ابادتها تماما . وعلى الجبهة السورية والاردنية وفى نفس اللحظة ، يتم هجوم مماثل . وبهذا يتم استعادة الأراضى العربية بنفس الاستراتيجية التى فقدت بها ، أو بالأحرى بنسخة مقلوبة أو بصورة معكوسة .

ومن شأن مثل هذه الحرب الخاطفة المباغتة ان تسبق بفترة قصيرة ، ولكنها ثمينة احتمالات تكرار التدخل المعادى ، التى قد تكون وقد لا تكون فى ضخامة او حتمية التدخل السابق نظرا لاختلاف اهداف القتال هذه المرة . ولكن المهم على أية حال انه لم يعد هناك مفر للأصدقاء الكبار من أن يدركوا جيدا — وقد أدركوا بالفعل — أن اى تدخل جديد ينبغى أن يجابه بتدخل مضاد . وعلى الأقل فان هناك من أشكال التدخل المضاد ما لا يدخل تحت باب التصادم الرسمى ، تماما على نحو ما فعلت امريكا فى تواطؤها الغادر ، فيمكن أن تقوم طائرات الأصدقاء بحماية أجوائنا بمظلة كثيفة فى الوقت الذى تتفرغ فيه طائراتنا للهجوم على العدو .

نقول هذا ليس فقط لأن المعركة لم تعد بين العرب واسرائيل وانما بين العرب وامريكا ، ولا لأن امريكا أعلنت بجلاء له مغزاه أن نتيجة المعركة السابقة « **انتصار للغرب** » ، وانما كذلك لأن انكسار العالم العربى هو انكسار لطليعة وقيادة العالم الثالث ، وسقوط العالم الثالث فى يد « العالم الأول » ليس الا الخطوة الأولى لحصار وتطويق « العالم الثانى » وضربه والعودة به الى نمط وتوازن ١٩٤٥ .

ان شراء « **التعايش السلمى** » بأى ثمن لوضع نهاية للحرب الباردة — هكذا ينبغى أن يدرك ، وقد أدرك ، الأصدقاء الكبار — يتحول وما ينبغى له ، فى كل العالم الى « **تعايش استسلامى** » لن يفيقوا عليه الا وقد تحولت الحرب الباردة الى حرب ساخنة مفروضة عليهم عدوانا أو دفاعا . ان التعايش السلمى لا يمكن أن يعنى أن تشل يد أحد الطرفين لينطلق الآخر استعماريا معربدا فى العالم ليعيده منطقة نفوذ له ، ولا يمكن أن يعنى العودة الى نمط القرن التاسع عشر . وهذا الطرف على أية حال لا يفعل ذلك الا ليحكم ضرب وتحطيم الطرف الآخر فى نهاية المطاف وكهدف أساسى .

ان التعايش السلمى بالنسبة للولايات المتحدة ليس فى صميمه الا تكتيكا مرحليا — على طوله — لتدمير المعسكر الآخر . وكل انتصار غادر يترك له ليلفت به انما يدنيه من ذلك الهدف ، وليس اسقاط المقاومة العربية الا خطوة على الطريق الى رقاب الأصدقاء الكبار . والتدخل المضاد من جانب هؤلاء الأصدقاء فى وجه أى تدخل أمريكى جديد انما هو دفاع عن النفس مثلما هو دفاع عن الغير . ومن حسن الحظ أنهم قد عادوا فحددوا موقفهم وعملهم بوضوح مدرك وتصميم مخلص ، حيث أعلن رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى الأمم المتحدة عدم انسحاب العدوان الاسرائيلى يعنى تجدد النزاع المسلح ، وأن « تجدد النزاع المسلح فى الشرق الأوسط قد يؤدى الى حرب نووية » .

وبعد ...

وبعد ، فان المعركة مستمرة ، والجولة الثانية آتية على الأرجح ، وعلينا ان نعيش روح الحرب بنفسية الحرب وعقلية الحرب . وغدا سترغم اسرائيل على أن ترتد الى قوقعتها ، وبعد غد ستسحق داخل قوقعتها بالدم والنار والحديد العربى ورغم كل طغيان الامبريالية الأمريكية السفاحة وتآمر قوى الشر والعدوان العالمى .

ان جرحنا ثخين — ولكنه ليس بقاتل ، والصدمة شديدة — ولكنها غير صاعقة . وان أمة تبلغ المائة مليون وتملك الوطن الذى نملك بماضيه وموقعه وموارده لا يمكن أن تموت بمثلهما ، وليس فينا مكان لانهزامية أو انهزاميين . بل ان أمة تبلغ المائة مليون وتملك الوطن الذى نملك بماضيه وموقعه وموارده لتكون حقا غير جديرة بالحياة — ولنقلها بصراحة وبغير خداع للنفس — اذا لم تعش للثأر وللثأر وحده وان لم تعش لتمحو العار وتسترد الحق المقدس . أو كما عبر الرئيس الجزائرى « **وليحكم علينا التاريخ كخونة اذا قبلنا هذه النكسة** » .

يونيو ١٩٦٧ **جمال حمدان**

● لقد تجاورت فى مجتمعنا أضداد ، نستطيع على وجه التعميم والاجمال أن نقول انها أضداد استقطبتها حياة الريف فى ناحية، وحياة المدن او قل حيـاة القاهرة فى ناحية اخرى ، ففى الريف بلغ من الناس استسلامهم للخرافة حدا أقصى ، وفى القـاهرة بلغت النزعة العقلانية بائمة الفكر شوطا بعيدا .

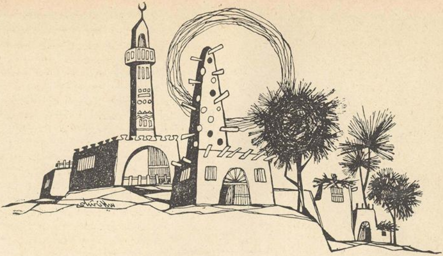
● وهل نخطىء اذا قلنا ان ثورة ١٩٥٢ ان هى فى صميمها الا ثورة أريد بها أن تغير من اوضاع الحياة المادية تغييرا من شانه أن يزيد من سرعة نشاطها لتلحق بالحياة الفكرية ، حتى اذا ما توازيا ، ســار المجتمع بعدئذ فى تكامله سيرا فيه اتزان بين الراس والبدن ؟ .

حياتنا بين الأمس واليوم

١

ولدت فى أوائل هذا القرن ، قبل أن فجعت البلاد فى دنشواى بعام واحد ؛ ولما اكتمل لى الوعى بالدنيا واحداثها ، كان قد انقضى من القـرن ثلاثة عقود ؛ كنت قبلها اسمع عن أقطار الأرض البعيدة ، وكأننى أسمع عن عالم من ضـباب ، وأسمع عن جسام الحوادث فى وطنى ، فأفهم الجمل مفككة متناثرة ، ولكنى لا أكون لنفسى منها قصة مفهومة .

اما دنياى القريبة منى ، والتى ألفتها حولى ، فقد كانت بسيطة الى حد السذاجة ، أعقـد ما فيها هى الكتب التى صادفتنى فطالعتها ، والتى حدث أن كانت فى مجموعها اميل الى ((الأفكار)) المجردة التى تعرت عن دم الحياة ولحمها ؛ ومن هنا كانت الفجوة سحيقة بين ساعات أقضيها داخل الكتاب وســاعات أقضيها خارجه ؛ وليس بى حـاجة هنا الى القول بأننى عشت اربعين سنة فى بيت لم يعرف جهازا واحدا من أجهزة الحضارة الحديثة ، اما لأنها لم تكن قد وجدت بعد ، واما لأننى كنت لا امـلك ثمن اقتنائها ، فلا راديو ، ولا تليفزيون ، ولا ثلاجة ، بل ولا النور الكهربائى استخدمته خلال سنوات طويلة من حياتى ؛ وكان أول فلم سنمائى شهدته هو فلم ((**سفينة العرض**)) ـ فى أوائل الثلاثينات ـ وانى لأذكر الآن كيف خرجت من شهوده ذاهلا لهذا العالم العجيب الذى لم أفتح أبوابه قبـل ذلك ؛ حتى التلفون لم يدخل بيتى الا بعد أن



دكتور زكى نجيب محمود

انقضى من القرن نصفه ، وبدأ نصفه الثانى .

لم يكن غريبا على عندئذ أن التقى مع الوف الناس من رجال ونساء ، فلا أجد بينهم الا قلة قليلة جدا أصابت شيئا من التعليم ، وخصوصا فى عالم النساء ، ولذلك كان أول فرض يرد على الخاطر بالنسبة الى اى امرأة تربطك معهـا روابط الحديث أو المعاملة ، أنها تجهل القـراءة والكتابة ، فاذا كان الأمر بينكما يقتضى توقيعها ، توقعت منها أن تخرج ختمها لتختم ، أو أن تعد ابهامها لتبصم ؛ حتى لقد كان من المفارقات التى تلفت النظر أن ترى سيدة وفى يدها جـريدة أو كتاب ، ودع عنك أن ترى سيدة وعلى وجهها منظار ؛ وكنت تحس عن الفئة القليلة المتعلمة ، انها كنقطة الزيت فى قدح الماء ، لا تندمج فيه مهما تحركت فى أرجائه ، كأنما تلك الفئة من أمتهـا عنصر اجنبى دخيل .

ولم يكن غريبا على أن أجد الوف الناس من رجـال ونساء ، يولدون ويعيشون ويموتون فى مكان واحد ، كأنهم نبات ينمو ويذبل وهـو فى موضعه ؛ كانت الأكثرية العظمى من أهل القرية تـسمع عن العواصم القريبـة منهم ، وكأنهم يسمعون حكايات من ألف ليلة وليلة تروى لهم عن الهند والسند ؛ ولا يدخل القرية رجل من المدينة ــ وهم يعرفونه من ثيابه ــ حتى يتجمع الغلمان يرقبونه من بعيد بنظرات متطلعة ، ويطل النساء من نوافذ الدور وأبوابها ، مسدلات على الوجـوه

أغطية تحجب منها شيئا وتترك شيئا للرؤية ؛ واذا لم يكن فى متناول احداهن غطاء ، رفعت احدى ذراعيها على وجهها لتؤدى لها ما يؤديه الغطاء.

كنت اذا ذهبت الى القرية خلال أشهر الصيف ، لا ألبث أن أدخل مع الناس هناك فى ضروب من الحديث ، لم أفهمها كل الفهم ، ولم اجهلها كل الجهل ؛ هى ضروب من الحديث تكثر فيها كلمات « **الحجز** » و « **البروتستو** » و « **الحضر** » و « **البورصة** » و « **البنك** » و « **الخواجة** » ؛ ولم يكن للناس من حديث فى أواخر الصيف الا عن اسعار القطن ، ترتفع وتنخفض لأسباب مجهولة ، فتسرى موجة من الفرح أو موجة من الحزن ؛ وكان الشعور العام هو ان تلك الأسعار الصاعدة الهابطة ، هى ضربات القدر ، تأتى من حيث لا تدرى كيف جاءت ؛ وحدث ذات مساء ، وجمع من الرجال يسمرون وهم جلوس على « دكتين » متقابلتين امام دكان البقال ، أن سأل سائل وهو جاد : **من ذا الذى يرفع هذه الأسعار يوما ويخفضها يوما ؟** واجاب مجيب وهو جاد أيضا ، فقال : **لقد سمعت أن هاتفا من السماء يهبط ساعة الفجر ، يعلن فى همس غير مسموع بما يقرر أسعار اليوم ؛** ولم يعترض أحد على الجواب .

وكان مألوفا غاية الالف ، أن تسمع عن أحد الموسرين ، أنه أفلس بين يوم وليلة ، كأن الأمور تتحرك بأصابع العفاريت الخافية عن الأبصار ؛ فترى آثارها المفاجئة ولا ترى محركاتها ؛ وكان من أعقد الألغاز التى حيرتنى فترة طويلة من مرحلة الشباب ، تلك الحالات الكثيرة ، التى كان يقترن فيها موت رب الأسرة بخراب اسرته ودمارها ، من بيع وتبديد وافلاس ؛ ولم يكن من باب اللغو فى الحديث أن تجرى السنة الناس بهذه العبارة التى تقول انه « موت وخراب للديار » ، لكثرة ما اقترن الحادثان وكأنهما علة ومعلول ؛ وكذلك كان مما له مغزى حقيقى من واقع الحياة ، أن يطلب الرجل « الستر » فى حياته ، كأنما هو على يقين أن هذا الستر سينكشف ذات يوم عن خواء ، واذن فالدعاء الى الله هو أن يجىء ذلك اليوم بعد وفاته .

لم أكن واسع المعرفة بالزراعة وحياة المزارعين — **من ملاك الأرض أو مستأجريها** — لكن المعرفة القليلة التى حصلتها من تتبع الحياة واطوارها فى بعض من عرفتهم ، كانت كافية لرسم صورة تقريبية لتلك الحياة كيف يجرى تيارها وكيف تتعاقب أطوارها ؛ فقد كان الشيخ .. (وهذا مثل حقيقى بقيت لى منه ذكريات) يملك نحو عشرة أفدنة ملكا خاصا — (وتلك هى أحسن الحالات ، فلا هو بمستأجر عليه أن يدفع الايجار من محصوله ، ولا هو مدين — أول الأمر — مطالب بدفع فوائد الدين من محصوله) — وكانت حياته أول أمرها تجرى بين يديه عسلا ولبنا ؛ لكن الأعوام لم تمهله الا قليلا ، حتى فاجأته بعيال من زوجتيه ، بلغت عدتهم عشرة بين بنين وبنات ؛ وأقول « **فاجأته** » لأنه كان يبدو على كر الأعوام ، كأنه على غير وعى بتكاثر نسله ؛ ثم اراد له الله عند المفاجأة بهذا العبء الثقيل ، أن تزداد فداحة العبء بمرض أصابه ، تطلب منه السفر المتصل الى المنصورة حينا ، والى القاهرة حينا ؛ فأخذت حصيلة أرضه تعجز عن الوفاء بعيش عياله ونفقات علاجه ؛ فكان لا مناص من اقتراض على المحصول قبل مجيئه ؛ والقرض لا يكون الا بفائدة مرتفعة ؛ ويجىء وقت المحصول ، ويجىء معه صاحب القرض ، فالأرجح أن يقدم له محصول عينى لقاء ماله ، وهنا تكون الخطوة الثانية من الغبن الفادح ، اذ يغلب أن يأخذ الدائن ما يأخذه من ناتج الأرض بثمن قليل ؛ بحيث لا يبقى لصاحب الأرض الا نزر يسير من ناتج أرضه ، ونزر أيسر منه من مال سائل ؛ ويجىء العام التالى ، فتزداد الحاجة الى القروض ، لا من أجل عياله وعلاجه فقط ، بل فوق ذلك من أجل الانفاق على الأرض لفلاحتها ؛ لكن صاحب المال هذه المرة ، لا يكفيه أن يقرض ماله على محصول الأرض ، لأن ذلك قد لا يكفى ؛ واذن فلابد من رهن جزء من الأرض ضمانا للدين ؛ ويحدث بالفعل أن يعجز الرجل عن سداد دينه ، فتذهب القطعة المرهونة من ارضه ؛ وهكذا دواليك على مر عدد قليل من السنين ، ثم تزداد العلة بالرجل ويموت ، فيقترن موته باجتماع الدائنين لتصفية ما تركه لأولاده ، **فاذا الباقى لأولاده صفر من الأرض ، وبقية من الديون** ؛ ومع ذلك كله ، فقد عاش الرجل « مستورا » — فى عرف الناس — لم ينكشف عنه الستر الا بعد موته ، فكان العرى والجوع نصيب أبنائه من بعده .

تلك كانت حياة الزارع ، فى حالات ليست هى أسوأ الحالات ، فلا عجب — حين ضاقت الضائقة فى الثلاثينات الأولى — أن كان المعلم فى المدرسة الالزامية — وكان على الأغلب من أهل القرية — ذا مكانة مالية لا تدانيها الا مكانة من يملكون رقعة كبيرة من الأرض ، **فهذا المعلم** بأربعة جنيهات كل شهر — فذلك هو راتبه عندئذ — كان أقدر على الشراء من مالك العشرين فدانا ، أو ربما كان أقدر من مالك الثلاثين ؛ ولذلك فسرعان ما كانت الأرض تنفرط من أيدى ملاكها ، لتهبط فى أيدى هؤلاء .

ومع ذلك فقد كانت الزراعة هى المبـــدأ والمنتهى ، وكل ما عداها من أوجه النشـــاط والعمل ، كان يبدو وكأنه من لوازمها وملحقاتها ؛ ولهذا كانت الأصـــالة والعراقة لمن ملك الأرض – ولأن يملكها مالكها عن ارث ، خير من أن يملكها عن كسب بمجهود – أما من لا يملك ارضا ، فهو فى المجتمع من نوافله وهوامشه ، مهما بلغ من شأن فى أوجه أخرى من أوجه الحياة ؛ فكانت ملكية الأرض هدفا يسعى اليه كل من اجتمع له شىء من مال ؛ لقد عرفت طبيبا جمع مالا من مهنته ، ولم يكن له شأن بالأرض وزارعيها ، لكنه اشترى بماله قطعة واسعة من ارض جـــرداء لا تنتج الا القليل ، فلما ابديت له عجبى ، قال : ان جزائى الأوفى هو أن يقال بين النـــاس ان الدكتور ذهب الى العزبة ، وان الدكتور عاد من العزبة ، ففى ذلك وحده ما يكفل لى أن تنفتح أبواب الجاه والمكانة .

كان العمل الزراعى يومئذ يدويا فى معظمه ؛ فلم يكن احد ليتوقع أن تحرث الأرض بغير المحراث التقليدى ، او أن تدرس الغلة بغير النورج ، او أن تروى الأرض بغير الساقية والشادوف ؛ ولم يكن احد ليتوقع أن يحصد الحصاد بغير الأيدى ، وأن تحش الجذوع بغير المنجل ؛ فكنت تســـير فى الأرض الزراعية أميالا بعد أميال ، قبل أن تصادف مكنة تدار ببخار أو كهرباء ؛ العمل يدوى كله ؛ والانتقال أسرعه على ظهور الدواب ؛ ومن ثم انطبع الجو كله بالبطء والمهل ؛ وعدت السرعة من عمل الشيطان ، ومما يبعث آخر الأمر على الندم ؛ وفيم الاسراع والزرع ينمو على مهل ، والمحصول يجىء فى أوانه من العام ؟ لقد ضرب لى صـــديق فى القرية موعدا أن نلتقى فى صبيحة الغـــد ، فزللت بالخطأ وسألته : **فى أى ساعة من ســـاعات الصـــبح تريدنا أن نلتقى ؟** فما وجدت منه ومن الصحبة كلها الا مر الســخرية ، فقد كدت ابدو فى أعينهم « خواجة » لأننى أردت تحديد ساعة اللقاء ، ففى كلمة « الصبح » تحديد لهم بما يكفى للحياة فى الريف ؛ وكان مما زاد فى بطء الحركة رسوخا فى النفوس ، ان صاحبها – نتيجة طبيعية لها – بطء شديد فى تغير الأوضاع – **أوضـــاع الفرد وأوضاع المجتمع** – حتى تكاد بالنسبة لأى فرد – اذا عرفت كيف بدأ حياته ، أن تجـــزم فيما يشبه اليقين كيف تنتهى ؛ وكان من دواعى البطء الذى استحكمت فى النفوس أســـبابه ؛ صعوبة اتصال الناس بعضهم ببعض اذا ما فرقت بينهم مســـافة من الأرض ؛ فالخطاب البريدى يحتاج الى وقت طويل ، والسفر يحتاج الى وقت أطول ، والأخبار تنتشر فى أرجاء القطر الواحد



اللاجئون
للفنـــان
صلاح عسكر

ــ ولا أقول فى أرجاء العالم ــ على فترة مديدة قد تصل الى بضعة أشهر ؛ لم يكن فى قريتنا مكتب للبريد ، وكان لابد لارسال الخطاب ، او لتسلم خطاب ، من الذهاب الى القرية المجاورة حيث المكتب ؛ وكان من ينوى السفر يعد له ، مهما يكن من قصر المسافة ، وقل فى ذلك ما شئت بالنسبة الى من يعتزمون السفر الى ارض الحجاز لأداء فريضة الحج ، فها هنا يكون الاعداد بما نظنه اليوم لا يتناسب الا مع رحلة الى المريخ .

٢

لكن المفارقة العجيبة حقا ، هى ما كان بين هذه الصورة المعاشية من جهة ، والصورة الفكرية والثقافية من جهة أخرى (وما زلت أتحدث عن الثلاثة العقود الأولى من هذا القرن) **فاذا كانت البساطة قد صحبت الأولى ، فان الحيوية قد صحبت الثانية ؛ فى الأولى سذاجة وفى الثانية عمق ؛ فى الأولى نطاق محدود وفى الثانية أفق واسع** ؛ حتى لأستطيع المجازفة بالقول فأزعم أن حياتنا ــ كما عرفتها الى ان بلغت الثلاثين ، بل وبعد أن جاوزتها ــ كانت مصابة بفصام خطير : فهنا بدن يعيش ــ أو يكاد ــ فى امتداد العصر التركى ، وهناك عقل يتابع ثقافة العصر فى آخر تطوراتها ؛ هنا المحراث والنورج والساقية والشادوف والمنجل ــ تراها حيثما توجهت على الأرض المزروعة بما يسودها من بساطة عيش وبطء حركة ــ وهناك **لطفى السيد والعقاد وطه حسين وهيكل وسلامة موسى** تصادفهم فى كل صحيفة ومجلة وكتاب .

لقد تجاورت فى مجتمعنا أضداد ، نستطيع على وجه التعميم والاجمال أن نقول انها أضداد استقطبتها حياة الريف فى ناحية ، وحياة المدن ــ أو قل حياة القاهرة ــ فى ناحية أخرى ؛ ففى الريف بلغ من الناس استسلامهم للخرافة حدا أقصى ، وفى القاهرة بلغت النزعة العقلانية بائمة الفكر شوطا بعيدا ؛ فى الريف كان الانتاج برغم حياة الشظف والفقر ، وفى القاهرة كان الانفاق فى بذخ ؛ فى الريف امتداد للعصور الوسطى فى وسائل العيش ، وفى القاهرة القصور والمسارح وأماكن السهرات اللاهية ؛ أضداد تجاورت حتى شطرت مجتمعنا مجتمعين لا يكادان يلتقيان ؛ وقد انعكس هذا الانشطار فى نوعين من التعليم : مدنى هنا ودينى هناك ؛ وفى نوعين من المحاكم : مدنية هنا وشرعية هناك ؛ وفى نوعين من أحياء السكنى وطرائق العيش : « افرنجى » هنا و « بلدى » هناك ؛ وفى نوعين من ضوابط السلوك ، فالسلوك الجائز عند فريق « تفرنج » قليلا أو كثيرا ، مجلبة للعار عند فريق آخر يرعى التقاليد .

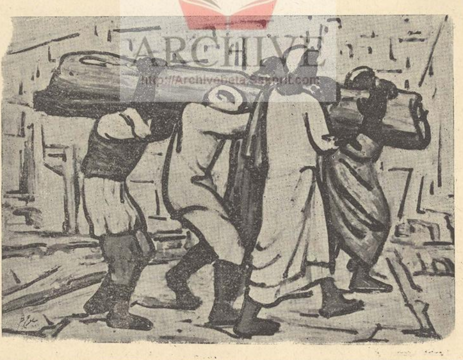
على أن ما يعنينى الآن من هذه الأضداد ، **ذلك التباين الحاد بين الحياة المعاشية فى ركودها وبطئها وتخلفها ، والحياة العقلية فى نشاطها وحيويتها وسرعتها** ؛ وكان لابد ليوم أن يجىء ، يشتد فيه الجذب بين حياة الواقع المادى البطيئة ، وحركة العقل السريعة ، بحيث لا يكون ثمة مناص من التصدع ، وبحيث يتحتم على الحياة المادية البطيئة المتخلفة أن تعيد بناءها لتلحق بالفكر فى طيرانه ووثوبه ؛ وذلك هو ما حدث ــ بدرجة متواضعة أول الأمر ــ فى الحركة الاقتصادية والصناعية التى بدأها رواد أوائل مثل **طلعت حرب** ، ثم حدث بدرجة قوية طموح ، بالثورة الاقتصادية والاجتماعية الجذرية الشاملة ، **ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢** ، التى جاءت لتغير الصورة المعاشية تغييرا كاملا ؛ فاذا كانت العين لم تألف ــ فى السنوات التى رسمت صورتها ، سنوات العقود الثلاثة الأولى ــ أن ترى على الأرض الزراعية مكنة تدار ببخار أو كهرباء ، فأحسبها اليوم واقعة على الآلات الزراعية المتقدمة ، فى الأرض المنزرعة وفى الأرض المستصلحة ، بنسبة لا بأس بمقدارها ؛ **واذا كانت العين خلال تلك الفترة لم تألف أن ترى فى سماء المدن الا المآذن فوق المساجد ، فهى اليوم تألف أن ترى مداخن المصانع الى جانب مآذن المساجد ، فيكون ذلك عندها أجمل رمز وأصدقه على أن حياتنا قد اتحد فيها دين ودنيا ، كما أراد لهما الاسلام أن يتحدا .**

تصدعت الحياة الاقتصادية البطيئة الراكدة ، بفعل الجذب الشديد الذى وقع عليها من ناحية الحياة الفكرية التى تقدمت حتى انقطعت كل صلة بينها وبين الركود الاقتصادى ، كما يتبدى هذا الركود فى حياة الفلاح المتوسط ؛ **وهل نخطىء اذا قلنا ان ثورة ١٩٥٢ ان هى فى صميمها الا ثورة أريد بها أن تغير من أوضاع الحياة المادية تغيرا من شأنه أن يزيد من سرعة نشاطها لتلحق بالحياة الفكرية حتى اذا ما توازيا ، سار المجتمع بعدئذ فى تكامله سيرا فيه اتزان بين الرأس والبدن ؟**

انتقلت الحركة من الأسرع الى الأبطأ ، على نحو شبيه بما يحدث حين تنتقل الحرارة دائما من الجسم الأسخن الى الجسم الأبرد اذا

ما تلامسا ؛ ضع قطعة من الحديد الساخن ملامسة لقطعة أخرى من الحديد البارد ، تجد ان الحرارة تنساب من الأولى الى الثانية حتى تتعادل بينهما درجة الحرارة ؛ وليس فى ذلك شىء من ضرورة التحتيم ، فقد كان يمكن للعكس أن يكون هو الأمر الواقع ، بحيث تزيد حرارة الحار كما تزيد برودة البارد ، على ان يظل مجموع الحرارتين ثابتا ؛ كان يمكن لاتجاه السير ان يكون على هذا النحو العكسى ، لكن هكذا وقع ما وقع ، فرصدناه فى قانون ، يسمونه **القانون الثانى للديناميكا الحرارية** ؛ وكذلك قل فى الجانب الاقتصادى من الحياة وفى جانبها العقلى ، فان الحركة تنتقل من أكثر الجانبين نشاطا الى أقلهما ، وقد حدث فى مصر كما عهدتها فى العقود الأولى من هذا القرن ، ان كان النشاط الأوفر فى حياة الفكر ، والنشاط الأقل فى حياة الزراعة والصناعة ، فانتقلت الحركة من الأولى الى الثانية ، لكنه انتقال تطلب ثورة كبرى لتحدثه ، كما يتطلب المريض بالعصاب هزة كهربائية تصدمه ليفيق ؛ على أنى لا أريد ان اترك هذا الموضع من الحديث ، قبل ان أثبت ظنا يدور الآن فى خاطرى ، وهو أن هذا الترتيب بين الحياتين قد يعكس فى بلد آخر ، بحيث يكون السبق للحياة الاقتصادية المادية على حياة الفكر ، فعندئذ - فيما أظن - تجىء الثورة عقلية ، ليزيد الفكر من حركته حتى يلحق بازدهار الحياة الاقتصادية ؛ **وربما كان ذلك هو ما حدث فى القرن التاسع عشر فى أوروبا ، حين أحدثت الثورة الصناعية زيادة فى الانتاج ، تلكأ دونها الفكر ، فثار الفكر فى منتصف القرن ليحدث فى نفسه انقلابا يمكنه من سرعة السير .**

التعاون للفنان صلاح طاهر



واعود الى صورة بلدى كما رأيتها فى النصف الأول من حياتى ، لأرى كيف تبدلت ؟ أما يزال الفرق شاسعا بين خط العرض الذى يعيش فيه مفكر القاهرة وخط العرض الذى يعيش فيه زارع الأرض فى الريف ؟ هل ما تزال مسافة الخلف بين فلاح القرية اليوم وبين كاتب فى القاهرة مثل **الدكتور حسين فوزى** ، هى نفسها المسافة التى كانت بالأمس بين فلاح القرية وكاتب فى القاهرة عندئذ **كالعقاد** ؟ أو لأضع السؤال فى صيغة أكثر توضيحا للنقطة المطروحة ، فأقول : هل الصلة بين **توفيق الحكيم** حين اصدر مسرحية **أهل الكهف** فى أوائل الثلاثينات ، وبين فلاح القرية حينئذ ، شبيهة بالصلة بين توفيق الحكيم حين اصدر مسرحية **الصفقة** ، أو **الأيدى الناعمة** ، وبين فلاح القرية اليوم ؟ لا أظن ذلك ؛ فالمسافة قد قربت الى درجة كبيرة بين الطرفين .

لم تكن مشكلات المفكرين بالأمس ، لتعنى شيئا عند ساكن الريف ؛ فماذا يهم زارع الأرض فى الريف ، بكل ما كان يحمله فى حياته من اعباء ثقال ، لا تترك له من نتيجة اجهده طول العام ما يملأ جوفه ويكسو عريه ، ماذا يهمه اذا كانت ثقافة السكسون أفضل من ثقافة اللاتين ، أو كانت هذه أفضل من تلك — وقد كانت هذه مشكلة فكرية عندنا ذات يوم ؟ ماذا يهمه اذا كان الشعر الجاهلى قد جنى على الشعر العربى المعاصر ، أو كان ذلك الشعر الجاهلى مصدرا لقوة هذا الشعر المعاصر — وقد كانت هذه مشكلة ثانية ؟ بل ماذا يهمه اذا كتبنا باحرف عربية أو كتبنا بأحرف لاتينية — وقد كانت هذه مشكلة ثالثة ؟ لا ، لم يكن يهمه شىء من هذا ، ولذلك بترت العلاقة بترا بين ساكن القرية وكاتب القاهرة ، لتخلف الأول بالنسبة الى الثانى من جهة ، ولأن الثانى مهتم بأمور لا شأن للأول بها من جهة أخرى .

أما صورة اليوم فقد اختلفت اختلافا بعيدا ؛ فالمشكلات التى يثيرها كتاب المسرحية والقصة الطويلة أو القصيرة ، هى نفسها المشكلات التى تعتمل فى نفس الريفى : علاقة الناس بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالثروة ومصادرها وبالسلطان ومراكزه ، وغير هذا وذلك مما يضرب فى صميم الحياة ، ثم جاء الراديو وجاء التلفزيون ، فأثرا فى نوع الكتابة بقدر ما أثرت الكتابة فيهما ؛ فأصبح كاتب المسرحية — مثلا — لا يخط حرفا الا والشاشة ماثلة أمام بصره ، فماذا يصلح لها وماذا لا يصلح ؛ وبالتالى : ماذا سيشاهد الريفى وماذا سيسمع ، بحيث يتأثر او لا يتأثر ؟

فبطء الحياة بالأمس ، وبطء الحركة ، وبطء الانتقال والاتصال ، قد انقلب اليوم سرعة سريعة ، مما ادى الى أن سارت القرية اشواطا فى سبيل وصولها الى القاهرة ؛ حلاق الصحة فى القرية قد حل محله طبيب أو اكثر من طبيب ، ومقرض المال للفلاح قد حل محله جمعيات تعاونية وبنوك ائتمان ؛ فلا أظن ان الشيخ .. الذى قصصت قصته ، لو كان يعيش اليوم ، كان يفاجأ بما فوجىء به من افلاس .

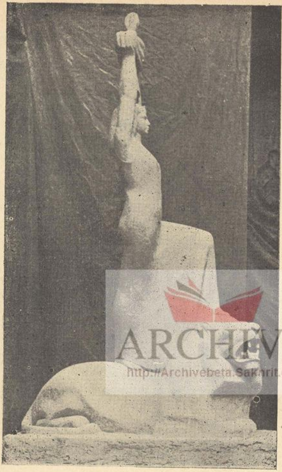
قلت انه كان من المفارقات التى تلفت النظر ، أن ترى سيدة وفى يدها جريدة او كتاب ، وانا اترك للقارىء ان يحدثنا هو عن المفارقة التى تلفت انظارنا اليوم ؛ انها اليوم لمفارقة أن نرى فتاة قعيدة البيت لم تختلف الى معهد او جامعة ، ولم تشغل نفسها بعمل بعد ذلك ، انك اليوم اذا طالبت امرأة بالتوقيع ، فلا تتوقع منها ما كنت تتوقعه بالأمس ، من أنها ستخرج ختمها لتختم او ستمد ابهامها لتبصم ، بل تتوقع منها أن تخرج قلم الحبر من حقيبتها لتوقع بعد أن تجادلك فى مبررات التوقيع .

ترى اذا عاد الزمن بصديقى الطبيب ، الذى وضع ماله فى ارض لا يحسن زراعتها ، ليقول الناس عنه انه ذهب الى العزبة وعاد من العزبة ، كسبا للجاه وبعد الصيت ، فهل يظل على رأيه بأن يغتصب الأرض من زارعيها بماله بغية الجاه ؟ أو انه سيجد ذلك — اليوم — مما يأباه الادراك السليم ، فالأرض للزرع لا لاكتساب السطوة والسلطان ؛ لكنها كانت بقايا اقطاع تمكنت من النفوس ، وذهبت اليوم وذهب ريحها .

تغيرت صورة الحياة بين امسها ويومها ، ومن ذا يعلم ماذا تكون غدا ؟

زكى نجيب محمود

مصر الظافرة
للمثال عبد الحميد حمدى



يوليو ١٩٥٢ في مرآة الآخرين

محمد عبد الله الشفقي



يوليو ١٩٥٢
فى مرآة الآخرين

- إنها ثورة قامت على أسس البناء الروحى والخلقى والاقتصادى والاجتماعى للشعب العربى .
- إنها اشتراكية غير منقولة ، اشتراكية تلائم المنطقة .
- إنه - أى الميثاق - « ماجنا كارتا » مصر ، إنه وثيقة هامة مليئة بالحكمة والمثل العليا للمستقبل .

فى هذا المقال صورة عن يوليو ١٩٥٢ كما انعكست فى مرآة الآخرين ، من واقع ثلاثة كتب أجنبية حديثة ، فالكتاب الأول هندى ، والثانى ايطالى ، والثالث انجليزى — ففى عام ١٩٦٦ . جاءنا كتاب من الهند وهو بعنوان « ناصر : الرجل والمعجزة Nasser The Man and the Miracle » ومؤلفه هو الكاتب الهندى ديوان برندرانات Dewan Brindranatg ، الذى يكتب فى السياسة ويكتب أيضا الأعمدة الصحفية ، ويعلق فى الراديو والتليفزيون ، ويؤلف القصة القصيرة . وقد ظهرت له مجموعات من القصص القصيرة ، وكتب للرحلات ذات اتجاه « انطباعى » و « تأثرى » . وبرندرانات ملم بالعربية واللغات الفارسية .

وقد حصل على ماجستير فى العلوم السياسية بامتياز من جامعة الله آباد .

تتصدى صفحات الكتاب صورة للرئيس واحد المواطنين يعانقه . وعنوان الصورة « الذى يحرر والذى يتحرر » .

والكتاب حديث ، فقد انتهى مؤلفه من كتابة مقدمته فى سبتمبر من عام ١٩٦٦ . واستهله بقوله ان الكتاب سيرة لناصر وللعلم العربى (وخاصة مصر) فى وقت واحد ، لأن الاثنين لا ينفصلان .

كتب المؤلف عن الثورة المصرية بحب ، وقال انها قريبة من الهنود ، فهى تجربة معاصرة ، تمت فى ظروف مماثلة لظروف بلد كالهند . هى أقرب



الى الهند اذن من الثورة الفرنسية ، أو الروسية ، او الصينية . ومرجع القرب والتشابه أن مصر جزء من آسيا سياسيا مثلما هى جزء من افريقية جغرافيا . وثورة مصر قريبة الى الشعب الهندى لأن ناصر حاول بها تحويل البلد من نظام اقطاعى متخلف الى نظام اشتراكى تقدمى ، بوسائل جد سلمية .

فى الفصل الأول – وهو بعنوان « الافتتاحية » – يقول المؤلف ان بذور الثورة المصرية استقرت فى ذهن المصريين منذ منتصف القرن التاسع عشر . فمن هم « آباء التحرر المصرى » ؟ يقول المؤلف انهم : محمد عبده .. جمال الدين الأفغانى .. أحمد عرابى . ويتمهل المؤلف قليلا عند عرابى ، ونفيه الى سيلان ، وتمرده وثورته ، ويقول انه كان يتكلم فى ذلك الحين بنفس اللهجة التى كان يتكلم بها ثوار مثله فى الهند ، يعايشون ظروفا مماثلة . ثم يحكى كيف ظهر مصطفى كامل ليكمل الرسالة ، وكيف عرف الكثير من الأفكار التحررية للثورة الفرنسية وحرب الاستقلال الأمريكية . ويموت مصطفى كامل ليعقبه سعد زغلول ، ويسميه المؤلف « غاندى حركة التحرر المصرية » . فخلال المظاهرات التى عمت البلاد ايام سعد زغلول عمت المظاهرات الهند ، واذا كانت المراة المصرية قد اشتركت فى النشاط السياسى آنذاك ، فقد اشتركت المرأة الهندية ايضا .

وفى عام ١٩١٨ – ١٩١٩ عرفت انجلترا أن الوطنية المصرية ظهرت الى الوجود وانه لا يمكن اخمادها . **ويمضى المؤلف « وظهر جمال عبد الناصر الى الوجود فى ١٥ يناير ١٩١٨ . وقيل عنه فيما بعد انه يجيد التوقيت . لم يكن هناك أفضل من هذا التاريخ موعدا لميلاده ! » .**

ويختار للفصل الثانى عنوانا « فتى من بنى مر » . ويتعرض فيه لمولد جمال عبد الناصر ونشأته . ويذكر كيف أن تيار الوطنية بلغ أشده فى الفترة ١٩٢٠ – ١٩٣٠ ، وان هذه الفترة كان لها تأثير كبير على ناصر الشاب . وفى عام ١٩٢٧ مات سعد زغلول ثم ظهر وعد بلفور المشئوم . وتلفت ناصر حواليه ، وتوقدت الثورة فى أعماقه . وألهبت خياله ثورات عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول . واقبل بنهم على قراءة سير

الرجال الكبار : هانيبال ـ الاسكندر ـ نابليون ـ روسو ـ فولتير . وكان المهاتما غاندى من بين أبطاله الأحياء ، وكان يقود ـ فى ذلك الحين ـ حركة وطنية عملاقة فى الهند . وقال المؤلف ان ديزموند ستيورات سأل الرئيس ـ مؤخرا ـ عن الأبطال الذين أشعلوا خياله فى صباه ، فقال ان نظرته الى البطـــل كانت مزيجا من غاندى ، وعرابى ، وفولتير . وعن الجرح الذى أصيب به فى جبهته ، فى احدى المظاهرات ، يقول المؤلف **« ان الجرح لم يختف الى الآن . لكن ، يبدو انه كان قد ترك فى القلب جرحا أكثر غـــورا »** .

ويشير المؤلف الى انتهاء ناصر من دارسته الثانوية وتفكيره فى الجيش . فقد أدرك أن تحرير الأمة سيستلزم فترة طويلة ، وسيكون شـــاقا ، وأن السبيل الوحيد الى هذا الهدف هو : الجيش .

اما الفصل الثالث فبعنوان « الظلمة قبـل الفجر » . واستهله بقوله عن مجموعة الضباط الذين عملوا فى منقباد بعــد تخرجهم من الكلية الحربية : شاء لهم القدر أن يغيروا وجه مصر فى سنوات مقبلة . وكان من بين أفــراد هـــذه المجموعة : جمال عبد الناصر .. أنور السادات .. زكريا محيى الدين .

ويتتبع المؤلف أحداث الحرب العالمية الثانية وأثرها على مصر ، ثم يقول ان نقطة التحول فى تاريخ الحركة الثورية المصرية هى استسلام فاروق لتهديدات بريطانيا بعدم تعيين على ماهر رئيسا للوزراء ، وتعيين النحاس باشا بدلا منه ، واعلان مصر للحرب . فقد دل هذا على مدى ضعف الملك وخضوعه . ورأى الضباط الأحرار فى هـــذا المسلك اذلالا وهـــوانا لمصر . **ويورد قـــول أنور السادات فى « ثورة على النيل » ان الاعداد الحقيقى للثـــورة بدأ فى تلك الفترة . وتحولت الحركة من المرحلة النظرية الى المرحلة الكفاحية ، العملية .**

ويتحدث عن الفترة التى عمل فيها ناصر مدرسا فى كلية أركان الحـــرب ، ورفضه اتخاذ خطوة سريعة فى الظلام بدافع من الحمـــاس والعاطفة ، وكيف أخذ يعد للثورة بصبر ، ويختار المخلصين ، ويقـــرأ بنهم كتب الاستراتيجية العسكرية لنابليون ، وكلاوزفيتز ، وليدل هارت ، ويقرأ أيضا للاسكى ، والمهاتما غاندى ، ونهرو ، ولينين ، وغيرهم من المفكرين الثوريين آنذاك . ويتزايد نشـــاط ناصر ، ويجىء درس النكبة فتتكشف الحقيقة : **ان الثوار الذين يخوضون المعركة فى فلسطين بأسلحة فاسدة ، ووســط مؤامرات عربية ، انما يجب أن يخوضوا المعركة فى مصر أولا !** وتتألف جمعية الضباط الأحرار .

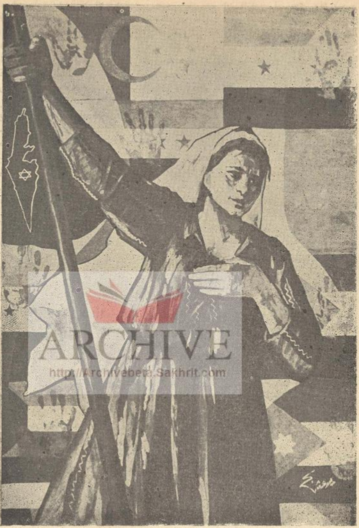
ثم تتشكك الحكومة فى نشاط ناصر ، وتحاول ابعاده عن العمل العسكرى الفعـــال والاندماج وسط صفوف الجيش فى مواقعه ، فتعينه فى كلية أركان الحرب . يقول المؤلف : **ان الحكومة لم تكن تعلم انها بذلك الاجراء حققت أكبر خدمة للثورة ! ذلك أنه التقى ـ فى كلية أركان الحرب ـ بكثيرين من رفاق المستقبل ، كذلك جعل منصبه يبقى فى القاهرة ، وكانت القاهرة تعيش أخطـر سنواتها السابقة على قيام الثورة .**

ثم يمضى المؤلف فى سرد فصول القصة ليصل بنا الى الخمسينات ، وناصر يرفض توجيـــه الضربة قبل الوقت المناسب ، رغم الحـــاح الآخرين بالاسراع . ثم يقول المؤلف ان الثـــورة المصرية تختلف عن كثير من الثورات العسكرية التى تمت بنجاح فى عدد من البلدان الآسيوية . فالثورة المصرية لم تكن مجرد عمل قاصر عـــلى حفنة من الضباط الذين وضعوا الخطة ثم قاموا بتنفيذها ، وانما سعى هؤلاء الضباط الى **توسيع رقعة حركتهم** . فخلال الاعداد للثورة اهتموا ـ الى حـــد هائل ـ بالدعاية السرية . كانت نوادى الضباط ومنـــازلهم تفاجأ بطوفان من المنشورات التى تحثهم على المقاومة ، والنضال من أجل تحرير الأمة . يقول المؤلف « ليس من شك فى ان طبع وتوزيع منشورات كهذه ، وفى نطاق من السرية الهائلة ، اقتضى تنظيما ينم عن استاذية » .

وينتقل المؤلف الى « المعسكر الآخر » .. معسكر الملك ، والساسة ، والاستعماريين . ثمة تقدم وحيد أخذ الملك يحققه : الزيادة فى وزنه ، وفى عدد الفضائح المرتبطة باسمه ، وعـــــدد المحظيات . ويصف المؤلف حريق القـــاهرة بشاعرية قاتمة ، كيف انتهى اليوم وفى القـــاهرة خرائب يتصاعد منها الدخان **« غير أن النـــيران أتت أيضا على بنيان الحكم ، والمجتمع ، والسلطة التى يمثلها فاروق وأتبـــاعه . وبهذا يمكن أن يقـــال ان السادس والعشرين من ينـــاير ، عام ١٩٥٢ ، هو أول أيام الثورة المصرية »** .

يختار المؤلف ، لفصــله الخامس ، عنـوانا « ثورة تولد » . ويســـتهله بهذه العبـــارة **« فى يوليو ترتفع الحمى ، والنيل ، فى مصر . لكن ، فى عام ١٩٥٢ حلت الثورة محل الحمى ، وارتفاع النيل »** . وعلى صفحة اخـــرى يقول ـ فى معرض الحديث عن ليلة الثورة **« وبينما مدينة القاهرة تغط فى النوم استيقظ قدر مصر فجأة بعد نعاس قرون »** .

صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
والساعة تشير الى السابعة .



للفنان عبد العزيز درويش

« وبعد أن بدأ راديو القاهرة أرساله باذاعة القرآن ، وبعد ان انتهى ، أذيع ذلك النبأ الذى كان نقطة تحول فى التاريخ الحديث لآسيا وافريقية » .

وينتقل المؤلف ايضا الى مشهد آخر فى نفس الساعات ، مشهد فاروق بالاسكندرية ، وقد استيقظ مبكرا عن المعتاد ، يعانى من سوء هضم بقى عليه ثلاثة أيام . وفجأة ، ومع نسائم بحر الاسكندرية المنعشة ، يفتح انسان ما المذياع ، ويتناهى صوت المذيع ، المنفعل ، يطلب من المستمعين أن ينظروا بيانا هاما . وأخذ الملك . ثم جاء الصوت الذى أوضح أن تاريخ مصر أخذ وجهة لم يعد فيها مكان لرجال مثل فاروق . وبينما هو يرشف عصير الفاكهة من قدح مرصع بالماس ، كان صانعو الثورة فى شغل شاغل بمناقشة مصيره . ويبرز المؤلف كيف رفض ناصر

اقتراحا بمحاكمة فاروق واعدامه قائلا **« ولأنه قارىء نهم لتاريخ الثورات السابقة فقد عرف أن من السهل البدء فى اراقة الدماء . لكن من الصعب وقفها بعد ذلك . وهكذا أصبح صانع ثورة وصفت بانها « أنصع » ثورات العالم »** .

وتساءل الارستقراطيون الأجانب فى مصر ، وتساءل العالم فى خارج مصر ، عن هؤلاء الضباط الذين قاموا بالثورة . من يكون هؤلاء الذين يشربون الصودا بلا ويسكى ؟ وفى لحظة حنق وغيظ قال احد السفراء الأجانب فى حفلة دبلوماسية : انما يحكم مصر اليوم فلاحون فى ملابس عسكرية خشنة .

ويبحث المؤلف عن سر نجاح الثورة عند قيامها . ويرفض تفسيرات كثيرة ، مرجعا سبب النجاح الى طغيان الشعور الشعبى ورغبته فى الاطاحة بالنظام القديم ، ومن اجل هذا وقف الشعب وراء الثورة عندما قامت .

وعندما يتعرض المؤلف للمشاكل التى واجهت الثورة (تحت عنوان « مشاكل الطفولة ») يشير الى الاقطاع ، حتى يصل الى قرار تحديد الملكية الزراعية ، فيقول أن قانون الاصلاح الزراعى كان أكثر قرارات الثورة ثورية ، وان قانون الاصلاح الزراعى اثبت أنه مهم للثورة المصرية اهمية قصف الباستيل للثورة الفرنسية .

ثم تواجه الثورة أعداء فى الداخل والخارج . وتواجههم فى الخارج بصفة خاصة بعد التوقيع على اتفاقية الجلاء ، ومحاولة الغرب جر مصر فى أحلاف ، وتطويقها بأحلاف مثل حلف بغداد . وعن الأعداء يقول المؤلف **« لم يحدث أبدا أن نجحت ثورة ثم سارت فى طريقها دون أن تتحداها قوى الرجعية . فالثورة الفرنسية جلبت غضب ملوك أوروبا ، الذين تضافروا لسحقها ، تضافروا فى « حلف مقدس » غير مقدس . كذلك اضطرت الثورة الروسية الى مواجهة عدوان موجه من قبل جيرانها ، وذلك خلال سنى طفولتها . لم يكن بالامكان أن تمضى الثورة المصرية فى طريقها دون أن يتحداها أحد . وازداد الجهر بعداء الامبريالية الغربية عندما أدركت الامبريالية الغربية أن الثورة المصرية جاءت لتبقى »** .

ثم ازدادت هذه الحقيقة ـ حقيقة أن الثورة المصرية جاءت لتبقى ـ ازدادت تأكيدا بعد العدوان الثلاثى ، وانتصار مصر رغم كل شىء ، رغم رغبة ايدن فى الاطاحة بالعهد الجديد .

وفى القاهرة ، فى ربيع ١٩٥٨ ، التقى المؤلف وزوجه بالرئيس ناصر . وكانت هذه هى ثانى مرة يلتقى فيها بناصر . كانت الأولى فى باندونج . وأجرى المؤلف حديثا مع الرئيس قال الرئيس فيه : الواقع أن الناس لم يعتبرونا سوى مجموعة عادية من ضباط الجيش تسلموا زمام السلطة من خلال تدبير عسكرى على غرار ثورات أمريكا اللاتينية . وعن طريق التجربة والخطأ وحدهما استطعنا أن نخرج بخطة للعمل . (صفحة ٩٤ فى الأصل) .

ويحاول الكاتب دراسة ثورتنا على ضوء الثورات الأخرى فى العالم العربى ، أو فى افريقية ، أو آسيا . ويقول ان ثورات فى بلدان أخرى قامت بعد ثورة ١٩٥٢ ، غير أن معظمها تحطم على صخرة المؤامرات الداخلية التى تحيكها العصبة الحاكمة ، أو ان التدخل الأجنبى سحقها . واستمر عدد منها ، غير انه لم يحقق مكاسب كبيرة . ويعترف بأن كل بلد فى غربى آسيا تعرض لثورات وانتفاضات متعاقبة . ومع ذلك لم يحقق ما حققته ثورة مصر التى تقف فريدة فى هذا المجال . فالثورة هنا لم تستقر وحسب ، وانما أخذت توسع ، أبدا ، حدودها الاجتماعية والاقتصادية .

ويطرح السؤال الذى سبق أن طرحه : ما سر نجاح هذه الثورة ؟ هناك من يقول ان سبب النجاح القدرة على وضع الخطة والقدرة على المناورة . لكن قاسم كان يجيد الخطط والمناورات فلماذا لم ينجح ؟ وهناك من يقول ان سبب نجاحها يرجع الى وقوف الجيش وراءها ووراء ناصر ، فلماذا لم تنجح ثورات وقف الجيش وراءها فى تركيا ، غانا ، نيجيريا ، تايلاند ، فيتنام الجنوبية ؟

السبب الحقيقى ـ مرة أخرى ـ **هو ربط الثورة بالشعب عند قيامها** .

ثم لا يجد المؤلف ما يختم به كتابه خيرا من فقرة لكاتب غربى هو جون جنتر الذى بحث فى مصدر قوة ناصر فانتهى الى أن « مصدر قوته الرئيسية هو انه يعبر حقا عن شىء : تحرير الجماهير والمضى بها قدما . ولقد أعطى شعبه شيئا ندر أن حظى به من قبل ـ الأمل . لا غرابة



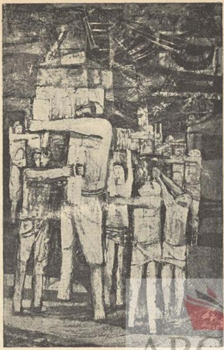
فى أن يسمى المصريون حركته (الثورة المباركة) » .

فلنبحث عن صورة يوليو ١٩٥٢ فى مؤلفات اجنبية أكثر حداثة ، لنبحث عنها فى عام ١٩٦٧ . سنجد كاتبا ايطاليا هذه المرة .. صدر كتابه فى العام الحالى تحت عنوان « من اهرام الجيزة الى أهرام ناصر Dalle Piramidi Di Giza Alle Piramidi Di Nasser » والمؤلف هو : ماتيو ريناتو بستونى Matieo Renato Pistopne وهو صحفى وكاتب سبق له أن زار مصر عدة مرات . استهل كتابه بالحديث عن مصر منذ البداية ، من الفراعنة . غير أن الذى يهمنا هو ما قاله عندما وصل الى فترة الثورة . وقد استهل حديثه هنا بقوله : لن يتمكن شخص من أن يقدم تفسيرا صحيحا لفلسفة الثورة المصرية التى انفجرت فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ الا اذا اتصل بالحقيقة المصرية والعربية اتصالا مباشرا . **انها ثورة قامت على أسس البناء الروحى والخلقى والاقتصادى والاجتماعى للشعب العربى .**

وعندما يتساءل المؤلف « ولكن لماذا اختارت ثورة مصر الجيش ليكون اداتها ؟ » يرى نفس الرأى الذى تردد : لقد كان الجيش هو القوة المادية الوحيدة القادرة على التصرف بسرعة .

وتحدث عن الثورة الاشتراكية فقال : **انها اشتراكية غير منقولة ، اشتراكية تلائم المنطقة** .. ويرى فى هذا النوع من الاشتراكية « ثورة اجتماعية » . وعن النمو الذى حققته ثورة يوليو فى مصر يقول : ان هذا النمو يشد اهتمام الكثيرين ، سواء فى افريقية أو فى آسيا ، كما ان لهذا النمو تأثيرا نفسيا وروحيا على هذه الدول جميعا . وعن السد يقول انه من حق كل مصرى أن يفخر بأنه عاش فى عصر بناء **السد العالى** . وكل العاملين فى السد العالى يظهر على وجوههم البشر ، كما أن السد العالى بالنسبة لهم يعتبر مدرسة تدربوا فيها ووصلوا فيها الى اكبر درجات الرقى الفنى .

ومن بين الكتب التى ظهرت عام ١٩٦٧ ايضا كتاب « مصر Egypt » لمؤلفه جوردون ووترفيلد Gordon Waterfirld الذى تعلم فى اكسفورد ، ثم عمل صحفيا فى « الاجبشان جازيت » فى الفترة ١٩٢٤ — ١٩٣١ . وقد كان هذا المؤلف يكتب أيضا فى « التايمز » و « الديلى تلجراف » وغيرهما . أما جدته فهى ليدى دف جوردون التى عاشت فى الأقصر سبعة أعوام وكتبت « خطابات من مصر » . بعد الحرب العالمية الثانية عاد الى اهتمامه بالشرق الأوسط ، وظل لخمسة



عشر عاما رئيسا لقسم الشرق الأوسط ثم القسم العربى بالاذاعة البريطانية . والكتاب الذى بين ايدينا يتتبع مصر من الماضى المغرق فى القدم الى الحاضر البالغ الحداثة .. **من هيرودوت الى الميثاق** . غير أن الذى يهمنا هنا هو بداية الحديث عن الثورة ، أى من الفصل السابع من الكتاب . ولن نتوقع منه شيئا من التعمق ، ذلك أنه بالنسبة للقارىء الأجنبى بمثابة مدخل . ولن يفيدنا هنا ان نتحدث عن وقائع الثورة ، فهو يوردها على نحوها المعروف ، وبتسلسلها التاريخى ، معتمدا — فى كثير من الأحيان — على كتاب الرئيس **« فلسفة الثورة »** وكتاب انور السادات **« ثورة على النيل »** .

بعد أن يتحدث المؤلف عن ارهاصات الثورة يصل الى الثورة نفسها ويختار لها هذا العنوان الدال : « نهاية أسرة محمد على » . وفى أول سطر قال عنها **انها كانت ثورة لم ترق فيها دماء** . ووصف مصر قبل الثورة بأنها ظلت أمدا طويلا بلدا مريضا ، يفعل فيه الملك والاقطاعيون ورجال الأعمال والأثرياء ما يحلو لهم . ولم تكن

الديمقـــراطية الا واجهة . والملاحظ أن أول ما أبرزه المؤلف من مكاسب الثورة هو خروج البريطانيين من مصر ، أو بعبارة أخـرى انهاء الاحتلال البريطانى لمصر بعد ٧٢ عــــاما . غير ان المؤلف يقول : ان الاحتــــلال كان قد انتهى فعــــلا باعلان الاستقلال عـــــام ١٩٢٢ . انتهى « الاحتلال » فى نظر المؤلف ، وان بقى « النفوذ » ، بل وتزايد بسبب الحرب العالمية الثانية .

ثم قضى على « النفوذ » القضاء المبرم بعــد العـــدوان الانجلو فرنسى على بور سعيد ، **فلقد أخذ المصريون القاعدة البريطانية فى منطقة لقناة ، تلك القاعدة التى كان البريطانيون ياملون فى العودة اليها يوما .**

وعن رجال الثورة يقول جوردون ووترفيلد : **ان الضباط الأحرار هم الورثة السياسيون للقائد عرابى** . واشار أيضا الى حديث الرئيس ناصر عن عرابى ، والشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، ولطفى الســـــيد ، فقد أسهم هؤلاء فى بنــــاء الاستقلال . وعن الاعداد للثورة يقول : ان الضباط الشبان ظلوا يعدون لثورتهم سبعة عشر عاما .. ونجحوا . ثم تاتى مشاكل ما بعد الثورة ، مشاكل السير فى الطريق من البداية ، والتعرف عــــلى المشاكل ، والبحث عن حلول من واقع المشـــاكل والامكانيات . وعن الدولة بين الطـــابع الدينى والطابع الدنيوى يقول : انه كان على جمــــال عبد الناصر أن يكافح الخرافات والأوهام والنظرة الرجعية المتعنتة ، ويثبت للناس أن من الممكن اصلاح حالهم بالاشتراكية العربية كذلك صبـــغ الأزهــــــر بالصبغة الحديثة ، وبذلك استكمل اصلاحات محمد عبده ، وأدخل العلوم فى الأزهر ، وكذلك دخلت الفتاة هذه الجامعة العريقة . وعن الميدان الاجتماعى الذى ارتادته الثــــورة يقول : **« لأول مرة تظهر حكومة مصرية تبدو مصممة على محاولة تحسين حال الفلاحين »** .

ثم يفرد فصلا خاصا ـ عقب فصل الثـورة مباشرة ـ ليتحدث عن أحد اهتمامات الثــــورة الملفتة للنظر : **العالم العربى** . انه اهتمام ملفت للنظر لأن المصريين ركزوا اهتمامهم فى الماضى على بلدهم ووحدة وادى النيل .. أكثر مما اهتمـــوا بالدول العربية خارج الحدود . لكن ، حـــدث فى الخمسينات أن لمسوا ضرورة التعـــاون مع الآخرين من اجــــل الوقوف فى وجه الغرب . ويتطرق الحديث الى **« فلسفة الثورة »** الذى عالج قضية العالم العربى ، وهنا يبرز المؤلف كيف أن ساسة الغرب ، والمسئولين ، باتوا يدركون الخطر الذى يتهدد مصالحهم فى المنطقة ، ومن ثم أخذوا يتدارسون « فلسفة الثورة » . كان هذا الكتاب يشكل خطرا كبيرا بالنسبة لهم .. على صغر حجمه وضآلة عدد صفحاته . وتصور الغرب أن هذا الكتاب صورة لـ « كفاحى » ، غير أن الشباب العربى لم يقع فى هذا الوهم وانما راى كتابا يصور وضعا واقعيا ، ولم يجدوا فيه نية لـ « غـــزو العالم العربى » .

وعن الميثاق قال المؤلف انه « ماجنا كارتا » مصر ، وانه مما لا شك فيه أنه وثيقة هامة مليئة بالحكمة والمثل العليا للمستقبل ، غير أنه أشار الى ما يكتنف التنفيذ من عقبات . واضاف أن الاهتمامات الرئيسية التى شغلت الرئيس ناصر فى هذا الميثاق الوطنى هى : كيف يمكن معالجة مشـــاكل مصر الرئيسية وكيف يمكن محاولة مساعدة الناس ؟

وبعد .. هل استعرض هذا المقال كل ما ظهر عن يوليو ١٩٥٢ فى الآونة الأخيرة ؟ لا بالطبع ، فالكتب التى ظهــــرت كثيرة كثيرة . وما زالت الكتابة عن مصر مستمرة ، منصفة مرة وظالمة مرات ، متفائلة مرة وقاتمة مرات ، خالصة لوجه الحقيقة تارة وغاصة بالسموم تارة أخــــرى . ولو قد كانت هناك فســــحة من الوقت والمكان لحاولنا استكمال صورة يوليو فى كتب أخـرى من جنسيات أخرى ، منها على سبيل المثــــال لا الحصر كتب ظهرت فى أسبانيا عن ج . ع . م . والرئيس ناصر ، وكتب ظهرت فى افريقية .. الخ .

لكن .. لا الوقت ولا المكان بمسعف !

محمد عبد الله الشفقى

◻◻



فكر اقتصادي

البترول العربي..

بين خلق الاستعمار والقضاء عليه

دكتور راشد البراوي

أصبح من البديهيات التى لم يعد يرقى اليها الريب ، أن ((**السلاح الأسود**)) هو من أشد الأسلحة مضاء فى الترسانة الاقتصادية العربية فى المعركة الكبرى ضد السيطرة الأجنبية وأدواتها الصهيونية ممثلة فى اسرائيل . لكن من الحقائق أيضا والواضحة بذاتها ، أن ((**الذهب الأسود**)) كان من العوامل الأساسية ، بل ولعله كان العامل الأساسى ، وراء الاستعمار الغربى الذى تمكن من معظم بلدان الوطن العربى فى شقيه الأسيوى والأفريقى .

بداية الأطماع

فى عام ١٨٧١ توجه فريق من الخبراء الألمان الى منطقة الموصل وبغداد ، وكانت داخلة فى ذلك الحين فى نطاق الدولة العثمانية ، وقاموا بأبحاث حول ما يكمن فى باطن تلك الأرض العربية من ثروات معدنية بوجه عام ومن ثروة بترولية بوجه خاص ، ثم أعدوا تقارير مشجعة للغاية بالنسبة الى احتمالات الاستغلال البترولى . وهنا تزاحمت المصالح المالية الأجنبية ، الألمانية والبريطانية منها بصفة خاصة ، تسعى وراء نيل الامتيازات من حكومة الاستانة . وفى أوائل سنة ١٩١١ سجلت بلندن شركة الامتيازات بأفريقية والشرق المحدودة ، لاستغلال البترول فى الدولة العثمانية ، ممثلة لتلك المصالح المشار اليها . وكان رأس المال عبارة عن ٨٠ ألف جنيه ، ثم تغير الاسم فى عام ١٩١٢ الى ((**شركة البترول التركية**)) وهى التى اسقطت كلمة التركية فيما بعد بسنوات وأصبحت تعرف باسم ((**شركة نفط العراق**)) وهى اكبر الشركات العاملة اليوم فى القطر العربى الشقيق .

وفى مارس ١٩١٤ عقد اجتماع بوزارة الخارجية البريطانية أسفر عن زيادة رأس مال شركة الامتيازات الى الضعف على أن يعطى النصف الى شركة النفط الانجليزية الفارسية (والمعروفة حاليا باسم شركة النفط البريطانية British Petroleum وتسهم فيها الحكومات البريطانية) ، ويقسم النصف الثانى بالتساوى بين المصالح الألمانية ومجموعة رويال دتش شل (وتضم هذه الأخيرة مصالح بريطانية أيضا) . ووافق الشركاء الثلاثة على التنازل عن نسبة من رأس المال قدرها خمسة فى المائة ، تخصص للأرمنى **كالوست جلبنكيان** الذى سبق ان لعب دورا هاما فى الوصول الى النتائج التى سلفت الاشارة اليها . وهكذا نجد أنه من وجهة نظر الاستعمار البريطانى اكتسب الشرق الأدنى أهمية جديدة وكبيرة ، الى جانب ما كان له من أهمية استراتيجية بسبب وقوعه على طريق المواصلات بين انجلترا من جهة وبين ممتلكاتها الأسيوية ومصالحها فى المحيط الهادى والاقيانوسية من جهة أخرى . وكان طبيعيا اذن أن تنتظر بريطانيا اليوم الذى يموت فيه ((**الرجل المريض**)) (الدولة العثمانية) أو يتم الاجهاز عليه ، ويجرى توزيع تركته فتخرج منها بالنصيب الذى يبشر باحتوائه على مصادر وفيرة للبترول . وسرعان ما جاءت الفرصة المرتقبة ، اذ فى صيف عام ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ووقفت ألمانيا والدولة العثمانية فى معسكر ووقفت بريطانيا وفرنسا فى معسكر آخر ؛ **ومعنى هذا أنه اذا قدر للثانى الانتصار فسوف يكون بترول العراق من نصيب بريطانيا** .

وعود الحلفاء

نشبت الحرب ، وكانت بريطانيا مع حلفائها ، تدرك على أن بالعرب رغبة جارفة فى التحرر من السيطرة العثمانية ، وهنا أراد الحلفاء استغلال هذه الرغبة فقدموا الوعود بالمساعدة على تحقيقها اذا ثار العرب ضد الأستانة وحاربوا الى صفوفهم . وهكذا تم الاتفاق مع **حسين شريف مكة** ، وتضمنته سلسلة من المكاتبات بينه وبين السير **هنرى مكماهون** ، خلال الفترة الممتدة من ١٤ يوليو ١٩١٥ الى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ . ففى أول رسالة بين الطرفين طلب الجانب العربى ((أن تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين — أونة ، حتى الخليج الفارسى شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى — ومن البحر الأحمر ، والبحر المتوسط حتى سينا غربا)) . وأقرت بريطانيا هذا المطلب .

الانتداب والصهيونية

وصدق العرب الوعود التى قطعها قوم كانوا يرفعون الصوت عاليا بأنهم انما أجبروا على دخول الحرب ، دفاعا عن الديموقراطية والحرية وحق

كل شعب فى تقرير مصيره . ولكنهم قوم يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، اذ كانوا فى ذلك الوقت نفسه يتبادلون ، الانجليز والفرنسيون والروس ، المكاتبات السرية ، بشأن انقسام الدولة العثمانية . ومن هذه المكاتبات يعنينا بالدرجة الأولى ، الاتفاق المعروف باسم « اتفاق سايكس ــ بيكو » والذى توصلت اليه انجلترا وفرنسا فى مايو من عام ١٩١٦ ، وهو يقضى بأن تحتفظ فرنسا بالجزء الأكبر من ســـوريا ، ويتكون نصيب شريكتها من مساحة تمتد من أقصى جنوب سوريا الى العراق حيث تنتشر على شـــكل مروحة لتشمل بغداد والبصرة وكل المنطقة الواقعة بين الخليج العربى والمنطقة المخصصة لفرنسا ، كما يشمل النصيب أيضا ثغرى حيفا وعكا . وثمة جزء آخر يشمل جانبا من فلسطين احتفظ به لاقامة نظام دولى خاص به .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل وحدثت مؤامرة أخرى بدأتها بريطانيا فى الخفـــاء ، فلما وضحت حظيت بالموافقة من جانب حلفائها الأوربيين والأمريكيين . ففى ٢ من نوفمبر ١٩١٧ بعث **اللورد بلفـــور** وزير الخارجية البريطانية الكتاب التالى الى **اللورد روتشيلد** ، المالى اليهودى الكبير وأحـــد أقطاب الحركة الصهيونية فى ذلك الوقت :

« عزيزى :

« يسرنى جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضا والارتياح الى المشروع الذى يراد به أن ينشأ فى فلسطين وطن قومى لشعب اليهود وتفرغ خير مساعيها لادراك هذا الغرض ، وليكن معلوما أنه لا يسمح باجراء شىء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التى للطوائف غير اليهودية فى فلسطين او بالحقـــوق التى يتمتع بها اليهود فى البلدان الأخرى وبمركزهم السياسى » .

وهذا هو ما يعرف فى التاريخ العربى الحديث باسم **« وعد بلفور »** . .

لن نعرض لما حدث فى المؤتمرات والمحافل الدولية التى تعاقبت بعد انتصار الحلفاء ، من حيث اقرار الاتفاقات السرية بشأن الوطن العربى فى الشرق الأدنى ، فهذه كلها أحداث يمكن الرجوع بشأنها الى ابسط الكتب المدرسية فى مـــادة التاريخ . الذى نود أن نبرزه هنا هو النتائج التى أسفر عنها الصراع العالمى بالنسبة الى منطقتنا : **فأولا** منحت فرنسا انتدابا على سوريا ولبنـــان اللتين تطلان على البحر المتوسط ، وللأمر اهميته لأنه اذا تقرر مد خطوط انابيب فى المستقبل لنقل البترول المستخرج من العراق ، فهذه الخطوط سوف تمر عبر هذين القطرين وتنتهى عنـــد شواطئهما حيث يجرى تفريغه فى الناقلات التى تستقبله هناك . **وثانيا** ظفرت بريطانيا بالانتداب على العراق وهو ما كانت تسعى اليها من قبل بسبب ما ينطوى عليه من احتمالات الاستغلال البترولى . **وثالثا** نالت بريطانيا انتدابا عـــلى فلسطين وهذا يسمح بتحقيق امرين لهما وزنهما :

(أ) العمل على التمكين لليهود فى هذا القطر ، وبالتالى العمل على تحقيق وعد بلفور بقيام دولة يهودية ، وهو ما تم بعد الحرب العالمية الثانية .

(ب) يمكن فى المستقبل مد خط انابيب لنقل البترول العراقى الى حيفا (وهو ما حدث بالفعل فيما بعد) وبذلك لا يكون هـــذا النقل خاضعا للدولة المنتدبة على سوريا ولبنان .

ولما استوثقت انجلترا من أمر السيطرة على العراق ، من الناحية العملية ، كانت هناك مشكلة تتعلق بلواء الموصل الذى تنازعه العراق ــ وأيدته انجلترا ــ والدولة التركية الجديدة . واذ طال الجدل بشأن المنطقة عرض الأمر على مجلس عصبة الأمم ، وانتهى بضمها الى العراق .

ثم انشأت انجلترا امـــارة شرق الأردن ، ووقعت معها ومع العـــراق معاهدات تعترف باستقلال القطرين الأسمى ولكنها تبقى السيطرة الفعلية فى أيدى البريطانيين الذين اقاموا القواعد العسكرية التى تكفل الدفاع عن مصالحهم . وفى الوقت نفسه عملت بريطانيا على تدعيم سلطانها على الامارات والمشيخات العربية المطلة على الخليج العربى ، وذلك ادراكا منها بأنها مناطق لابد وأن تشتمل على مصادر بترولية ضخمة وهو ما تحقق بالفعل ؛ ومن هذه الامارات والمشيخات نذكر الكويت والبحرين وقطر واراضى ساحل الهدنة . هذه الجهات كانت محميات بريطانية بالفعل ، الكلمة الأولى والأخيرة هى للمقيم البريطانى .

اشتراك الامبريالية الأمريكية

ولكن الاستعمار البريطانى ما كان ليسمح له بالانفراد بالثروة البترولية الكامنة ، بل أصرت الامبريالية الغربية ــ أى الراسمالية فى مرحلتها الاحتكارية . على أن تشاركه هذه الثروات . ومن هنا قبل ان يعاد توزيع ملكية شركة نفط العراق بحيث حصلت كل من المصالح الأمريكية والفرنسية والهولندية على نسبة قدرها ٢٣٫٧٥ فى المائة ، وطبق المبدا نفسه على الشركات الأخرى العاملة

في الحقل البترولي في العراق (**شركة الموصل والبصرة** ، وخطوط الأنابيب الممتدة الى ساحل البحر المتوسط) . واشتركت **المصالح الأمريكية** أيضا في استغلال البترول في الكويت ، كما اشتركت **المصالح الفرنسية** مع البريطانية أخيرا في بترول ابو ظبي .

ولم يتمكن الاستعمار البريطاني من السعودية وانما أخلى مكانه للمصالح الأمريكية التي استطاعت الحصول على امتياز بترولي كان يشمل ذلك البلد العربي كله ، كما انشأت وتملكت خط الأنابيب الذي ينقل الخام السعودي الى ساحل البحر المتوسط . ورغبة في ضمان السيطرة وفي السيطرة على مصالحها البترولية بالمنطقة ، تم انشاء قاعدة الظهران في السعودية . **وهكذا فالاستعمار لا يتمثل في الاحتلال ووضع الجيوش فحسب ، ولكنه يمكن أن يتخذ صورة براقة وخداعة وهي السيطرة على موارد البلد ، وهي سيطرة تتيح له التصرف في مصائره الاقتصادية والسياسية ، الداخلية والخارجية .**

ولكن دور البترول في خلق الاستعمار بصورتيه المباشرة وغير المباشرة ، لم يقف عند حدود الوطن العربي في آسيا ، ولكنه امتد الى البلاد القريبة في الشمال الأفريقي ، فالمعروف أن الحرب انتهت بهزيمة ايطاليا وبالتالي تحررت ليبيا واعترف لها بالاستقلال والسيادة . ولكن الخرائط الجيولوجية التي كانت ترسمها وتحتفظ بها الشركات البترولية الكبرى ، كانت تدرج ليبيا في عداد المناطق ذات الاحتمالات البترولية الوافرة والتي تنتظر الاستغلال عندما يحين الوقت المناسب ، وحان ذلك الوقت بعد أزمة السويس في عام ١٩٥٦ واغلاق القناة ، ومن هنا اشتد البحث والتنقيب عن البترول ، واتضحت غزارة الانتاج والاحتياطيات مما يشد به ارتفاع الانتاج الذي بدأ في عام ١٩٥٨ ، الى أكثر من ٧٠ مليون طن في عام ١٩٦٦ . والمشاهد ان الأغلبية الساحقة من الشركات العاملة في حقل البترول الليبي أمريكية ، كما ان لشركة النفط البريطانية امتيازات واسعة . وكان لابد من الاطمئنان أولا – أي قبل نيل الامتيازات وبدء عمليات التنقيب والاستغلال – على هذه المصالح الواسعة ، **ومن هنا تم الضغط على الحكومة الليبية وهو الضغط الذي أسفر عن ارغامها على توقيع اتفاقيات تسمح بوجود قواعد عسكرية بريطانية وقاعدة جوية أمريكية ضخمة هي قاعدة هويلس المعروفة** . وبهذه القواعد مضافا اليها الامتيازات البترولية ، لا يعدو المراقبون القول

بأن ليبيا كانت خاضعة للسيطرة الامبريالية الغربية .

ونعلم ان الجزائر قامت بثورتها في عام ١٩٥٤ ضد الاستعمار الفرنسي الذي ران عليها ردحا طويلا من الزمن . وطالت الصراع حتى عام ١٩٦٢ . وجرت محاولات لحل المشكلة ولكن الحل كان يصطدم دائما بالخلاف حول الصحراء الجزائرية ، لا بصفتها هذه وانما لأنها كانت تشتمل على امكانيات واسعة للاستغلال البترولي، وكانت المصالح الفرنسية هي التي تقوى ذلك الاستغلال بمقتضى امتيازات سخية حصلت عليها من فرنسا صاحبة السلطان هناك .

وهكذا عندما نتتبع تاريخ الاستعمار الغربي في الوطن العربي ، وكيف نشأ وكيف تطور ، يصير لزاما علينا أن ندرك ان البترول أو « الذهب الأسود » كان وراءه .

استثمار أم استغلال

ان الرأسمالية حين تسعى الى استغلال موارد بلد الطبيعية ، تقيس نجاحها بمبلغ العائد الصافي الذي تدره استثماراتها في هذا البلد . وعلى ضوء هذه القاعدة نورد البيان التالي عن النتائج المالية التي حققتها بعض شركات البترول العاملة في منطقة الخليج العربي ، في عام ١٩٦٥ (بملايين دولارات الولايات المتحدة الأمريكية) :

الشركة	البلد المضيف	صافي الربح
شركة الزيت العربية الأمريكية	السعودية	٢٩٣
شركة بترول البحرين	البحرين	٢٣ر٨
شركة الخليج بالكويت	الكويت	١٢١
شركة البترول الأمريكية المستقلة	المنطقة المحايدة	١٣ر٨

وأوقع من هذا في الدلالة البيان الخاص بنسبة الربح (في المائة) الى راس المال المستثمر ، اذ بلغ متوسطها خلال الفترة ١٩٥٦ – ١٩٦٠ :

البلد	النسبة المئوية
العراق	٦٢
قطر	١١٤
السعودية	٦١

وتبدو فداحة هذه النسبة التي تخرج عن نطاق الربح الاقتصادي السائد في مختلف المشاريع الاقتصادية ، اذا ذكرنا انها لم تتجاوز

٢٠٪ فى فنزويلا ، وانها لا تتعدى ٨٪ فى بلاد أوربا الغربية .

الاعتماد على البترول العربى

واذا كان الاستعمار قد اتخذ من ((الذهب الأسود)) مصدرا للكسب ودعم قوته ، الا أنه فى الوقت خلق الأداة التى سوف تحفر له قبره ، وهذه هى الحقيقة التى أصبحت تدركها الجماهير فى كل أرجاء الوطن العربى ، ومن هنا مطالبتها فى اصرار بوقف تصدير البترول الى الدول التى عاونت اسرائيل بطريق مباشر أو غير مباشر ، فى عدوانها الأخير الذى شنته قبيل انتهاء الأسبوع الأول من شهر يونيه عام ١٩٦٧ .

فأول ما يلاحظ بهذا الصدد هو اعتماد أوربا الغربية على البترول الذى تنتجه البلاد العربية ، والذى لا يزال يشكل حوالى ٦٥ فى المائة من استهلاك المنطقة منه . وتحاول المصادر الغربية أن تقلل من خطورة هذا الوضع الذى لا يشبه فى نظرها مثيله فى سنة ١٩٥٦ ، ولكن الواقع يخالف هذا لأن الاستهلاك فى أوربا الغربية ارتفع منذ ذلك التاريخ بنحو ثمانية ملايين ونصف مليون برميل يوميا ، مصدرها كلها العالم العربى ، ومن هنا يجىء تحذير صحيفة **الفاينانشيال تايمز** بعددها الصادر فى ٣ يونيه الماضى ، اذ قالت انه لو قررت البلاد العربية أن تقطع البترول عن بريطانيا فان الأمر سوف يشكل كارثة خطيرة . وتبدو صحة التحذير اذا تمعنا هذه النسب المئوية عن المصادر التى تزود بريطانيا بحاجتها من البترول الخام (**وذلك عن فترة الشهور الأربعة الأولى من العام الحالى**) :

المصدر	النسبة المئوية
الكويت	٢٣
العراق	٢ر٥
ايران	٤ر٦
السعودية	٢٠
ليبيا	١٥
نيجيريا	٥ر٩
فنزويلا	١٠
مصادر اخرى	٩ر١٠

فكأن بريطانيا تستورد ٢ر٦٣٪ من احتياجاتها البترولية من أربع بلاد عربية فقط . والمعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية أكبر بلد منتج للبترول فى العالم ، ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار أيضا الزيادة السريعة المطردة فى استهلاكها والتى تربو على مثيلتها فى الانتاج ، ومن هنا فانها تستورد سنويا مقادير طيبة من الخام من العالم العربى حيث السعر أرخص كثيرا من سواه فى الأقاليم الأخرى ، ولأن المصالح البترولية الأمريكية تسيطر على أكثر من ٦٠٪ من البترول العربى . وفى العام الماضى استوردت ألمانيا الغربية نحوا من ٢٥ مليون طن من الخام من ليبيا وحدها ، ومن هنا تبدو جسامة الخطر الذى يحيق بها اذا ما منع عنها هذا المصدر الحيوى .

هذه الناحية تفسر لنا الكثير من الظواهر التى نلقاها الآن فى بلاد عدة من أوربا الغربية وهى رفع أسعار الكثير من المشتقات البترولية كالبنزين ، والعمل على تقليل الاستهلاك من هذه المادة الأخيرة ثم محاولة توزيعه وفقا لنظام البطاقات وهو ما سوف تأخذ به بريطانيا . ومما يزيد من خطورة الأمر ما ترتب على العدوان الاسرائيلى من اغلاق قناة السويس ، ومعنى هذا ان تضطر الناقلات الآتية من ايران مثلا الى الدوران حول رأس الرجاء الصالح فى الطرف الجنوبى الأقصى من القارة الافريقية ، وهذا يؤدى الى ضياع وقت طويل بسبب طول الرحلة ، وبالتالى الى ارتفاع تكاليف الشحن والنقل .

ليس من بديل آخر

وتسعى بعض المصادر الغربية الى تهوين حدة الأزمة التى تنتظر شعوبها ، فتقول ان الامكان تدبير موارد تعوض ما كان يأتى من البلاد العربية . ولو نظرنا الى الموارد الجديدة لوجدناها عبارة عن البلاد الآتية : منطقة الكاريبى (فى نصف الكرة الغربى) وخاصة فنزويلا ، ونيجيريا ، وايران . وهنا مسائل يجب أن توضع فى الحسبان ، فبترول نصف الكرة الغربى مرتفع التكاليف كثيرا بالقياس الى مثيله العربى ، ولعل هذا من الأسباب التى تفسر ظاهرة انخفاض عائد الاستثمارات مما أشرنا اليه فى موضع سابق . أما نيجيريا فقد اصبحت مصدرا يبعث على أشد القلق بسبب الصراع الداخلى الذى نشب بين الحكومة الفيدرالية والاقليم الشرقى (**الذى أعلن فى يونيه انفصاله متخذا اسم دولة ((بيافرا))**) ، وهذا الاقليم هو الذى يضم المنابع البترولية فى الدولة النيجيرية . بل ان محاولة الاعتماد على فنزويلا وايران ، وحتى نيجيريا اذا ما استتبت الأمور فيها ، محاولة غير عملية أو من المستحيل زيادة الانتاج بحيث تعوض ولو قدرا بسيطا من واردات أوربا الغربية من البترول العربى ، فضلا عن أن

هذه المصادر التى يراد الاتجاه اليها لتعويض بعض النقص ، تفتقر الى الكثير من المرافق والتسهيلات اللازمة لنقل البترول من حقوله وآباره الى موانى الشحن .

النتائج الخطيرة وزوال الاستعمار

والآن ، ما الآثار الاقتصادية التى يمكن ان تترتب على انقطاع البترول العربى عن البلاد التى ساعدت اسرائيل ، على نحو مباشر أو غير مباشر . أول ما نلاحظه هو الضرر الذى يصيب قطاعات الاقتصاد فى هذه البلاد ، فعلى المشتقات البترولية ، السوداء والبيضاء ، تعتمد الصناعة ، والزراعة الحديثة ، ووسائل النقل والمواصلات بشتى صورها . واذا اصيبت الصناعة بالتعثر فمعنى هذا أن تتأثر صادرات هذه البلاد الى العالم الخارجى ، ومن هنا قالت الصحف البريطانية **ان توقف البترول العربى سوف يزيد من ضعف القاعدة الاقتصادية التى تعتمد عليها عملية الانتعاش الاقتصادى ، وهى الآن قاعدة هشة وقابلة للكسر .**

وثمة ناحية على أكبر جانب من الأهمية . فالبلاد الغربية ذات المصالح فى الوطن العربى تستورد بتروله ، أو تستورد نسبة كبيرة جدا منه ، على صورة الخام ، ثم تتولى تكريره فى معاملها وبذلك :

(أ) تخلق صناعة كيماوية متعددة الجوانب ، تستثمر فيها عشرات المئات من ملايين الجنيهات وتصدر عنصرا هاما من عناصر الصادرات .

(ب) وصناعة التكرير تدر مبالغ طائلة على الخزانة على صورة رسوم وما اليها .

(حـ) كما أن صناعة التكرير والصناعات الكيماوية تهىء العمل لقطاع له وزنه من القوة العاملة فى هذه البلاد .

هذه الاعتبارات جميعا مما ذكرناه على سبيل المثال لا الحصر ، تفسر لنا كيف تستأثر اوربا الغربية بنسبة قدرها ٢٣٫٨٤ فى المائة من الطاقة التكريرية فى العالم ، كما يتضح من البيان التالى :

البلد أو المنطقة	النسبة المئوية للطاقة التكريرية
الولايات المتحدة الأمريكية	٣٠٫١٤
أوربا الغربية	٢٣٫٨٤
الاتحاد السوفييتى	١٤٫٢٤

وتتضح طبيعة هذه الظاهرة ، وهى انعكاس لظاهرة الاستغلال الامبريالى ، اذا ذكرنا فى الوقت نفسه أن طاقة التكرير فى جميع البلاد العربية لا تتجاوز ٣٫٩ فى المائة من الطاقة فى العالم اجمع !

وثمة نواح أخرى تلفت النظر اليها ونحن نتحدث عن الآثار الاقتصادية بالنسبة الى البلاد التى يتوقف ضخ البترول العربى اليها :

أولا ـ فى عام ١٩٦٠ مثلا بلغت قيمة الأصول الثابتة والسائلة المستثمرة فى الصناعة البترولية العربية وايران نحوا من ٢٨٥٠ دولار أمريكى ، وبلغ صافى الأرباح حوالى ٣٠٠٠ مليون دولار ، وذلك قبل اداء العائدات المستحقة للحكومات المضيفة ، وجملتها ١٤٢٠ مليونا ، أما الباقى وقدره ١٥٨٠ مليونا فكان من نصيب الشركات . فاذا ذكرنا أن الحكومة البريطانية تملك ٥١٪ من رأس مال شركة البترول البريطانية ، كما أن المصالح المالية البريطانية تملك نحو ٤٠٪ من رأس مال مجموعة رويال دتش شل ، امكن أن نقدر الفائدة المالية التى تعود على الخزانة البريطانية مباشرة من جهة ، وعلى رأس المال البريطانى من جهة أخرى . أما بالنسبة الى الرأسمالية الأمريكية فانها تملك اكثر من ٦٠٪ من المصالح البترولية فى البلاد العربية ، ويكفى للدلالة على عظم العائد الذى يعود على هذا البلد ، أن نذكر أنه فى عام ١٩٦٦ ـ طبقا لتقديرات الخبير البترولى العربى الأستاذ **عبد الله الطريقى** ـ حققت الشركات الأمريكية العاملة فى البلاد العربية بمنطقة الخليج العربى ١٢١٥ مليون دولار . هذه الأرقام لا تبعث على الدهشة ما دامت نسبة العائد الى الأموال الموظفة تتراوح بين ٦١٪ فى السعودية، ١١٤٪ فى قطر ، بينما هى بالنسبة الى الأموال الأمريكية الموظفة فى الصناعة البترولية فى منطقة أوربا الغربية كانت دون ذلك بصورة تبعث على التساؤل ، كما يتضح من الجدول التالى :

البلد	النسبة المئوية (متوسط ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠)
باجيكا ولوكسمبورج	٥٫١
ألمانيا الاتحادية	٠٫٥
ايطاليا	٧٫٢
المملكة المتحدة	١٩٫١
فرنسا	٨٫٦

ثانيا ـ وبالنسبة الى انجلترا فانها عندما تستورد البترول من البلاد العربية حيث لشركاتها امتيازات وافرة ، لا تتحمل عبئا ماليا يقع على ميزان مدفوعاتها . ففى عام ١٩٦٣ مثلا وفرت شركة البترول البريطانية على انجلترا ما قيمته ١٠٧ مليون جنيه من العملة الصعبة ، كما وفرت عليها شركة شل حوالى ٨١ مليونا .

ولنفرض الآن ان البترول العربى قطع عن بريطانيا ، وأنها اضطرت الى استيراد حاجتها من الولايات المتحدة ومنطقة الكاريبى ، فمعنى هـذا انها تدفع ثمنا أعلى من ثمن البترول العربى ، كما ان معناه ايضا أنها تدفع هذا الثمن بالدولارات الأمريكية أى بالعملة الصعبة ، **وهو أمر خطير اذا أخذنا فى الحسبان العجز المزمن الذى تعانيه بريطانيا منذ سنوات فى ميزانها التجارى ، حتى أنها قررت خفض عدد قواتها فى ألمانيا الغربية ، كما تعتزم التقليل من بعض التزاماتها فى جنـوب شرقى آسيا ، وكل هذا كى تقلل من العجز الذى يعانيه ميزان المدفوعات .**

وينطبق الأمر ذاته على الولايات المتحـــدة ، فشركات البترول الأمريكية التى تزاول نشاطها فى البلاد الأجنبية ، تسهم بدرجة طيبة فى دعم ميزان المدفوعات الأمريكى . فقد أوردت نشرة « **أبناء القاهرة** » بعددها الصادر فى ١٧ يونيـه سنة ١٩٦٧ ، نقلا عن تقرير لشركة ستاندارد أون نيوجرسى انها حققت من عملياتها خارج الولايات المتحـــدة ١٥٧٨ مليون دولار فى عـــام ١٩٦٢ ، واضافت فى العام نفسه ٦٣٨ مليونا الى الخزانة الأمريكية . بل ان الشركات الأمريكية العاملة فى ثلاث من بلاد الشرق الأوسط العربى حققت ربحا صافيا فى سنة ١٩٦٥ قدره ٥٦١ر٦ مليون دولار ، كما يتضح من الأرقام التالية

البلد	**صافى الربح**
المملكة العربية السعودية	٣٩٣ر٠
البحرين	٣٣ر٨
الكويت	١٢١ر٠
المنطقة المحايدة (بين السعودية والكويت)	١٣ر٨
	٥٦١ر٦

ثالثا ـ هذه النتائج الخطيرة تترتب على منع البترول العربى عن البلاد التى أيدت اسرائيل فى عدوانها ، بوجه عام وبلاد الولايات المتحـــدة وبريطانيا وألمانيا الغربية بوجه خاص . **ولكن الخطر يزداد حـدة بالنسبة الى البلدين الأولين اذا ما قررت البلاد العربية تاميم المصـــالح الأمريكية والبريطانية فى الحقـــل البترولى .** ففى هذه الحالة لن يقف الأمر عند حد فقدان الأرباح الضخمة ، وانما يتعداه الى فقدان الأموال الموظفة (حتى ولو دفع عنها التعويض) بأرباحها ، لا بصورة مؤقتة وانما بصفة دائمة . **ومعنى هذا أن الرأسمالية الأمريكية والبريطانية تفقد احدى الدعامات التى تستند اليها ، مما يعجل بانهيارها ، وبالتالى بانهيار احدى مظاهرها وهى الاستعمار .**

وفضلا عن هذا فالقضاء على هذه المصالح ، واستمرار هذين البلدين فى انتهاج سياســـتهما القائمة على التحيز السافر لاسرائيل والصهيونية، يؤديان بالتالى الى القضاء على المصالح الاقتصادية الأخـــرى من شركات ومصارف وشركات تامين وعمليات نقل وما الى ذلك . يضاف الى هذا ان ينعكس ذلك على العلاقات التجارية بينهما وبين العالم العربى الذى لابد فى هـــذه الحالة من ان يقلل من استيراد حاجته من السلع المصــــنوعة منهما . **والمعروف فى علم الاقتصاد أن التوسع فى التصدير هو من أعظم أهداف الرأسمالية ، وتضاؤله هو من العوامل التى تضعف من قوتها وتعجل بانهيارها .**

وثمة نتيجة أخرى وضحت فى الآونة الأخيرة . فقـــد سبق أن ذكرنا أن القـــواعد الأمريكية والبريطانية التى فرضت على ليبيا بعد استقلال الأخيرة ، كان الهدف منها ايجاد نوع من الضمان للامتيازات البترولية التى يعتزم الحصـــول عليها . وعلى أثر العدوان الاسرائيلى الأخـــير ، وتحت الضغط الشعبى ، اعـــادت ليبيا المطالبة بتصفية هذه القواعد نهائيا من البلاد ، وبذلك يزول مظهر مادى ملموس من مظاهر الاستعمار .

تلك هى بعض النتائج التى يمكن ان تترتب على استخدام السلاح الأسود فى معركة الحرية .. فاذا كان البترول قد أسهم فى قيام وجـــود للاستعمار فى الوطن العربى ، فما من شـك انه سيكون أيضـا الأداة التى تحفر قبر هـــــذا الاستعمار .

راشد البراوى

□□

تيارات فلسفية

- ان المطلق الهيجلى لا يتحقق فى وعى مفارق للعالم ، ولا فى رؤية شــاملة أبدية ، بل يتحقق فى المناشط والأعمال الخلاقية للفنــان ، وفى ايمان المؤمن وعبادته ، وفى آراء الفليسوف المذهبية المنظمة ، فالمفارق عنده لا يكون الا اذا كان متجليا فى تجربة انسانية عينية .

- ان مشكلة الاغتراب تكاد تكون المشكلة الرئيســية فى الفلســفة المعاصرة ، وبخاصة الوجودية والماركسية ، لأنها تمس الانسان المعاصر وترتبط بوضعه فى المجتمع الصناعى التكنولوجى ، وعلى ذلك فالفلاسـفة المعاصرين أخذوا من هيجل أكثر مما نبذوا وتأثروا به أكثر مما ثاروا عليه .

هيجل .. فيلسوفا معاصــرا

سيبدو عنوان هذا البحث غريبا كل الغرابة . فكيف يكون هيجل فيلسوفا معاصرا ، وقد مات سنة ١٨٣١ ؟ .

بيد أن هذه هى الحقيقة التى يحرص على اثباتها كثير من الباحثين فى ميــدان الفلسفة المعاصرة . فمنذ سنة ١٩٠٧ ، وهو الوقت الذى نشرت فيه لأول مرة مؤلفات **هيجل** الدينيــة التى كتبها فى سن الشباب ــ وثمة دراســات عديدة يهدف أصحابها الى ((**احيــاء هيجل**)) ورسم صورة جديدة حية له . فبعض هــذه الدراسات تصور هيجل وكأنه فيلسوف وجودى قبل الوجــوديين ، تصدر مفاهيمه وأفكاره ــ التى تبدو فى نظرنا عامة مجردة ــ عن تجربة حية عاناها الى حد الشقاء والتمزق . (انظر ، على سبيل المثال ، دراسة **جان فال** : ((**شـقاء الوعى فى فلسفة هيجل**)) ، باريس ، ١٩٢٩ . **وكتاب ايبوليت** : ((**دراســات عن ماركس وهيجل**)) ، باريس ، ١٩٥٥) . أما بعضها الآخر فتظهر هيجل كما لو كان ماركســيا قبــل الماركسيين ، يعنى بنقــد الوضع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والدينى للمجتمع الذى كان يعيش فيه ، وهــو مجتمع بورجوازى رأسمالى ، بين افلاسه وعقمه ، وتنبأ بانحلاله . (انظر ، على سبيل المثال أيضا ، دراســة **چورچ لوكاتس** : ((**هيجــل الشــاب**)) ، برلين ، ١٩٤٨ . ودراسة **ماركيوز** : ((**العقل والثورة ــ هيجل ونشوء النظرية الاجتماعية**)) ، نيويورك ، ١٩٦٠ . وكتاب **جارودى** : ((**الله قد مات ــ دراســة فى فلســفة هيجل**)) ، باريس ، ١٩٦٢) .

ولا شــك أن السبب الأساسى الذى دفع هؤلاء الباحثين الى الكشف عن الجوانب الحية فى فكر هيجل واعادة النظر فى فلسفته ، هــو ما تعرضت له هذه الفلسفة من اســاءات فهم



محمود رجب

كثيرة . فقد أسيء فهم هيجل عندما نظر اليه على انه **من أصحاب الميتافيزيقا المفارقة** ، أى يتناول بالدراسة موضوعات وأمورا مفارقة لعالمنا التجريبى الواقعى ، ويحول ما نعرفه وما نجربه الى نوع من النظرة الكلية تجاوز معرفة أى فرد منا وتجربته . وأسيء فهمه أيضا عندما نظر اليه بوصفه **فيلسوفا ذاتيا** ، يرى أن الطبيعة أو التاريخ لا يوجد الا فى وعى الانسان أو من أجله . وأسيء فهمه عندما قيل انه **فيلسوف عقلى** ، يحاول أن يستنبط ، ابتداء من عدة أفكار مجردة ، تفاصيل الطبيعة والتجربة ، أى انه يحاول أن يتحدث عن الطبيعة والعالم التجريبى على نحو قبلى ، لا على نحو بعدى – أى بعد التجربة ، كما نعتقد اليوم .

ولقد أفرد أحد الباحثين الانجليز ، ويدعى **فندلاى** ، كتابا (عنوانه : **« هيجل – اعادة نظر »** ، لندن ، ١٩٥٨) للرد على هذه الآراء الخاطئة والإستعاضة عنها بنظرات أخرى صحيحة . ففى نظره **أن هيجل لم يكن من أصحاب الميتافيزيقا المفارقة** ، ذلك لأننا لو القينا نظرة سريعة على محتويات كتابيه الكبيرين : **« فنومنولوجيا الروح » و « دائرة العلوم الفلسفية »** ، لوجدنا ان كلا من الكتابين يبدأ بما هو مباشر وعينى ، ويبعد بقدر الامكان عما هو مطلق . ولئن كان الكتابان انتهيا بما هو مطلق ، اذ أن الأول ينتهى بالمعرفة المطلقة الفلسفة ، والثانى ينتهى بالصور الثلاث للروح المطلقة : **الفن والدين والفلسفة** – فان التأمل فى هذين الكتابين جدير باقناعنا **بأن هيجل لم ير فيما هو مطلق شيئا مفارقا لتجارب الناس ومناشطهم : ان المطلق – على حد تعبيره – « هو الحاضر حضورا كاملا » ، « هو الفعلى » ، « وما هو بالشيء الذى يكون فوق الأشياء أو وراءها »** . ان المطلق الهيجلى لا يتحقق فى وعى مفارق للعالم ، ولا فى رؤية شاملة أبدية ، بل يتحقق فى المناشط والأعمال الخلاقة للفنان ، وفى ايمان المؤمن

وعبادته ، وفى آراء الفيلسوف المذهبية المنظمة . فالمفارق عنده لا يكون الا اذا كان متجليا فى تجربة انسانية عينية .

أما أن هيجل فيلسوف ذاتى ، فيرد **فندلاى** على ذلك بقوله : ان هيجل لم يكن ذاتيا بمعنى انه لا يؤمن بوجود شىء الا اذا كان مدركا أو ممثلا ، أو أن الموضوعات لا توجد الا اذا كانت هناك اذهان تدركها . **ولم يكن ذاتيا بمعنى أن الذهن يفرض صوره على مادة الحس ، أو يركب العالم فى قوى الخيال أو الفكر** . ذلك ان مثل هذه الذاتية المنسوبة خطأ الى هيجل ترجع الى التركيز المتزايد على علاقته **بكنت** . والحق أن هيجل قد بين فى « فلسفة الطبيعة » **أن الموضوعات الطبيعية موجودة قبل ظهور الوعى والحياة فى العالم** ، وبين فى « **فلسفة الروح** » أن الزمان والمكان صورتان للأشياء الخارجية ، وليسا فقط صورتين يتخيل فيهما الذهن هذه الأشياء الخارجية .

واما الرأى الذى يقول بأن هيجل يستنبط تفاصيل الطبيعة والتاريخ من عدة مبادىء ومفاهيم مجردة ، فيرد عليه **فندلاى** بقوله : ان هيجل اعتقد فيما اسماه « **بالعلم المذهبى المنظم** » ، وهو علم ترتبط فيه المفاهيم كلها — حتى تلك التى تستخدم فى العلم والتاريخ — ارتباطا وثيقا فى سلسلة متصلة الحلقات ، كل منها يجد فى هذه السلسلة مكانه الوحيد والضرورى . وقواعد هذا العلم المذهبى المنظم ليست استنباطية بالمعنى الذى تكون فيه قواعد القياس او الحساب الرياضى ، استنباطية . انها بالأحرى قواعد عمل ، تدفعنا الى الانتقال من أفكار ، المبدأ فيها كامن ، الى أفكار يصبح المبدأ فيها ظاهرا مكشوفا . **ان هدف هيجل ليس هو أن يقوم بعمل العالم او المؤرخ ، ولا أن يضيف الى نتائجهما شيئا جديدا ، بل أن يصوغ مفاهيم يمكن على أساسها ادراك هذه النتائج العلمية والتاريخية ادراكا فلسفيا** .

على أن هذا الباحث الانجليزى يرى **أن الجانب الحى والمعاصر فى فلسفة هيجل هو ما قاله فى الفكر واللغة** . فهيجل فى اعتقاده يشارك الفكر المعاصر فى دعوته الى وحدة الفكر واللغة ، بحيث نقضى على المتناقضات الفلسفية التى تنشأ عن الاستخدام الجارى للغة ، وفى نظرته الى الفكر على انه رموز « **داخلة** » والى الرموز على انها فكر « **خارج** » ، او بعبارة أخرى ، فى النظر الى الفكر على انه عملية « **ادخال** » للرموز ، والى الرموز على أنها عملية « **تخارج** » للفكر .

ورغم أهمية هذا الجانب الذى اشار اليه فندلاى ، وبخاصة للمناطقة الوضعيين ، فانى اعتقد أن هناك جانبا أكثر منه اهمية ، يثبت **ان الفلاسفة المعاصرين وبخاصة الوجوديين والماركسيين ، لم يتجاوزوا بعد هيجل ، رغم ادعائهم الثورة عليه** ، وهذا الجانب هو تناول هيجل **لمشكلة الاغتراب** . فما أحسب أن هناك مشكلة أخرى غيرها تملك ، فى السنوات الأخيرة ، على المفكرين والفلاسفة المعاصرين اهتمامهم ، وتشغل حيزا كبيرا من تفكيرهم . وما احسب كذلك أن هناك مشكلة أخرى غيرها الصق بواقع الانسان المعاصر ووجوده . **فانسان هذا العصر** انسان مغترب يعيش فى عالم مغترب . والفيلسوف ما هو الا بمثابة المقياس الذى يقيس حال الاغتراب الذى نحن وهو نعيش فيه . فان جاء بعد ذلك فيلسوف وعبر عن هذه المشكلة — حتى لو لم يكن من أهل عصرنا الحاضر — كان بلا شك معاصرا لنا ، وكانت فلسفته او المشكلة التى يبحثها ، حية . ومعنى الحياة هنا أنها ، أى المشكلة ، تدفع الناس وتحركهم اما الى الاحساس بها او التفكير فيها او العمل لحلها ، فمشكلة كتلك التى كانت تشغل بال فلاسفة العصور الوسطى وهى ما اذا كانت الملائكة ذكورا أو اناثا ، مشكلة ميتة غير حية ؛ لأنها لم تعد تدفع الناس فى هذا العصر الحاضر وتحركهم . أما مشكلة الاغتراب فتكاد تكون المشكلة الرئيسية فى الفلسفة المعاصرة ، **وبخاصة الوجودية والماركسية** ؛ لأنها تمس الانسان المعاصر وترتبط بوضعه فى المجتمع الصناعى التكنولوجى . وعلى هذا ، فعندما نعرض هذا الجانب من فكر هيجل ، فانا نقضى من وراء ذلك اثبات قضية بسيطة هى : ان الفلاسفة المعاصرين اخذوا من هيجل أكثر مما نبذوا ، وتأثروا به أكثر مما ثاروا عليه ، **بحيث نستطيع أن نقول ان هيجل لم يتجاوز بعد** .



ف . هيجل

مؤلفات الشباب الدينية

لقد تجاوز هيجل النقـــد العقلي التقليدي للدين الذى كان ينظر الى الدين على انه ((خطأ)) وقع فيه الانسان ، واقام نقد الدين على أساس وجودى تاريخى ، جديد كل الجدة وثورى تماما ، تضمن اصل الثورة التى شنها كل من **فويرباخ وبرونو بادر** على الدين ، وتضمن كذلك اصـــل المحاولة التى قام بها كل من **ماركس ونيتشه** لقلب القيم . ان الدين لا يبدو لنا — فى مؤلفات الشباب الدينية لهيجل — وكأنه ((**خطأ**)) بسيط ، وانما يظهر على أنه ((**اغتراب**)) ؛ فلا ينبغى أن نفكر فى الدين على اساس انه ((**معقول**)) أو ((**لامعقول**)) ، بل يجب أن نفهمه وأن ننقده بوصفه تعبيرا عن ((**شقاء**)) الانسان ((**وتمزقه**)) .

ومع ذلك ، يهيب هيجل بالانسان ((أن يسترد كنوزه التى اغتربت عنه وسلبت منه لحساب من فى الســماء — يستردها بوصفها ملكه هو)) . **ولقد قال انجلز فيما بعد : ((انه لبفضل فويرباخ، تلميذ هيجل ، هبطت السماء الى الأرض وتبعثرت كنوزها — كما لو كانت أحجارا — عـلى قارعة الطريق ، وما على المــرء الا أن يحاول التقاطها وجمعها)) . والواقع أن تلاميذ هيجل لم يفعلوا شيئا سوى أن دفعوا برنامج الاسترداد .. ، الذى صاغه هيجل ، الى أقصى نتائجه ، من ذلك مثلا ما يقوله الماركسيون عن ضرورة ((استرداد)) الطبقة العاملة لطاقتهم على العمل ولوسائل الانتاج التى سلبت منهم ، وما يقوله الوجـــوديون عن ضرورة ((استرداد)) الانسان لذاته الحقيقية التى ضاعت منه فى خضم الحياة اليومية ، والمجتمع الصناعى الآلى .**

يقول هيجل : ((ان كل ما هو سام وجميل فى طبيعتنا الانسانية نقلناه نحن بأنفسنا خارج ذواتنا ، واسقطناه على موجـــود غريب عنا ، ولم نبق لأنفسنا سوى النقائص التى تقدر عليها طبيعتنا البشرية . واننا لنستكشف من جـــديد الجوانب الخيرة السامية فى طبيعتنا ، وســـوف نمتلكها من جديد وسوف نستردها بعد ضياع)) . ان الاغتراب بهذا المعنى (**أى بمعنى الشـــقاء والتمزق والضياع**) ليس امرا واقعا على الدوام ؛ لأن الانسان ليس شقيا دائما . فاليـــونانيون القدماء لم يعـــرفوا ((**الانقسام أو التمزق**)) ، ولا الهـــرب فى عالم ((الماوراء l'au-dela)) (أى عالم الغيب) . ان اليونان عند هيجل تمثل المعيار الذى به نحكم على درجة الاغتراب ، وهى التى تؤلف الاطار المرجعى للتاريخ كله .

اليونان — فى نظر هيجل — هى ((**النقطة المنيرة للتاريخ**)) ، ((ولئن كانت الجنة كما جاء ذكرها فى الأناجيل هى جنـــة الطبيعة الانسانية ، فان اليونان هى جنة الروح الانسانية)) . واليونان ، فى رأيه ، ليست فقط ((**فردوس الفن المفقود**)) ، كما ذهب الى ذلك غالبية معاصريه من الشعراء

والفنانين ، بل هى أيضا ، وعلى الخصوص ، « فردوس السياسة المفقود » . **فاذا كان اليونانيون قد عاشوا فى انسجام مع العالم ، فذلك لأنهم لم يعرفوا أى لون من ألوان الانقسام والتمزق ، أو الانفصال بين المدينة والفرد ، ولم يعرفوا بالتالى الانغلاق أو التقوقع الأليم داخل حدود الذات الفردية ، ولم يعرفوا الهرب فى العالم الفارغ الأجوف للماوراء** . ان أرض اليونان المقدسة التى نظر اليها الشعراء المعاصرون لهيجل « **بعيون الروح** » ، أخذت عنده طابعا سياسيا حيا ، فظهرت المدينة اليونانية من جديد مجتمعا من المواطنين الأحرار ، كل مواطن فيه حر على الحقيقة ، تتحقق ارادته الجزئية الفردية فى الارادة الكلية العامة ، تتحقق فى الأمة ، وفى أمة معينة بالذات هى اليونان .

ويصف هيجل حرية المواطن اليونانى القديم بأنها حرية داخل الدولة ؛ لأنها حرية الطاعة للقوانين التى شارك فى وضعها بنفسها ، ولأنها حرية اتباع الأحكام التى اختارها هو . وعلى هذا ، فان المطلق عند اليونانى القديم هو مدينته الأرضية . وهذا على العكس من المواطن فى العالم الحديث ؛ فقد صار انسانا فرديا ، وأنانيا . ولذلك يصف هيجل حرية هذا المواطن بأنها حرية خارج الدولة ، لأن الدولة فى العصر الحديث لم تعد تحققا كاملا للانسان ، بل أصبحت شيئا آخر غريبا عنه ، مما يدفع الانسان الى أن يحفظ حريته الخاصة خارج هذه الدولة ، ولن يتسنى له ذلك الا بالهرب من هذا العالم الأرضى الى ما وراءه ، الى عالم الماوراء والغيب .

والواقع أن هيجل يضع هنا سعادة اليونان ونعيمهم فى مقابل بؤس الألمان وشقائهم ، ويستخدم الحالة السياسية المثالية لليونان أساسا لهجوم يشنه على « **العقم السياسى** » لألمانيا ، وعلى فساد المجتمع البرجوازى وانحلاله ، وعلى نزعة الهرب من هذا العالم الأرضى الى العالم الآخر فى الديانة المسيحية . فألمانيا ــ كما يقول ــ « **لم تعد دولة** » ، وبينما كان الفرنسيون منغمسين فى عملية تجريب سياسية ثورية ، كان الألمان لا يهتمون الا بحماية ملكيتهم الخاصة ، وتبدت لهم قوة الدولة وكأنها شىء غريب يوجد خارجهم وبمعزل عنهم ؛ « فالعناد الذى تتميز به الشخصية الألمانية لم يسمح للأفراد أن يضحوا بمصالحهم الخاصة الفردية فى سبيل المجتمع ، أو أن يتحدوا فى مصلحة عامة ، وان يتبينوا حريتهم فى القبول الحر لسلطة الدولة العليا » . ان المجتمع البرجوازى الحديث ، على العكس من المجتمع القديم ، لا يعرف الا المصلحة الفردية الخاصة ، وينشىء أفراده على التمسك بهذه المصلحة والسعى وراءها .

مما سبق نتبين أن الاغتراب بمعنى الشقاء أو انعدام الحرية السياسية ما هو بالحالة الطبيعية التى يتحتم على الانسان أيا كان أن يكابدها ويعانيها ، **وانما هو ظاهرة تاريخية يرتبط بدرجة الحرية السياسية التى تقوم عليها سعادة الانسان أو شقاؤه ، وبالتالى تأصله فى العالم أو هروبه فى الماوراء** .

ولكن ، كيف ومتى نشأ الاغتراب بمعنى الانقسام والتمزق والشقاء ؟ يقول هيجل : « قرب نهاية العالم القديم احتاج الناس الذين فقدوا الشجاعة المدنية ، والذين عاشوا فى حال من الظلم والتمزق ــ الى جزاءات تعوضهم عن بؤسهم الذى لم يحاولوا أبدا التقليل من شدته » . **هنا نجد هيجل يربط بين ظهور الاغتراب وانحلال الامبراطورية الرومانية فى نهاية العالم القديم ،** حيث ساءت الأحوال الاقتصادية والسياسية ، وحيث انتشرت النزعة الاستبدادية . ولقد كان سوء هذه الأحوال بمثابة الأرض الخصبة لانتشار المسيحية ، ذلك أن المسيحية بثت فى نفوس الأفراد اعتقادا مؤداه أن الفساد الذى يعيشون فيه ما هو الا وضع طبيعى ، وأن الانسان فاسد بطبعه . **فهيجل يرى أن المسيحية بصرفها الانسان عن الاهتمام بالحياة الدنيا والعالم الواقعى ، وجعله مواطنا من مواطنى السماء (الماوراء) ، قد ساعدت النزعة الاستبدادية على الانتشار ،** « وعلى هذا ، فان الدين والنزعة الاستبدادية ــ كما يقول هيجل ــ يلعبان دورا واحدا ، فالدين يعلم الناس ما يريده الاستبداد : احتقار النوع الانسانى وعجزه عن تحقيق أى شىء بنفسه » . والمعروف أن **مكيافللى** قد جعل ــ قبل هيجل ــ المسيحية مسئولة عن عدم تعلق الناس ، فى العصر الحديث ، بالحرية ، ولكن هيجل يضيف الى ذلك قوله : بأن السبب المباشر لفقدان الحرية هو ظهور طبقة مسيطرة من القادة ومن أصحاب الثروة ، أسلم اليهم الشعب مقاليد الأمور وتسيير دفة الدولة . وبذلك لم يعد ينظر الانسان الى الدولة على أنها ثمرة من ثمار نشاطه ، بل اختفت صورتها من نفسه ، وأصبح بعيدا عن السياسة وعن الأمور العامة ، ولا تشغله الا مصالحه الخاصة .

وسط هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية التى سادت نهاية العصر القديم ، ظهرت علاقة السيد بالعبد ، التى ما هى الا الأساس

الوجودى « **للتمزق** » الذى يعبر عنه ، على نحو مجرد ، بالتقابل القائم بين الذات والموضوع ؛ فالانسان لم يعد يشعر بوحدته مع الله ، وتحول الى مجرد موضوع للارادة القاهرة لدولة غريبة عنه . ازاء هذا الوضع أسقط الانسان ذاته على اله تصـــوره موضوعا له مطلق القدرة والقوة ، تصوره موضوعا منفصلا عنه . وموضوعية الله عند هيجل معناها تحول الله الى قوة موضوعية منفصلة أو غريبة عن الانسان ، وهذا التصور لله لا يظهر الا فى أوقات الفساد والعبودية التى تمر أحيانا فى حياة الناس . ونستطيع أن نقـــول بعبارة أخرى ، أن الانسان فى نهاية العصر القديم اغترب عن ذاته وأصبح لا ـ أنا ، ولم ينظر الى الله على أنه ذات ، بل تصوره هو الآخر لا ـ أنا ، أى موضوعا خالصا ، غريبا عنه تماما .

وقد ترتب عـــلى تصـــور المسيحيين لله الموضوعى تصور آخر هو « **تشيؤ الطبيعة** » . وفى ذلك يقول هيجل : « ان المسيحية بتصورها الموضوعى لله قد جـــردت الطبيعة من طابعها الانسانى والالهى ، فجعلتها كتلة من الأشـــياء الجامدة الصماء . وتوجـــد فى صميم المسيحية الفكرة اليهودية التى تقول بتعالى الله والتى تنظر الى علاقة الخالق بالمخلوق على أنها علاقة السيد بالعبد » . ان الانسان ـ فيما يقول هيجل ـ لا يستطيع أن ينسجم مع العالم وأن ينفتح على جمال الطبيعة وقداستها ، الا داخل المدن الحرة . فلأن اليونانيين كانوا أحرارا ، فقد عاشـــوا فى انسجام مع « **الكل** » متجاهلين شـــقاء العلو والماوراء . ولقـــد جعل الشـــقاء الذى خلفه الاستبداد من نظرة الانسان نظرة معتمة متجهمة ، والقى على الطبيعة حجابا كثيفا لا جمـــال فيه ولا معنى . وطالما أن الحريات مكفولة ، ففى مقدور الانسان أن يكون معيارا لجميع الأشياء ، وأن يرى العالم مكملا حيا لوجوده وامتدادا لذاته ، أو مرآة يرى فيها نفسه .

ونخلص من هـــذا كله الى القول بان هيجل يتخذ ـ فى مؤلفات الشباب الدينية ـ من فكرة الحرية السياسية محوراً يدير حـــوله أفكاره ، فمتى كان هناك توافق بين حرية الفرد وحرية الجماعة ، ومتى كان هناك انسجام بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة ، بين المواطن والوطن ، فلن يكون هناك مجال لشقاء الانسان ، وبالتالى لاغترابه . والاغتراب هنا ظاهرة تاريخية ، أى تنشأ نتيجة ظروف تاريخية . وعندما يقضى على هذه الظروف يقضى على الاغتراب بالتبعية .

مؤلفات فترة يينا

أبدا لم يكن هيجل بالفيلسوف المنعزل عن أحداث عصره ، المبرر لاوضاع مجتمعه ، بل كان على العكس من ذلك ، ناقدا لها ، فاضحا لعيوبها . والدليل على هذا مؤلفاته الدينية التى سبق أن ذكرناها ، ومؤلفاته التى كتبها بعد ذلك ، والتى تعرف بمؤلفات فترة يينا ، وهى على هيئة رسائل صغيرة ، يغلب عليها الطابع السياسى والاجتماعى . وقد بين فيها الوضع الذى آلت اليه ألمانيا بعـــد الحرب التى خسرتها أمام الجمهورية الفرنسية .

وكانت التناقضات العـــامة متمثـــلة فى الاختـــلافات التى كانت سائدة بين الولايات الألمانية والاقطاعيات مع بعضها البعض . ولم تكن العزلة طابعا يطبع كل اقطاعية فحسب ، بل كانت أيضا سمة كل فرد . فقد اهتم كل فرد بالبحث عن مصلحته الخاصة دون أن يراعى حقوق غيره ولا مصلحتهم ، مما جعل الأمـــة الألمانية عاجزة عجزا كاملا ، وأصبحت فريسة سهلة لأى طاغ أو مستبد . لذلك قال هيجل : « **ألمانيا لم تعد دولة .. واذا كانت ألمانيا لا تزال تسمى باســـم دولة ، فان وضعها الراهن الفاســـد والمنحل لا يسمى الا فوضى** » .

ومن بين دراسات هيجل الهامة فى هـــذه الفترة دراسة بعنوان « **مذهب الخلقية** » يتناول فيها تطور الحضارة . وهو يقصـــد بالحضارة مجمـــوع المناشط الواعية للانسان فى المجتمع ، فالحضارة هى ملكوت الروح ونطاقها . والنظام الاجتماعى والسياسى ، والعمل الفنى ، والدين ، والمذهب الفلسفى ـ كلها أمور توجـــد وتسلك بوصفها جزءا من وجـــود الانسان ، وما هى الا منتجات ذات عقلية تستمر فى الحياة فى هذه المنتجات . ومن حيث هى منتجات فانها تؤلف عالما موضوعيا ، وهى فى نفس الوقت ذاتية ؛ لأن الموجودات البشرية هى التى أنتجتها وخلقتها . فالشيء ـ أى شيء ، ذاتى وموضوعى فى نفس الوقت ، متصل بذات الانسان لأن الانسان خالقه ، وغريب عنه لأنه منتم الى عالم موضوعى . هنـــا يستشعر الاغتراب الابداعى ؛ لأنه وهو المبدع والخالق لهذه المنتجات يجدها تبتعد عنه وتكتسب وجودا غريبا منفصلا ، وجودا موضوعيا ، بل انها لتتحكم فيه وتستعبده فى بعض الأحيان .

وتطور الحضارة يكشف عن مراحل متميزة تدل على مستويات مختلفة للعلاقة بين الانسان وعالمه ، أى تدل على طرق مختلفة لفهم العـــالم والســـيطرة عليه ، بحيث يصـــير متوافقا مع

احتياجات الانسان وامكانياته . والمرحلة الاولى هى العلاقة المباشرة التى تربط بين الفرد المنعزل والموضوعات المعطاة القائمة امامه . فالفرد هنا يدرك موضوعات بيئته بوصفها أشياء يحتاج اليها أو يرغب فيها ، ويستخدمها لتحقيق واشباع احتياجاته ، ويستهلكها كما لو كانت طعاما وشرابا . ويصل الانسان الى مرحلة أعلى فى سيرة الحضارة عندما يشكل العمل الانسانى العالم الموضوعى وينظمه . فالانسان هنا لم يعد يستهلك الأشياء ، بل يحفظها بوصفها وسائل لاستمرار حياته . وتفترض هذه المرحلة ارتباطا أو تعاونا واعيا بين الأفراد الذين ينظمون نشاطهم على أساس تقسيم العمل لكى يحل الانتاج المستمر محل ما قد استهلك .

وعلى الرغم من أن هيجل ينظر الى العمل على انه وسيلة من وسائل التكامل والتعاون بين الأفراد ، فانه ينقد العمل الاجتماعى الذى يقوم على تقسيم العمل فى المجتمع الحديث ؛ ذلك أن عمل الفرد الذى يستهدف اشباع احتياجاته الشخصية ، يتحول الى « **عمل عام ، يقصد منه انتاج السلع للسوق** » . ويصف هيجل هذا النوع الأخير من العمل بأنه « **عمل مجرد وكمى** » ، ويجعله مسئولا عن التفاوت المتزايد بين الناس فى الثروة .

ان العمل المجرد — فى نظر هيجل — لا يستطيع أن يطور ملكات الفرد الحقيقية ؛ فالآلية — وهى الوسيلة التى تخلص الانسان من التعب والكدح — تجعل منه عبدا لعمله ، « **وكلما تغلب الانسان على عمله وقهره ، أصبح هو نفسه بلا حول ولا قوة** » ، ذلك لأن الآلة تقلل من التعب والكدح للمجموع فقط ، ولكنها لا تعلل تعب الفرد . « **وكلما أصبح العمل أكثر آلية . قلت قيمته وتعب الفرد وكدح أكثر** » . « وكلما زاد انتاج العمل ، قلت قيمة العمل ، وانحط وعى العامل الى أسفل درجة من درجات البلادة وانعدام الحس » . وعلى هذا ، فان تكامل الأفراد المتصارعين خلال العمل المجرد وخلال عملية التبادل يقيم « نظاما شاملا من الاعتماد المتبادل ، يقيم حياة متحركة للأموات . ويتحرك هذا النظام هنا وهناك على نحو عشوائى أعمى ، كحيوان اهوج يستلزم ضبطا قويا وكبحا لجماحه » .

ان النغمة السائدة فى هذا الوصف تذكرنا بماركس ، فمما يثير الدهشة ان هيجل قد أنهى دراسته بهذه الصورة القاتمة للمجتمع الحديث ، كأنه أصيب بذعر مما سيجره اليه تحليله للمجتمع البرجوازى الذى يقوم على انتاج السلع . وهذه النغمة تذكرنا ايضا بالوجوديين عندما يصفون اغتراب الانسان فى المجتمع التكنولوجى الحديث بأنه صار فى المصنع وكأنه مسمار فى دولاب العمل ، أو قطعة غيار يمكن استبدالها بغيرها عندما لا تقوم بدورها . ان العامل المغترب عند هيجل ميت يتحرك ، يعيش فى عالم غريب عنه ، معاد له ، تتحكم فيه قوانين السوق والبيع والشراء . **هنا نضع أيدينا على المصدر الذى أخذ عنه الفلاسفة المعاصرون ، ابتداء من ماركس والوجوديين حتى أريك فروم ، تحليلاتهم لظاهرة الاغتراب فى بعدها الخاص بالعامل فى المجتمع الصناعى** . وجوهر المشكلة عند هؤلاء جميعا أن العمل الذى يقوم به الانسان ، بدلا من أن يشبع حاجاته الانسانية وبدلا من أن يكون وسيلة للتكامل بينه وبين الأفراد الآخرين ووسيلة لانشاء مجتمع انسانى عقلى — أصبح فى ظل المجتمع الرأسمالى التكنولوجى الذى يهتم بانتاج السلع للسوق ، قوة مغتربة عن ذات الانسان ، مسلوبة منه ، عامة ، ومجردة .

ان هيجل يستخدم فى مؤلفات فترة يينا جدل الواقع العينى الذى يستهدف ادراك الحياة الانسانية خلال جوانبها العينية الملموسة . واستخدام هذا الجدل العينى أفضى بهيجل الى **أن يتبين مساوىء المجتمع الفردى الذى يسيطر عليه قانون الانتاج من أجل الانتاج ، أو القوة من أجل القوة** . وقد **أدرك هيجل بعقليته الجدلية الفذة حالة الاغتراب التى لابد أن يعانيها الانسان فى مثل هذا المجتمع** . فالانسان يصير أمام نفسه لغزا محيرا ، ذلك لأن نتائج أعماله لم تعد ملكا له ، فيتخارج الانسان وتموضعه فى العالم (**والعالم هو عالم الآخرين ، عن طريقه نتصل بالطبيعة ، فأبسط آلة تفترض آخرا**) — يغترب ، ويصبح آخر ، غير ما هو . وعلى هذا ، فان التموضع فى العالم واغتراب الذات هما اللحظتان الأساسيتان فى جدل الواقع العينى عند هيجل .

والجدير بالذكر أن ماركس وجه الى هيجل نقدا مؤداه أن هيجل قد خلط بين التموضع ، وهو العملية التى بها يتخارج الانسان فى الطبيعة والعالم الاجتماعى عن طريق العمل ، وبين الاغتراب ، وهو العملية التى بها يصبح الانسان غريبا عن ذاته ، والتى بها يجد نفسه فى عمله « **آخر سواه** » ، أو بالأحرى لا يجد ذاته ولا يستطيع أن يتعرف على نفسه . وعدم القدرة على التعرف على الذات فيما تنتجه من أعمال هو الشقاء الأكبر للانسان . فالفرد المغترب لا يتعرف

على نفسه فى عمله ، ولا فى الآخر . ذلك أن انتاج الانسان تعالى عليه وتجاوزه ، فصار مقهورا ، تقهره أعمال أنتجها بيديه وذهنه . هنا ينبثق الوعى الشقى ويكون الانسان المغترب ، الذى لا يقهره هيجل الا بالفكر فى الفكر . وهذا النقد من جانب ماركس يذكرنا أيضا بما قاله **كيركجور** من أن هيجل يرفعنا الى سماء التأمل والفكر ، بينما يجعلنا نعيش فى أكواخ الواقع .

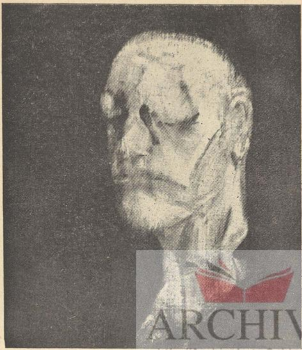
ان ماركس لا يرى فى التموضع شقاء ، ذلك لأن الانسان يعمل على تغيير الطبيعة وتأنيسها . والانسان ـ فى نظر ماركس ـ اذا ما أراد أن ينتقل من كونه فردا بيولوجيا ، أى محصورا داخل نطاق احتياجاته البيولوجية ـ الى أن يكون انسانا اجتماعيا ، **فلابد له أن يتموضع ، أن يتخارج ، أى أن يخرج عمله لكى يساهم به مع المجموع فى تأنيس الطبيعة** . ولكن ، لماذا يكون الانسان المتموضع ، الانسان المتخارج ـ لماذا يكون انسانا شقيا ، ضائعا ، وغريبا عن عمله ؟ ، ولماذا لا يظهر له المجتمع بوصفه تعبيرا عن ارادته ، ويتبدى له عكس ذلك وكأنه ارادة غريبة ؟ . **ها هنا يختلف ماركس عن هيجل . فماركس يذهب الى أن التموضع ليس اغترابا ، الا فى حالة بعض الظروف التاريخيه التى يمكن أن تختفى فى التاريخ كما نشأت من التاريخ ، أى أن التموضع عند ماركس ظاهرة ضرورية أما الاغتراب فظاهرة تاريخية . ان العمل ما هو الا تموضع للجهد الانسانى ، ولكن هذا التموضع لا يصبح اغترابا الا عندما يسلب من الانسان** ، والا عندما يتحول هذا الانسان الى آلة جامدة . ولم يتحول التموضع الى اغتراب الا تحت ظل ظرف تاريخى هو ظهور الرأسمالية . وماركس يرى أن من الممكن ازالة هذا الظرف التاريخى . وعندما يتم ذلك ، فان الانسان يسترد عمله الذى سلب منه ، ولا يصير التموضع عندئذ اغترابا . **وفى نظر ماركس أن هيجل قد خلط بين ما هو ظاهرة ضرورية (التموضع) وبين ما هو ظاهرة تاريخية (الاغتراب) .**

وردا على نقد ماركس هذا نقول : أن للاغتراب عند هيجل معان مختلفة وأبعادا متباينة . منها الاغتراب من حيث هو **ظاهرة تاريخية** ترجع الى ظروف تاريخية ـ كالاستبداد وفقدان الحرية السياسية والمصلحة الخاصة ـ اذا زالت هذه الظروف زالت معها ظاهرة الاغتراب . ومنها الاغتراب من حيث هو ظاهرة **أنطولوجية وابداعية** ، وهو بمعنى تخارج أفعال الانسان بحيث تصبح وكأنها غريبة عنه . وهيجل هنا لم يخلط بين التموضع والاغتراب ، بل وحد بينها . ولم يترك هذا التوحيد دون أن يبدى بعض الأسباب الوجيهة لذلك . فالانسان عندما يتموضع فى الحضارة وفى الدولة وفى العمل الانسانى على وجه العموم ـ يغترب فى نفس الوقت ، أى يكون آخر ، ويكتشف فى هذا التموضع غيرية لا يمكن قهرها . ومع ذلك ، يجب عليه أن يحاول قهر هذه الغيرية والتغلب عليها . وهذا توتر لابد منه للموجود الانسان . وفضل هيجل يكمن فى أنه **أكد هذا التوتر فى صميم الوعى الانسانى بالذات** . وعلى العكس من ذلك نجد ان اكبر الصعوبات التى تواجه الماركسية ادعاؤها التغلب على هذا التوتر فى المستقبل القريب او البعيد ، وتفسيرها السريع لهذا التوتر بجانب واحد ومعين من جوانب التاريخ . أليس تبسيطا للأمور محاولتها رد هذا التوتر الى نظام من نظم الاقتصاد ؟ اننا لا ننكر أن النظام الرأسمالى من عوامل اغتراب الانسان ، ولكن ، هل هو النظام الوحيد الذى يسبب الاغتراب ؟ اننا نجد الاغتراب **(بمعناه الأنطولوجى والابداعى)** لا فى النظام الرأسمالى فحسب ، بل نجده كذلك فى الحب ، وفى العلاقات الانسانية ، وفى معرفة الانسان بالانسان ، وفى التكنولوجيا التى شيد بها الانسان عالمه ، وفى الادارة السياسية للدولة ، أليس فى هذا كله تعرفا على الذات فى آخر ، يتضمن نوعا من الانفصال أو التخارج أو الاغتراب ، يحاول المرء أن يتجاوزه ويقهره ، ولكنه باق دائما أبدا ؟ .

ان الاغتراب عند هيجل ليس وقفا على ذلك النوع الذى ينشأ تحت ظل النظام الرأسمالى كما يعتقد ماركس ، فما ذلك الا حالة جزئية خاصة لمشكلة أعم وأشمل ، وهى مشكلة وعى الانسان بذاته ، الانسان الذى يعجز عن التفكير فى نفسه بوصفه ذاتا مفكرة منفصلة ومتوحدة ، والذى لا يوجد الا فى عالم من صنعه ، والا فى ذات أخرى . ولكن ، هذا النحو الذى يوجد عليه الانسان فى الآخر ، أى التموضع ما هو الا اغتراب ، ما هو الا فقدان للذات فى نفس لحظة اكتشاف الذات . وعلى هذا ، فان التموضع والاغتراب أمران لا يمكن الفصل بينهما ، ووحدتهما لا يمكن أن تكون سوى تعبيرا عن توتر جدلى يدركه المرء فى حركة التاريخ ذاتها .

محمود رجب

فلسفة النقد الفنى





فكرة التشويه فى الفن الحديث

من هو فرنسيس بيكون :

● ولد فرنسيس بيكون سنة ١٩١٠ فى دبلن عاصمة ايرلندة لأب يعمل بتدريب الخيول ● ترك انجلترا الى ألمانيا ثم الى باريس ثم عاد مرة أخرى ليستقر فى كنزنجتون بلندن ● خدم فى الدفاع المدنى أثناء الحرب ● قارىء عظيم للفلسفة والفنون والآداب ● أعظم فنان بريطانى على قيد الحياة ، وربما على الاطلاق ● ليس فى حياته مدرسة أو جامعة أو أكاديمية أو عضوية لجنة أو معلم أو أستاذ أو جائزة أو ميدالية أو وسام شرف أو منصب أو عقد زواج ● خالق الشخصية الجديدة فى الفن الحديث ورائدها ● قدم خمسة عشر معرضا فرديا منذ سنة ١٩٣٤ – ١٩٦٦ وحوالى تسعين معرضا مشتركا منذ سنة ١٩٣٣ – ١٩٦٤ ، ● متواضع شديد الحب لبيكاسو ، كثير الادمان ، يختار الكلمات والأصدقاء ، قوى البنية ، حزين النفس ، شديد الثقة شديد التعمق ، شديد الفوضى ، يداه عريضتان حتى أنهما تكفيان لتغطية وجه ثور ، يكره الممتلكات والروتين والعقيدة والتفاخر . ● أعماله مقتناه فى متاحف انجلترا وألمانيا وأمريكا واستراليا وايطاليا وكندا وبيعت آخر لوحة له بعشرة آلاف جنيه استرلينى ● فى سنة ١٩٦٦ رفض متحف الفن الحديث فى باريس أن يقيم له معرضا فرديا فاقامه فى قاعة « ماجت » ، هكذا بنفس أسلوب الغباء يعيد التاريخ نفسه .



الانسان المنحرف ١٩٦٦

عند فرنسيس بيكون

أحمد فؤاد سليم

● **بيكون يرث عرش بيكاسو**

– أنا لا أؤمن بالحضارة .
– ماذا تقصد ؟ .
– أقصد أننى لا أؤمن بالحضارة ! .
– ماذا تقصد بأنك لا تؤمن بالحضارة ؟ .
– بينى وبين طفولتى حرب مستعرة حرب بين ما طبعونى عليه ، وبين ما عرفته ! .
– ماذا تقصد ؟ .
– الجواميس التى تذبح كل يوم ، وهذه البقية من الجلد واللغد التى لا تنقطع فيظل الراس مدلى الى اسفل بينما الخطاطيف الحديدية تقبض على مؤخرة القدم ! .
– هل ذهبت الى المذبح ؟ .
– رأيت العظم والصدر والأشياء الداخلية ، والعيون والأسنان يطليها الدم .. !
– (. . . . . .)

هذا هو **فرنسيس بيكون** (١٩١٠) الفنان الذى يصدم أوروبا بلوحاته المليئة بالغرابة ، والشهوانية ، والذبح ، والصلب والعصيان ، والأمل الضائع ، والوحشية ، والعذاب الحتمى.

هكذا بينما كنت أقيم معرضا فى لندن ، أتاح لى الحظ أن أرى اثنى عشر عملا ضخما من انتاج بيكون ، وكنت أكثر حظا اذ شاهدت هذا البرنامج الفنى الرائع الذى استمر ساعتين فى التليفزيون البريطانى مع بيكون .

أما هذه المناقشة السابقة فهى جزء من هذا الحديث الطويل . . الذى لا ينسى !!

يرسم كما لو انه استيقظ من حلم مزعج . فى فرشاته قوة اليقظة ورائحة الحقيقــة التى توجع . الوانه تصرخ طول الوقت ، ولكنه الصراخ الذى لا يرفع الشكاية الى أحـــد . دافىء ، فى مساحاته هذا العمق الذى لا هو وجدانى ولا هو ذهنى . التأليف عنده يبدأ بالفكرة ، واذ تدور الفرشاة فى عجائن الألوان لا يكون لأى شكل على اللوحة الا قوة العقل الفلسفى التى تتبدى من خلال الخط وحده واللون وحده . ومع ذلك فهو يبدو كما لو كان يضع مساحاته بقوة الفريزة ، تلك القــوة التى تجعل من الدفين شيئا ماثلا للعيان . حر كامل الحرية حتى ليمكن أن نقول عنه انه أكثر فنانى القرن العشرين مقدرة على الاختيار وهو يملك هذه الامكانية الخبيئة التى تمنحه العطــاء الدائم للصياغة ، بحيث يكشف بعدا لم يكن مرئيا ، وأثرا يصدم ويفضح . ومع ذلك فان أشخاصه واضحو الشكل ، ومساحاته منبسطة تكاد تخلو من التراكيب اللونية الصعبة ، حتى أنه يبدو فى غالب الوقت مذهلا .

واشخاص بيكون مشوهة التفاصيل ، يغلب عليهم الاحساس بأن هناك زمنا ماثلا ، مصطرعا بالدمار وبالتمرد وبفقدان الأمل . وذلك فى اللحظة التى تبدو فيها فرشاته ذات ضربات شــديدة العنف حتى أنها لتستدير حــول نفسها بحيث تنقل هذا التــلاقى التام بين الدائرة والقلق . أما خطوطه على اللوحة فمشحونة بالعصبية . وبهذه الذبذبة الموجعة التى تجعل الخط يتجزأ حتى يذوب فى كتلة الشكل . على أن هذه العصبية الواضحة لا تمنــح المأساة معطيات خاصــة أو مفردة بمقدار ما تجعل الخاص منخرطا فى الشامل ، والمفرد شريكا فى الكل .

وبلغة الفن فان بيكون فنان يصعب تقويمه ، فهو متمرد حتى على أن يصنف . منوع بحيث يخذل العين طول الوقت ويحيرها . ان أشخاص بيكون كائنات غريبة ، شــديدة الخصوصية ، ولعلنا نستطيع أن نصفها أحيانا بالأســطورية ولكنها الأســطورية التى تختلف عن تلك التى وضعها وليم بليك فى لوحاته . فأشــكال بليك تستمد وصــفها الغالب من الحكايات القديمة والكائنات الغريبة ، ولكن الفارق هو فى ان بيكون يخلق الأســطورة نفسها . وهو لا يوجدها عن طريق الخط مثل بليك ، وانما يخلقها عن طريق قوة الاحساس بالكتلة . وبمعنى أدق عن طريق قوة تجسيد اللون للمعنى ، وللمجهول .

بيكون بين « سوتين » و « فان جوخ » :

ومساحات بيكون توحى بالحلم ، ولعله رسم أحيانا هؤلاء الأشخاص الذين يدورون حـــول أنفسهم دورانا عاصفا وأولئك الذين يطيرون فى الهواء ، ويتحركون فى غضب ، ويجلسون علــى لا شىء . ولكنه لا يعبر عن لغة الحلم مثلما يعبر « دالى » ، فحلم بيكون متناسخ من عنف الرؤية ، ومن قوة الواقع ، بينما حلم **« دالى »** خارج من منطق التناقض **(ساعة + حصان + نهر)** حلم بيكون منفجر من قوة الاندهاش وعدم التصديق **(انظر الصور المنشورة)** ، ومع أن **مارك شاجال** يقف على النقيض من دالى فى المعنى والأسـلوب والمعالجة والحلم ، الا أنه حتى شاجال لا يكاد يقترب من بيكون .

ان الخط المنحنى والدائرى عند **شــاجال** يعدل العذوبة ، ولكنه عند بيكون لا يتماثل الا مع العنف . لقد رسم شاجال هــذه الأشخاص الطائرة أو الدائرة حول نفسها أو المنقلبة رأسا على عقب ، ولكنها مع ذلك كانت تفيض بالبكارة ، والمشــاعر الهاربة ، أما أشخاص بيكون فهم متقطنو الرواح ، يدورون حــول أنفسهم لأنهم فزعون وخائفون وربما لأنهم غاضبون .



ف . بيكون بريشة سليم



كلب ١٩٥٢

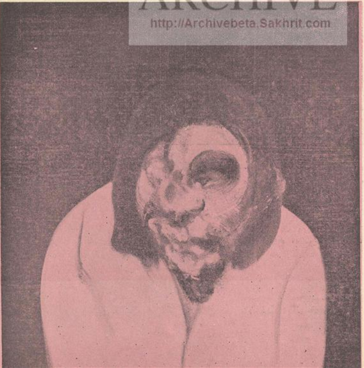
ومع ان بعض شخصيات **سوتين** (١٨٩٤ — ١٩٤٣) من الممكن أن تذكرنا ببيكون ، الا أن سوتين كان مباشرا ، وكان اهتمامه منصبا على كيفية اختيار هذه العجائن المتداخلة السميكة من الألوان بهدف التجميل ، وليس بهدف التعميق . لقد كان العنف عند سوتين يتلخص فى نقله من الواقع الى مجرد التسجيل على اللوحة ، فهو يبرز مثلا من خلال شخصية مجنون، أو مجنونة ،أو من خلال صورة فرخة مذبوحة أو معلقة .. الخ ، ولكن العنف عند بيكون يتمثل فى كونه موقفا أنسانيا شاملا ضد النمط ، وضد الجمود ، بل وحتى ضد حدود العقل .

ومع أن **سوتين** فى ذلك الوقت كان يضيف ما يغرى فى ضربات فرشاته العاصفة الا أن الفراغ بقى عنده معدوم القيمة ، عاريا من اى دور ، الا من موازناته مع المشخص ، ولذلك فقد بقى ، هذا الشيء الغامض الذى تميز به بيكون . ان المشكلة عند بيكون تأتى من الحاحه القوى على تجسيد المشخص ، هذا التجسيد الذى لا يعنى بالمسقط ، أو بالمقطع ، أو بالمنظور ، أو بالمرئى ،

وانما يعنى بقوة تلاحمها جميعا مع غير المنظور وغير المرئى ، ومن ثم فقد انفرد عند بيكون بنفس هذه السمة المميزة ، وهو فراغ لا يأتى من منطق الفضاء فى اللوحة ، وانما يأتى من عنف التكتيل فى المشخص ، فالفراغ عند بيكون ليس هو الموزون مع الكتلة ولا المتوازن مع الحجم ، وانما هــو الصدى الداوى الذى ينجم عن انفجــار الكتلة أو الثقل داخل المشخص ـ فاذا جاز أن نقول ذلك عن بيكون فمعناه أن الطابع الغالب على فنه ليس هو طابع النحت فحسب ، وانما هو طابع النحت وزيادة .

وعلى الرغم من أن بيكون مستقل هــذا الاستقلال التام فى الشخصية والمعالجة والتناول ، وعلى الرغم من أنه متفرد ، ومنفرد بعالم موحش شديد الكآبة ، الا أننا نلمس فى بعض أعماله هذا الأثر الطفيف من عالم فان جوخ ، هــذا العالم الجنونى الضائع المشوب بالأسى والحزن . ولعل أعمال بيكون فى الخمسينات الأولى تكشف عن استفادته العميقة من طريقة ضربات الفرشــاة السريعة ، تلك التى كانت تحــدث فى لوحات **«فان جوخ»** تجزيئات لونية شديدة الأثر فوق سطح اللوحة . ولكن الذى يظل لبيكون هو هذا الطابع الذى يميزه بالعنف والاقتدار ، بل وتظل له هذه الحركة العشوائية التى تنبعث من جراء اصطدام لون بالآخر داخل التركيب ، فلقد كانت ضربات الفرشاة عند « جوخ » متقابلة ، وأحيانا متماثلة الايقاع فى اللون والخط ، الا انها تختلف نهائيا عند بيكون ، فلا هى متمــاثلة ، ولا هى متقابلة ، ولا هى متكاملة ، ولا هى متعارضة ، انها كلها مضروبة داخل بعضها عراك ما يلبث أن يفصح عن حركة ديناميكية ، بحيث يبدو كما لو كان ذلك قد حدث بقوة انطباق الطبيعة ، أو باستعمال عشرات الفرش مرة واحدة ـ ومن ثم فان استفادة بيكون لم تنحصر الا فى طريقة ضربات الفرشاة وحدها ، والواقع أن فان جوخ كان معنيا عناية واضحة بالتكامل الجمالى للشكل كله ، ولذلك فقد جرفه عالم الألوان ، بل وربما بهره أكثر مما يجب ، لذلك كان فان جوخ دافئا ، ولكنه فى نفس الوقت كان قد فقد العمق ، وبالتالى هــذه الجمــالية الحلوة التى تنفجر عن الصراع بين الموضوع والأدوات كلها .

ولعل الفارق يبدو أشد ما يكون عندما نعلم أن بيكون فنان على قدر عظيم من الثقافة ، ومن ثم فهو يكسب أعماله هذا الايجاز الفلسفى العميق الذى يبدو فى الوجوه ، والأشكال ، والمساحات .



رأس امرأة
١٩٦٠

بين بيكون وبيكاسو :

بيكون اذن فنان مشخص . بمعنى أنه يجسد ظواهر الانسان فى أشكال يخلقها لذاتها . **« اننى أحب للوحاتى أن تظهر كما لو أن انسانا قد عبر بينها بحيث ترك علامات الحضور الانسانى ، وآثار ذكرى الحوادث الماضية »** .

على أننا لسنا هنا بصدد البحث عن المدرسة التى تضم بيكون ، ففضلا عن عقم هذه المحاولة ، الا اننى أفضل البعد عن الانخراط فى هذه المتعة المدرسية الرخيصة ، التى تصم معظم نقاد الفن — هنا على الأقل — بالجدب والصدأ .

ولكن حسبنا هذه النظرة المقارنة ، التى قد تفيد فى استقبالنا لأعمال بيكون . فتشخيصية **بيكون** على قدر كبير من وفرة الصفات بحيث أنها تختلف تماما عن تشخيصية **فان جوخ ، وجوجان** تلك التى كانت تصدر عن ارادة التعبير عن موقف تقليدى فى الحياة ، بنفس الأدوات والعناصر التقليدية الموجودة فى الظاهر الواقعى ، بينما تعتمد فنية المعالجة على الخط بصفة أساسية وتجزىء اللون الى وحدات متماثلة ، ومن جهة أخرى فان التشخيصية عند بيكون تختلف عن التشخيصية الشعرية عند **بول كلى ، وميرو** تلك التى كانت تعتمد على الشكل البنائى ذى الوحدات اللونية الشفافة المتكاملة . وهى تختلف بعد هذا كله عن تشخيصية جورج رووه التى كانت تعتمد على الخط السميك الداكن حول أطراف التكوين مع الاغراق فى استلهام أشكال من العالم المثالى تتسم بالحزن والغيبية والعقيدة .

بل هى تختلف حتى عن معظم التناولات التى نعرفها فى التشخيصية — واذا اقتضى الأمر — فهى تقف على النقيض من تشخيصية **بيكاسو** ، ولكنه ليس مجرد النقيض المدموغ بالاختلاف فحسب ، وانما هو أيضا النقيض المميز بالجدة وبالاثارة وبالدهشة وبوفرة العمق ، وربما أيضا بالصدمة .

ومهما يكن من شىء فالحقيقة ان **بيكاسو** ظل محافظا . بمعنى أنه ظل متمسكا بآخر خيط فى القديم ، وهو التوازن فى جوهره التقليدى ، على عكس ما قد يبدو للمتأمل العادى . هذا التوازن المنبثق عن تآلف مساحة التصميم مع مساحة الخلفية ، وعن تصادق الخطوط داخل



شخص جالس ١٩٦٠

بعضها فى الشكل . ومن هنا فقد ظل **بيكاسو** — رغم ثوراته التى فجرت فن القرن العشرين — حريصا على أن تبقى لوحاته محكمة البناء بهذا المعنى ، بحيث تستطيع العين أن تدور أو تروح وتجىء رأسا أو أفقا ، حول محور ارتكاز بذاته على اللوحة ، فلا تلبث أجزاء اللوحة أن تصير فى لحظة ما تيارات مساعدة على خلق رؤية جمالية كلية . ولكن الأمر عند بيكون جد مثير وجالب للدهشة . ان التشخيصية عند بيكون فلسفة تفرض شكلها الضرورى . انه يشوه الأشخاص طبقا لهذا الالحاح المحتوم . فهو لم يقصد أن يكون غريبا ، وانما قصد أن يكون صادقا . وهو لم يقصد أن يكون حديثا وانما قصد ان يكون معاصرا . هكذا تكسرت الأشكال عند بيكون لا من واقع ضرورة التكنيك ، وانما من واقع الحضور وضرورة الحضور ، والزمن وضرورة الزمن ، فالزمن هو محور ارتكاز بيكون ، وما دام الأمر كذلك ، فعالمه هو المراد واللامراد ، هو الخير واللاخير ، هو الرفض واللارفض — بل هو التبصر والعمى — هو الكل مذبذب بين اثنين ، ومن ثم فهو العذاب الذى لا يراد ، **وهو أخيرا الانسان على كل مستويات العمق والتسطيح** .

هكذا أمكن لبيكون ان يلغى العنصر الأخير الذى تبقى عند بيكاسو . وهو التوازن بين الشكل والتصميم ، وبين العمق والتجسيد ، وبين الخط والمساحة . فبيكون لا يحجز مستوى النظر فى المشخص عن طريق توازن مرمى العين ومن ثم شحنها للدوران حول محور ارتكاز فى الشكل ، أو صعودها حوله أفقا أو رأسا كما هى الحال عند بيكاسو والقدماء ، وانما هو يحجز العين حتى الانحباس فى المشخص ، لا عن طريق أسلوب تداعى مرمى النظر ، وانما عن طريق صدم العين بمساحات متعاقبة لا يحدها منطق تقليدى خلف المشخص ، وبحيث تخلو فى نفس اللحظة من أية تدريجات لونية حتى لتشبه طلاء الحوائط فى أغلب الأحيان . ولكنه هذا الحبس الذى غالبا ما يقترب من أن يصبح سجنا . انه عند بيكون اكثر من مجرد **انعكاس أخلاقى لمفهوم الحبس ، انه قضبان بمعنى الكلمة** . وفى لوحته العظيمة **« البابا يجلس »** ، تبدو هذه القضبان الدخيلة بغير مبتغى أو انتظار ، يتقابل بعضها مع البعض الآخر حتى تصنع قفصا حول شكل البابا الجالس ، وعلى الرغم من أنها تأخذ النظر ، فانها أيضا تهترىء سطح اللوحة بأجمعه .

ومع ذلك فقد ظل بيكون حريصا على تفصيل التشريح الآدمى فى الأشخاص ، لا بقصد جذب المتلقى ، أو منافقته على حساب قيم الجمال والفن ، وانما على قدر ما تستطيع هذه التفاصيل أن تضيفه من شحنات السخرية والمرارة فى المحتوى . بل حتى على قدر ما تستطيع أن تصبح عنصرا عضويا لا يمكن فهمه الا عن طريق الكلى المندمج فى داخله .

ولعل لوحة **« الرجل الذى يدور »** هى احدى الأعمال البالغة الروعة التى استطاع بيكون أن يبلور فيها ذروة الاحساس باللاشيئية ، والعبث والعذاب والحزن . **« لقد أدرك الانسان الآن أن وجوده مجرد صدفة وأنه مخلوق عقيم الحيلة »** .

على أن الأهم من ذلك كله هو ما تحمله سطوح اللوحة من تكوينات مشحونة بالقدرة على اقتحام العقل المنطقى المنظم والسخرية بحدوده وأبعاده ويتلخص شكل اللوحة فى سطح طولى مقسم الى مقطعين طوليين رأسيين ، مختلفين ومطليين تماما بالأسود بطريقة حائطية ، وبأسفل مستطيل أفقى منظور ، يقتحم مساحات الأطوال الرأسية ويوازنها بينما يقف فوقه شخص من الصعب ادراك ما اذا كان رجلا أم امرأة ، ولكنه على كل حال آدمى يظهر فى حالة دوران عنيف حول نفسه كأنما قد أصيب بطلقة رصاص فى عنقه ، أو انفتح عليه مدفع رشاش ، أو أصابته الصاعقة ، انه يدور بواسطة قوة غامضة شديدة الطغيان ، ولكن سره الوحيد الذى يواجه كل تفسير ويتحداه هو قدرته التى لا تنفد على أن يظل ثابتا فى المكان ، فى الوقت الذى تبدو فيه هذه الكتل من الدم المتجمد التى تفيض بالقشعريرة والسخط فى أسفل المستطيل الرأسى الأسود ، — بينما البقية فضاء ، فضاء خال من كل لون اللهم الا لون التوال الحقيقى . وهو فضاء أثقل من أن يعادل فراغا ، انه منطقة ساقطة كالعدم ، مفقودة كلية بين الشعور واللاشعور ، لعله طريق ، أو ميدان ، أو ممر ، ولعله حجرة ، ولعله أريكة ، مهما يكن من امر فالمتلقى محجوز الوجدان والفكر داخل هذا التكوين الآدمى المرير ، مجبر كالرهينة على أن يتلقى هذه العاصفة من الآلام البشرية . تلك هى قدرة بيكون على أن يدمج الفكر بالتشكيل المطلق ، بل وأن يجعل منه هذا المفاعل العضوى الشديد الحيوية فى الشكل جميعه . فالفن **« أسلوب يفتح الميادين أمام المشاعر ، واللوحة يجب أن تكون اعادة خلق موقف أكثر منها وسيلة من وسائل الايضاح الموضوعى ، على أنه لا يمكن أن يتحقق التوتر مالم يحدث دائما هذا الصراع مع الموضوع »** .

بيكون والصليب وجياكومتى :

بقى اذن هذا الاشكال الذى لم يحل داخل فن بيكون . هذه الديانة التى قادته فى الطفولة الى أن ينبهر بعالم ليس هو عالم الحقيقة . وعلى مر العصور لم يكن للدين من وظيفة غير الحض على احتمال الظلم والعذاب بأفضل الطرق الممكنة .

الناس اذن يقبلون ، ومن ثم لم تكن فكرة الصلب الا ذروة محزنة لاستعباد المشاعر الآدمية بوسيلة اقحام الوهم الدائم . وبذلك يستحيل الناس الى مجرد تماثيل محشوة بالخرافات والأحلام البعيدة . كل شىء سحيق وغامض ، على أنه فى نفس الوقت ينذر ويعد . وتلك هى قضية الانسان . الانتظار الطويل بلا بديل ، وشجب الحقيقة مهما تكن ، حتى أصبح لزاما على الناس أن ترقب فى اجلال وضعف ركامات الوهم تقف على قاعدة الوهم . ومهما يكن من أمر الديانات الأخرى والفلسفات الأخرى ، فالذى يهمنا هو موقف بيكون ذاته . موقفه من دينه ، ومن قدره . ومن عقيدته . أو ربما من الهه ، وعلى الأصح موقفه من الوهم ومن الخرافة .

فبينما هو يتأرجح بين الثلاثين والأربعين من عمره أخذت تتفتح عينه فجأة على الحقيقة الدامغة والواقع العنيف . **« لقد تكشف لى ان الانسان بائس ، وتعيس ، ومفقود »** وأن **« كل شىء حقير ، ومعذب »** . غير أن ميزة بيكون فى

انه استطاع أن يحول هذا الموقف الذاتى الخاص الى موقف شمولى عام . فلقد بدت بغيته الوحيدة فى أن يقضى على هذه الغيبية المفجعة التى تمثلت فى انسياق الانسان وراء أوجاعه . وفى الحال تجلت صعوبة هذا الدور الذى يحاول أن يقوم به بيكون . فالخديعة أطول مما ينبغى ، وزمان التمويه طال بلا حدود أو أجل ، ومهما يكن من أمر فقد تلخصت رؤية بيكون فى المستطاع كله ، فى الاتجاه الرأسى نحو كشف الحقيقة وتعريتها ، ولعن الوحل والأوساخ .

هكذا وبين عامى ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ كان بيكون قد عرض ثلاثية **« الصليب الزائف »** أو **« الصليب المنحط » (اللوحات الثلاث معروضة فى التيت جاليرى لندن)** ـ وبذلك انكشف جانب على قدر كبير من الأهمية فى أسلوب بيكون ، بل لعله منذ تلك اللحظة والبقعة البريطانية كلها تغلى ، ولا تستقر ، انه ليس مجرد فنان متمرد على العقيدة ، ولكنه فنان مترد على مفهوم العقيدة ، وفى وضوح أشد هو متمرد على تبرير العجز الانسانى بالتدابير الغيبية والقدرية . فهو ببساطة قد ادرك المأساة ، وقرر أن يكشف النقاب عنها ، لا مجرد كشف الحقيقة من أجل الحقيقة ولكنه الكشف المحموم بالغيظ والألم حتى يكاد يستوى مع الحقد . حقد ضد الظلم ، وضد الأوجاع ، وضد كل ما هو غير مبرر .

ولوحة **« ركام الحشو »** أو « اللوحة الوسطى » هى احدى اللوحات الثلاث التى تتكون منها ثلاثية الصليب عند بيكون . ففى النصف العلوى لأمامية اللوحة يبرز ، فى مرارة بالغة ، شكل بيضاوى تمتد من احدى جانبيه رقبة ضارية ، وتنتهى الرقبة بوجه آدمى معصوب العينين تماما ، والفم مفتوح عن أسنان شديدة الحدة ، بمقدار ما هى شديدة الضراوة والوحشية . ومهما يكن من شىء ، فمن السهل أن نتبين أن هذا الجسم الغريب معدوم الأيدى والأرجل والرؤية والسمع ، وفيما عدا هذا فهو معلق فى الهواء بواسطة سن رفيع مدبب ، مرتكز على قاعدة من تلك القواعد التى تمد غالبا لحمل التماثيل ، بينما يحاط الشكل كله بحوائط من جميع الجهات عميقة التوغل فى جسم اللوحة ، لا تضع للشكل حدودا ، وانما تضع له اطارا يشبه السجن قوة وأثرا ، والذى يهمنا الآن هو أن هذا الجسم الغريب ليس مجردا من التفاصيل فحسب ، وانما هو مجرد أيضا من مزايا الحواس المعروفة للآدمى وللحيوان على السواء .

ومع ان الشكل مفعم بهذه الشحنة الحسية القادرة على تعرية مضمون الجنس ، الا ان ذلك لا يعنى اسقاطا جنسيا من حيث فلسفة الشكل ، بقدر ما يعنى العجز أو القصور الجنسى وعلى كل حال فهو انتفاخ لا يحوى شيئا الا الوهم ، ومع ذلك فهو ملفوف حول نفسه كدجاجة معدة للطهو ومن ثم للالتهام ، ومهما يكن ذلك باعثا على الضحك فانه فى اللحظة التالية يكشف النقاب عن السخرية والوجيعة . فلقد أمكن للخرافة أن ترتكز على قاعدة التماثيل وان بقى هذا السن المدبب الذى يفصلها ، وهذه الحوائط البنائية التصميم التى تحاول فى أغلب الظن ان تقضى على مفهوم الحرية .

انتهى بيكون اذن من مشكلة البحث عن التكوين فى حد ذاته ولعل ميزته فى أنه أنهى المشكلة بسرعة ، لأنه نضج بسرعة . لقد بدأ رحلة العذاب منذ رسم هذه الثلاثية المفجعة للصليب سنة ١٩٤٥ ، وهى عبارة عن ثلاث لوحات متجاورة بعضها الى جانب بعض تنقل رؤيته الخاصة عن الصليب وهى موجودة الآن فى التيت جاليرى .

هكذا تشابه بيكون مع جياكومتى فى المنهج ، وربما تشابه معه حتى فى الحزن ، ولكن بينما كان الحزن عند جياكومتى قمة الوجدان الواعى بالفراغ ، فهو عند بيكون ، تصوير لحقيقة الآدمى حتى يثور على وجوده ، ويغضب من قدره . وأغلب ثورات بيكون تحاول أكثر ما تحاول أن تثور على معنى الاعتيادية ، لأن الاعتيادية ما هى الا اداة لاعدام الرؤية ، ومن ثم فالاعتيادية هى العجز والموات . ولذلك فالأشخاص عند بيكون يدورون بعنف ولكنهم لا يمشون ، ويستريحون على الأرض ولكن برأس منكفئة الى أسفل ، ويجلسون قدما فوق قدم ولكن فى الهواء ، وهم منتصبو القامات ولكن عن عيون ذبيحة ، وأنوف خربة وأفواه كأنها الأمعاء .

تلك هى بالتة بيكون ، مزيج عجيب من الألوان والتوتر والفلسفه والثقافة ، فى دائرة قطرها الوحيد هو الانسان ، والانسان وحده .

هذا هو فرنسيس بيكون خالق التشخيصية الجديدة ، ورائدها . ولا يسعنى الا أن أعترف كم هزنى هذا الفنان طوال هذه الجولة المثيرة التى قضيتها أخيرا فى الخارج ، بحيث أورثنى ذلك الايقاع الذى أخذ يلازمنى عن الأمل العنيف الذى ضاق بأن يظل أملا . هذا الايقاع الذى ساعد بيكون على أن يفجر الثورة فى شريان الفن من جديد ، وساعده مرة أخرى على أن يقود العلم الى منبع المشاعر الفارقة فى الحب ، الفياضة بأعمق وأصدق معانى الجمال .

« أحمد فؤاد سليم »



شاعر عربي في غينيا

لست أدرى على وجه التحديد السبب الأساسى لكل تلك الحيرة والضياع والألم ... هذه الصفات الخاصة وحدها التى اتصف بها **الشاعر المرحوم « عبد الباسط الصوفى »** . وكانت عنوانا لحياته ومماته .

ورغم أننى عرفت الشاعر فترة غير قصيرة .. عرفته عن قرب ، وكانت بيننا مودة روحية الا أننى لم أستطع ادراك السر الحقيقى لكل من حيرته وضياعه وألمه . !

لكننى أقول بكل صدق : **ان الشاعر ولد ضائعا ومات ضائعا .**

* * *

كان ينزوى بعيدا عن العالم والناس والمجتمع .. مأواه المفضل والوحيد مقهى صغير ، هو أقرب الى الواحة منه الى مكان ارتياد وصخب وضجيج .

كان يجلس هناك بصمت ... وكنت أراه من بعيد ؛ فأخاف ان انا اقتربت منه أن أوقظ فى نفسه قصيدة ترتعش فى أعماقه وأسراره ..

فآثرت البقاء بعيدا عنه ، وفى نفسى الحاح شديد اليه ، والى سماع صوته عن قرب .. والرغبة الملحة تدفعنى اليه وتبعدنى عنه فى آن واحد .

ثم لقيته فى يوم آخر .. اذ قدمنى اليه صديق ، فاذا أنا القاه بجميع الصور التى رسمتها له - يوما - فى سرى .

كان حزنه واضحا ، وارقه اليقظ يتصاعد من بين شفتيه دخانا من لفافته التى لا يتركها الا بعد أن تترك فوق شفتيه يبسا أصفر جافا .

وشممت رائحة قلبه المحترق .

وبدأت أبحث بلا هوادة عن المصدر .. والجذر العميق العميق .. لكن البحث لم يزد فى الأمر الا غرابة . ووجدت

افريقيا ، يا صرخة الحرية ،
وارتجت الغابات والحقول ،
(ماوماو) أحقاد بدائيين بربرية ،
لن يشرب (الأسياد) من دمائنا الزنجية
وفارت الأكف ترتمي على الطبول .



عدنان الداعوق

نفسي وسط اسطورة حزينة غريبة وعجيبة يعيشها الشاعر بكل ما يملك من حس ووجدان .

وتوطدت بيننا المعرفة ...

وبدأت أجلس واياه فى ذلك المقهى القريب .. وكثيرا ما كنت ألقاه فى الشارع وحيدا ضاربا بسمفونيته الضائعة نغما شاردا .

ولم اجرؤ يوما على سؤاله سبب شروده أو ضياعه ؛ اذ انه هو الذى قال للأصحاب : « **ما وجودى فى هذا العالم العجيب الا رحلة قذفتنى اليها مركبة شراعها من نسيج أسطورى ، فتحطمت المركبة وهى تصارع الأمواج .. وما زلت أنا فى الانتظار ..! .** »

ثم أليس هو القائل :

« **أنا والشراع ، وقيثارتى : غربة وارتحال .** » .

لم يعرف الاستقرار طريقا الى قلبه وروحه . ان زحف النوم الى عينيه يظل قلبه يقظا فى انفعال وتوتر وخشونة . وتبدأ عملية الاحتراق ببطء وهدوء وعمق :

« صديقتى ، لم يبق ، فى عيوننا بريق
لم يبق ، فى ضلوعنا ، تلهف عميق
اقدامنا ، تمضى بها جنازة الطريق
وتجهش الخطى ، على رصيفنا العتيق . »

ولا تنسيه صحبة الرفاق ، فى رحلاتهم البعيدة الى عوالم الحب والروعة والجمال ، مأساته الدفينة . اذ ما يلبث ان يودعهم عائدا الى صومعته .. واذا خياله الشاعرى يرحل بعيدا ، وترسو سفينة الشاعر الأسطورية عند مرفأ قديم قدم الأزل .. لكنه ايضا فى ارض غريبة . فينشد :

« .. وحين تعوى الريح ، فى حقد الشتاء

انطوى ، فى غرفتى وحيد ..
الجدر ، والكتاب ، والأشباح ، فى
وليمتى ، والحلم الشريد
والمطر الضارب ، فى نافذتى
أغنية ، رتيبة النشيد
ويلهث السطر ، وتكبو الكلمة
وتلعق الشموع وجه الظلمة
والوحدة الخرساء ، فى مأتمها ،
تكفكف الروح ، ليخفى عقمه
أصفى الربيع ، لم تبل قطرة
منه أغانينا التى تضيع
وبرعمت أعواده ، وبرعمت
أضواؤه ، وشوقنا صقيع . »

ثم فجأة يفطن الى أنه ما زال يعيش ، فيعود قائلا :

« صديقتى ، مازال فى عيوننا بريق
مازال ، فى ضلوعنا ، تلهف عميق
فلنمض فى طريقنا ، فترقص الطريق . »

ولا يجد فى الوحدة منفسحا لروحه الهائمة : ولا يجد فى الاغتراب الا ازدياد الألم فيرجع من جديد .. ولا يلقاه الا مقهاه المفضل .. واذا هناك المأساة الأخرى .. الأجساد الادمية المحنطة تتطلع اليه ولا يشبع منها الفضول .. وعيون زجاجية تجمد عنده بلا أدنى حس أو حركة :

« .. مقهى ، ووجوه تختنق
وعيون ، يأكلها القلق
نظرات ، تقفز هاربة
أبدا ، وخيوط تنسحق .
ضوضاء ، تفرق فى ضوضاء
وتغط ، بغفوتها الأشياء
كسل ، يتمطى من سأم
وفراغ ، يختطف الأضواء
ونصال ، ترقص ، جائعة
والعالم مصلوب ، أشلاء
تتسكع أشباح جوفاء
ولفافة تبغ ، تحترق . »

ويغنى نغما آخر محببا الى نفسه من سمفونيته المفضلة :

« أنا ، والشراع ، وقيثارتى : غربة وارتحال . »

ويظن انه فى الغربة قد يغسل عن نفسه مرارة الألم ، وينسى الوجد والسأم ، **ويرتحل من شاطىء العاصى الى شاطىء الفرات .. من مدينة «حمص» الى « دير الزور »**

ويبقى فى المدينة الجديدة زمنا غير قصير يدرس فيها . زاعما انه قد وجد السلوان فى الغربة أو فى الارتحال ، لكن البعد عن الأهل والأصحاب والأحباب ، وعن الشارع وعن « حمص » لا يزيده الا ألما ووجدا ، ويعود الى مدينته القديمة ظانا انها قد تغيرت أو أن شعوره نحوها قد تغير .. قبل أن يرحل عنها . لكنه لا يجد فى المدينة الصغيرة الهادئة الا سجنا جديدا لروحه الهائمة الشاردة .

* * *

كان لا يفتأ يتحدث ، كلما جلس الى صديق أو رفيق ، عن ذلك العالم الواسع الكبير الذى يتمناه ويتوق اليه .. وتتجه نفسه للرحيل ، الى ذلك العالم المجهول ، وقلبه الهائم تجتاحه ألف فكرة وفكرة .

مجلسه ذلك المقهى المفضل ، وخله الوفى ذلك الكتاب المفتوح أبدا ، يظل يقرأ ويقرأ فيه حتى يدرك أخيرا ، أنه من العبث أن يظل يضرب فى مجاهل الأحلام والأمانى ، فيعود الى حيث يدفن نفسه المتوهجة فى وحدته المريرة المقفرة ، الى محراب شعره وصومعة أفكاره .

كان على الشاعر المرحوم « عبد الباسط الصوفى » أن يعيش بشخصيتين منفصلتين عن بعضهما تمام الانفصال ، شخصية الأستاذ المدرس ، وشخصية الشاعر المنطلق الذى يود لو يستطيع أن يهرب من ذلك الجحيم الذى يحرقه فى كل يوم .. وهو مؤمن أنه لو انطلق فسوف يعطى للحياة والشعر أحسن العطاء .

وانني لأذكر مرة أن زارنى فى « حمص » الأديب الكبير المرحوم الدكتور « **محمد مندور** » وزوجته الشاعرة « **ملك عبد العزيز** » وكانا قد سمعا عن « حمص » ومياسها الكثير فطلبت اليهما فى رجاء أن نمضى جلسية على العاصى .

ودعوت بعض الأدباء والشعراء ، وكان الشاعر « الصوفى » بين هؤلاء .

كانت ليلة لا أنساها ما حييت .. أسطورة ديك الجن الحمصى تخيم على جلستنا الهادئة ، والأحاديث تروى ، **والحكايا تقص .. والشعر يعربد فى القلوب يبغى الانطلاق ... طلب المرحوم الدكتور « مندور » أن يسمع بعض الشعر ، فرجوت الشاعر « الصوفى » أن يقول شيئا ، فانطوى على نفسه قليلا ، واعترت وجهه حمرة من خجل طفولى جميل .. ثم ما لبث بعد فترة أن أنشد .. وانشد أكثر من قصيدة .**

وكان الدكتور « مندور » ــ رحمه الله منتشيا ،

ووجدته يقرب راسه منى ويهمس فى أذنى عبارة خالدة :

« هذا بعينه الشاعر . ان لديه طاقات هائلة من العطاء .. ولكن تنقصه الغربة والارتحال » ولم يدر بذهن أحد أن نهاية الشاعر « الصوفى » ستكون فى الغربة . !

* * *

وفرحنا ، جميع رفاق الشاعر ، عندما علمنا انه انتدب للتدريس فى غينيا .. فى افريقيا ...

وقبل يومين من رحيله قابلته ، كان لا يزال مهموما شاردا ، وقال لى بلهجة حزينة :

ــ المهم قبل كل شيء أن أرحل . !

وسافر الشاعر وودعناه ، وانقطعت عنا أخباره تماما ، فلم يكتب لأحد الى أمد طويل لكن رسالة مفاجئة وصلتنا منه فى غينيا .

قرات الرسالة . فوجدت فيها نغما جديدا من الحزن والضياع والألم لم يكن قد تعرف عليه الشاعر وهو فى مدينته الصغيرة .. وها هو ذا يلقاه فى القارة الافريقية وكانت الرسالة كأنها تريد أن تقول بجملة واحدة **« أيها الأصدقاء الأوفياء .. ابحثوا** عن « عبد الباسط » **. أنا واثق أنكم لن تجدوه .. لأن الحياة** أضاعته » .

وتخيلته وهو فى مدينة « لابى » وحيدا لا أنيس معه ولا رفيق ، يشتاق الى ذلك الكتاب المفتوح فى مقهاه المفضل .. ويشتاق الى تلك العيون الزجاجية الجامدة .

وكانت الرسالة تقول :

لابى فى ١٩٦٠/٥/٤ ــ

« ... لقد أرجأت الكتابة اليك حتى يكون لى عنوان دائم ، وغرقت بالمطالعة والكتابة والتأمل . وحين يجد المرء أمامه فرصة ذهبية لا يفوتها ، فاذا به يستجم استجماما انسانيا ، واذا هو حر كسول ، حالم ، متفلسف ، يرحم نفسه بعيدا .. بعيدا عن وطنه العزيز ، تفصله آلاف الأميال من بحار وبلدان .. واذا هو فى غربة عميقة ، واذا هو أخيرا فى بوتقة الانصهار ، يحاكم ويناقش ما درج عليه ، بهدوء حقيقى ، دون ضجة ولا دعاية ..

ومرت الأيام فى « كوناكرى » متدافعة متباطئة ، وكنت اقضى أوقاتى فى كتابة الشعر وتصحيح القصائد والتجوال والقراءة .. لقد تقمصت فجأة روح الرحال ، الباحث عن أية معرفة ، الراكض خلف أية حقيقة .. يهيم به حب عميق للاكتشاف ، ونداء حار للتطلع ، فيكاد يغرق فى ذهول علمى ازاء تماوج الحدود الجغرافية للعالم ومرونتها ،

اننى فى الغربة ، اشعر بها ولا أشعر فى وقت واحد ، وهو احساس غريب يملؤنى . لا .. ليس فى أعماقى الآن مواطن عالمى يتكون باحثا عن ظروف سياسية وفكرية ليخرج على الرغم من قول « **توماس بين** » ــ كل العالم قريتى ــ وانما فى أعماقى كائن عجوز هرم مريض أحمق ، يرتطم الآن ارتطاما قاسيا على صخور تجارب وحقائق جديدة ، أنا الآن فى بوتقة ، أريد انصهارا كليا لأدرك وأستطلع قابلية الادراك فى ذاتى ، أريد انصهارا وانتصارا كبيرا على الجزع الروحى الذى مزقنى .. اريد أن أتعرى على صعيد موضوعى .. اريد .. أريد رؤيا جديدة حيث لا ضجيج مصطنع ، لا تصميم مقهور ، ولا التواء للزيف والنفاق .. حيث العراء المطلق اللانهائى .. حيث الله بلا أثواب ومسوح ، والسلام من غير معبد . والغبطة دون ندم .

كنت أذهب أحيانا الى مقهى فرنسى يسمى « **بايرون** » وأحيانا كنت أتمدد فيه على الصخور فتصدم أنفى رائحة الملح مختلطة برطوبة المدينة الحارة الآسنة المنطفئة فى الأمواج ، وممتزجة بعرق الأجساد العارية ، الباحثة عن الرياضة والعافية والغواية .

وكانت تظهر أمامى جزر داكنة مستطيلة ، وقد يحجبها مرور البواخر والزوارق من كل نوع .. فأستشعر بأشواق الرحيل .. وحين كنت أجلس تتلاشى أصداء الميناء القريب فى أذنى ، وأنا أرتشف عصير « الأناناس » الفاقع ، ومن ورائى ــ خلف المقهى المسيج ، وعلى طول الشارع الساحلى ، كانت ترتعش أوراق « الباوباو » تلك الأشجار العملاقة المترهلة كالجسم البشرى تمد فى التربة الاستوائية أو شبه الاستوائية جذوعها وجذورها المسطحة الاسمنتية ، وكل جذع أو بالأحرى كل جذر يبلغ قامة الانسان متغلغلا فى أعماق الأرض بما لا يقل عن ثلاثة أو أربعة أمتار .

انه « الباوباو » الاسطورى يتربع على الف من أعوامه المباركة ، ويتسامق هيكلا جبارا على ارتفاع ستين وسبعين مترا .. واكثر . فأكثر .

كنت أستشعر الجمال البكر والتثاؤب السعيد ، فأغلق كتابى أو أرمى بقلمى ، وأنفض رأسى فى هبات النسيم الهارب الى الظل » .

* * *

وكأنى بالشاعر المرحوم أراه قابعا فى مقهى وطنى يدعى « الكامابين بلاج » أمام الصخور البرونزية ، بينما تتتابع الأمواج فى رتابتها الأبدية وتلاطمها اليائس وهديرها الآلى ، كان هناك يحلو له نظم الشعر ، فى حين مكبر الصوت لا ينى يرسل أغنياته الافريقية الراقصة .

وحين ذاك ، ووقتما تبلغ النشوة ذروتهـا فى روح الشاعر ، تبدأ الانغام الساحرة تجيش من قلبه بعد طول انتظار :

« تم تم
افريقيا نغم
حين يمد الليل كل ثوبه العتيق
وترقد الغابات فى قبابها العميق
بعض القمم
تفر ، فى مجاهل الفضاء
لعلها ، تهز كبرياء
لعله السأم
نادت به ، مجهدة وناء
فارتطمت بقبة السماء
لعله النغم . »

ويأتى دور « التشاتشاتشا » فتترك عاملة البار الافريقية زبائنها ، وتأخذ بيد زميلها مسرعة الى ساحة الرقص الواسعة ، ويرقص الاثنان بكل الحركات المعبرة عن الفرح الباطنى والضياع المنتشى بالغبطة والسذاجة الأولى :

تم تم
افريقيا نغم
حب ورقص وجنون
وتقرع الطبول ، للطبول
سمراء ، كالعاصفة الرملية
فى جوفها تجلجل الأغنية
افريقيا ، يا صرخة الحربة
وارتجت الغابات ، والحقول
(ماو ماو) أحقاد بدائيين بربرية
لن يشرب (الأسياد) من دمائنا الزنجية
وفارت الأكف ترتمى على الطبول
تفورى ، يا لعنة الآلهة الحقودة
تفورى ، عودى الى كهوفك البعيدة
تبددى ، كحفنة الرياح ، والضباب
جرى ، على الأحجار كل مخلب وناب
تم تم
الرعب والعدم
فى ليلك البهيم ، يا آلهة الشرور
يا عالم الأشباح ، والعويل ، والزئير
يا نهم الذباب ، والجراد ، والقبور
يا كل أفعى ، نقعت سمومها تمور
تم تم
افريقيا نغم
افريقيا مسرة ، بلا ندم
وفارت الأكف ترتمى ، على الطبول . »



وفى آخر رسالته الاولى يقول :

« عالم كبير ادرسه واترجم مآثره ، واشاهد الرقص واسمع الطبول ، واتعمـق الفولـكلور واتأمل فى الاغانى الشعبية وهكذا ... ولدت فى نفسى قصـائد « **الباليه الافريقى** » ، وانا منكب الآن على كتابتها ، ولم انته بعد من القصيدة الأولى .

وفى الجملة كانت اقامتى فى « كوناكرى » مصـدرا انسانيا للتحسس والالهام والانتاج ؛ ولا أدرى كيف تكون اقامتى هنا فى « لابى » ، فهى صغيرة وجميلة ، ومناخها أكاد أحسبه مناخ بلادنا ، لم اتسلم عملى بعـد ... على اهتبال الفرصة لادرس وابحث هنا أكثر ..

« **عبد الباسط** »

كنا نعتقد جميعا أن مشكلة الشاعر سوف يتخلص منها فى الغربة ، فينسى آلامه حين يتعرف على عالم جديد .. لكن الاسى المرير والمزمن الذى ينخر فى قلبه ، والضياع المطلق الذى وجد نفسه من جديد فيه تراءى له أكبر فأكبر . فما زاده هذا الا نقمة على الحياة واعراضا عنها . **أنها مأساته ، مأساة الشاعر الانسان الذى يبحث عن نفسه دون أن يراها .**

اذ انهى رسالته الثانية والأخيرة تتوضح بعض الملامح القاسية لديه ، وبعض الألم والتمرد الجديدين . حيث كتب يقول :

« ...

لقد بدأ هنا فصل الأمطار الطويل .. فى الوقت الذى بدأ صيفكم ، والمطر الافريقى غزير ، مرعب ، حتى ليشبه فى نظرك ، طوفان نوح القديم ، طوفان الأسطورة التى تفسر الغضب الالهى ، والعقوق والتمرد على الارض ، فلا بد لعينيك أن تشد الى زجاج النافذة ، فتتوقع انهدام الكون ، وتهتز للانفجارات الصاعقة ، فتحس بضآلتك ، وتتلمس مدى وحدتك فى العالم ، فأنت أمام آلهة لعلها تعبر عن وجودها بالجبروت ، أو لعلها فقدت ملكة التوازن ، أو لعل الطبيعة ذاتها جنت فتبحث عن آلهتها الحكيمة الضائعة .

ولكن الطبيعة فى « لابى » قلقة ، فلا يستمر تهطال المطر الا ساعات قلائل وبعدها يسكن كل شىء ويغور الماء الغزير فى التربة الاسفنجية ويهب الهواء منعشا نظيفا ، فتتفتح كل رئتيك ، ويأتى دورك الانسانى الصغير لتعبر أنت بلغتك الخاصة .

* * *

واستطاع ها هنا الشاعر أن يمارس دوره الانسانى الصغير هذا ، واستطاع كذلك أن يعبر بلغته الخاصة ، بالشعر ، فكتب قصيدته الرائعة **« خلف الزجاج »** وهى من التجارب الناضجة الزاخرة بالتأمل والحس المطلق العميق :

« يكفى .. أريد الأرض ، سيدتى .
ما بعد هذى الرحلة الوسنى . ؟
الحب ، أحرقنا البخور له ..
ومع السنا الوردى ، حولنا
يكفى .. بعيدا نحن أوغلنا
يكفى .. تثاءبنا وثرثرنا
وعانقنا الأمانى
ولفافتى العشرون ، أطفئها
وأعرق فى مكانى
لم يبق الا الصمت ، والتحديق
فى سحب الدخان . »

واذا ما أوغلنا قليلا فى حياة الشاعر .. نجد أن رحلته الكبيرة الى افريقيا لم تكن الا امتدادا لرحلته فى هذا العالم .. فالزاد القديم حمله معه من « حمص » ومن « دمشق » وأخذ يجتره بعمق ولون وطعم هناك فى القارة الافريقية .

حتى انه قال فى زاوية من رسالته الأولى :

« لقد نظمت قصيدتين ، الأولى « خلف الزجاج » وقد نبتت تجربتها فى دمشق ، والثانية « الزائر الغريب » وقد ولدت فكرتها فى القاهرة ونضجت فى مرسيليا . »

ففى قصيدة **« الزائر الغريب »** نراه يقول لنا حزنه وقلقه ومرارته وضياعه :

« وراء المواكب ، تنسل ، يا حزن ، مثل الشبح
بقيثارة ، وذهول قديم ، وحلم نضج
بعينين خابيتين ، سراجهما دون زيت
تداوران فى حفرتى ظلمة ، من متاه وموت
وكانت تحل جدائلهما ، نجمة فى السماء
وتدفن قمتها سروة ، فى هشيم الضياء
غرقت بعيد الشموع ، وغنى بليلى القدح
فأهوى ، بمعوله الصلد ، ضوء ، وسرح
وكانت نجوم ، تحل جدائلها ، من فرح
وعبر الشقوق ، تسللت ، يا حزن ، مثل الشبح » .

* * *

وان نحن عدنا الى رسالته الثانية ، نراه يوضح لنا ولنفسه ما يعانيه وما يكابده :

« وانت واجد فى افريقيا ، كل اجوبة الانسان المعاصر الغارق فى الضباب . والآلة ، والمكتبة ، والهرم العاجز .

ان أبرز سمة من سمات انسان اليوم انه قلق .

وسبب هذا القلق شكه المطلق بالقيم التى آمن بهـــا طويلا ، واعتقد أنها حقائق أبدية ثابتة .. فهو ينظر الى الأسس التى قامت عليها حياته العقلية والروحية نظرة من آفاق فجاة ، فاذا هو أكثر ذكاء ، تغمره يقظة شاملة ، واذا هو ينكر ما رأت عيناه ، وأصبح هذا الانكار صفة العصر كله ، وأزمة العصر الحقيقية .

كل ما حولى الآن هدوء شامل ، وجمال حار قرمزى ، ينسكب من شرفات السماء . وفى ساعات النهار الأخيرة تعود قطعان البقر من الحقول ، وتترنح أغانى (الفولا) بخشوع الاعترافات ومرارة الأحزان ، وحرارة الغبطة ..

ومن حين لآخر تقرع الطبول ، وتنعقد حلقات الصبايا البرونزيات ، يرقصن للجنس والحياة ولله .

وســاعة المغيب يتصـــاعد دخان المواقد وحرائق البساتين ، متحللا بالأشـــعة المسائية المتعبة ، وتموج انهار الفراش والطيور قزحية غريبة .

واستمع أحيـــانا الى تراتيل الفرح ، تصـــدح من اعشاش الحور العملاق والمانغو المترهل ، وحين تبـــدأ جوقة الصراصير بحناجرها الحـــادة ترسل سيمفونيتها الليلية .. ألوانا من الأبواق والأوتار .

ولكن اذا هطل المطر يحجب عنك كل هذا ، فتركن الى غرفتك لتشاهد فصلا آخر ... » .

* * *

ان الفلسـفة التى يطلقها هنا ، فى رسالته الثانية ، يجدها ــ الى حد ما ، تبرر موقفه من هذا العالم . فهو يفسر ، هو يشرح ، وهو يحلل .. وذلك ما لم يكن يعلمه من قبل رحلته الكبيرة .

ولكنه هنا ، فى افريقيا ، توضحت لديه الأمور أكثر فأكثر .. فأراد أن يجد نفسه .. بحث عنا .. وفتش .. ولكنه عبثا كان بحثه .

فقد آمن ايمانا لا رجوع منه ، أنه خلق ليحزن وليمزقه هذا الحزن الكئيب .. يبحث عن أحد حوله ، وهو فى غربته البعيدة ، فلا يرى قلبا محبا ، ولا يسمع كلمة حنان تخفف عنه ما يكابده ، وترتفع أمام روحه الهائمة ستائر ضبابية تحجب عنه كل شىء .. ويشع من قلبه كل شىء ..

ويبكى لأول مرة بالدمع ، بعـــد أن بكى بالشعر ، ويمسح بالكف المرتعش دموعه ، ويهرع الى الشـــاطىء البعيد . وتـسقط دمعاته فى البحر وتضيع مع الامواج . ثم يرجع الى غرفته وحيدا ، يجلس قرب النافذة يتطلع الى الشبح المارد الواقف هناك .

فقد أصيب بالمرض .. ومع المرض يطلب المرء الاهل والأحبة .. لكن أين هو من عالم الحب البعيد . وتشتد عليه أثقال المرض . ويطلب الرحيل بسرعة .. بسرعة قصوى هذه المرة .

وحين لا يملك الا انفاســا أخيرة ، يأبى أن تضيع هذه الأنفاس هباء ، فيتناول قلمه ، وهو لا يكاد يقوى على التنفس والرؤية ، ويكتب قصـــــيدته الخالدة « مكادى » ، وكأنه يرثى نفسه بها .. حيث لا أحـــد بقربه يرثيه .

يصرخ ، ويئن ويقول بأروع الحزن وأبلغ الأسى :

« يقولون :

هام ، بافريقيا ، عاشق ، فى ضمير البحار ، وغاب يغلغل ، فى الأفق ،

أسود كالقار ، عريان ، يلطم صدر العباب

يطير مع الوهم ، تركض عيناه ،

بنصل من سدفى الاهاب

أضاع ، على الموج ، أيامه ،

فكان رحيلا ، بغير اياب . »

ثم يدوى صوته حزينا قويا فى قلب افريقيـــا .. اذ كانت الأنفاس الأخيرة المتعلقة بالحياة :

« مكادى ، أنا ، والشراع الصديق ، وقيثارتى : غربة وارتحال . ! »

وأخيرا . لابد من الموت ...

يقدم على الانتحار .. وينقذ أكثر من مرة .. ولكنه يوفق فى النهـــاية بالخلاص . ويشعر اذ ذاك بالراحة الأبدية . والقلم بين أنامله يريد الحروف والأشعار .

* * *

لقد كان « الداعوق » ــ رحمه الله . نسيجا وحيدا فى الشعر العربى المعاصر ، فديوانه « أبيات ريفيـــة » نفحة جديدة فى سمفونية الشعر العربى ، تفيض بالأسى والحنين وتزيدنا لوعة وتحرقا على المصير الذى انتهى اليه الشاعر .. وهو لما يتخط بعد عقده الثالث . حتى ديوانه هذا لم يجمع الا بعد وفاته .

ثم ماذا .. ؟

ليس أمامى الآن سوى رسالتين .. وديوان شعر . هذا كل ما بقى من حياة واحد فى أول القافلة .

عدنان الداعوق



المضمون الاجتماعي عند يوسف إدريس

خيري شلبي

● لأول مرة فى تاريخ المسرح المصرى ترانا نجلس باحترام شديد أمام شخصية الفلاح المصرى « ملك القطن » من هنا كانت هذه المسرحية بمثابة فترة انتقال ثورية كالتى حققها نعمان عاشور فى « الناس اللى تحت » .

● من أهم القضايا الانسانية التى يعالجها مسرح يوسف ادريس قضية أن تكون الملكية الخاصة جزءا لا يتجزأ من الملكية العامة ، وكيف أن كلتيهما مرتبطة بالاخرى ارتباطا وثيقا .

● فكرة الأمانة تتصل اتصالا وجدانيا بشعبنا وله فى الدعوة اليها باع طويل ، ويوسف ادريس يضع يده على هذا الجانب الهام من الفلكلور المصرى ثم يتخذ منه معبرا الى عالم فنى ممتاز .



في الوقت الذى اعتلى فيه **نعمان عاشور** خشبة المسرح المصرى المعاصر بأولى تجاربه ، وبالتالى اعتلت قضية الناس اللى تحت مسرح الحياة ومسرح الفن فى آن **معا** .. كان **يوسف ادريس يقطع الطريق** بحثا عن « **شخصية** » القصة المصرية الحديثة ، القصيرة . ولا يمارى أحد فى أن جهوده قد حققت فى حياتنا الأدبية سبقين عظيمين وعلى غاية من الأهمية : أولهما أنه توصل فعلا وبما لا يدع مجالا للمناقشة الى « اللهجة » المصرية الصميمة فى سياق الحدث القصصى ، حتى لتوقن وأنت تطالع الأحداث أن كاتبها ليس الا مصريا أصيلا ولا يمكن أن يكون غير ذلك بتاتا . وثانيهما أنه ـ فضلا عن أرض **الشرقاوى ـ أول فلاح عرض وشرح ووضع اليد على الداء فى مكمن علة الفلاح المصرى الأصيل** .

ولكنه بعد أن يكتشف نفسه فى القصة القصيرة ، يكتشف بطريقة أو بأخرى ، ميله نحو المسرح . والحق أننا لو تمعنا فى أدب يوسف ادريس القصصى ، **فلا شك** سنكتشف أن به ظلا مسرحيا واضحا وان كانت القصة عنده لا يمكن أن تكون سوى قصة . ويتبدى ذلك **واضحا** فى حواره بشكل خاص . فاننا كثيرا ما نراه حوارا مسرحيا فى اهاب طابع قصصى ، أو قل أن الحوار عنده يأخذ ، فى جانب من جوانبه ، **طابعا مسرحيا** .. بمعنى أنه فى بعض الحالات لا يمكن ترجمته الى سرد قصصى ، **فضلا** عن قيامه بوظائف اخرى منها رسم الشخصية واعطاء الجو والبيئة . وكذلك الشخصيات فى أدب يوسف ادريس القصصى ، كثيرا ما تجىء مرسومة ومبنية **بناء دراميا** .. بمعنى اننا نتصرف عليها من خلال احتكاكها بالآخرين أو بالمواقف الحديثة أو باصطدامها بقوى مادية يولد فيها تيارا فكريا ، وما الى ذلك من وسائل التعبير التى تنتمى الى المسرح **انتماء شرعيا** .

ولعل الأكثر أهمية من **ذلك** أن قصصه بوجه عام تحفل بالحركة والديمة والمشاهد المكتملة المحبوكة حبكة درامية مسرحية ، كما فى قصة « **جمهورية فرحات** » مثلا أو « قصة حب » أو قصة « **حادثة شرف** » وقصة « **الحرام** » على وجه أخص ، وكذلك قصة « **طبلية من السماء** » وقصة « **شيخوخة بدون جنون** » وقصة « **أ ـ الأحرار** » وقصة « **الوجه الآخر** » وقصة « **أبو الهول** » وعديد من القصص الأخرى . لا شك نحس أن المؤلف فى كل من هذه القصص يضع شخصياته فى موقف معين ثم يعطينا قصة حافلة بكل الامكانيات الدرامية من خلال هذا الموقف . وما أعتقد أن أحدا ينكر أن هذا الأسلوب أقرب الى المسرح . وقد يبدو لأول وهلة أننى أتهم قصص المؤلف بالنقض القصصى ، ولكنى على العكس من ذلك أؤكد أنه لولا ما تحشد به أعماق المؤلف من موهبة قصصية كافحة تستطيع أن تصبغ كل رؤاه بصبغة قصصية ، لجاءت أغلب قصصه مسرحيات من **ذوات** الفصل الواحد . **ان الموقف ، أو اللحظة فى قصص يوسف ادريس غالبا ما يكون موقفا مسرحيا بطبعه** .

واذ يحس المؤلف بحسه المسرحى هذا ، نراه **ينطلق الى المسرح** ، ويكون انطلاقه هذا من داخل قصة قصيرة كتبها بعنوان « **جمهورية فرحات** » وكان الجانب المسرحى فيها يطغى على الجانب القصصى لدرجة أنه لم يبذل مجهودا مضنيا عند تحويله لها من قصة الى مسرحية . يصاحب هذه التجربة الناجحة تجربة أخرى ليست أقل



من زميلتها عمقا أو نجاحا : **تلك** هي مسرحية «**ملك القطن**» التى قدمت مع « **جمهورية فرحات** » فى برنامج واحد . ولابد أن المؤلف كان ينوى كتابتها فى شكل قصة قصيرة فتمردت عليه وصعدت من تلقاء نفسها الى خشبة المسرح . وكان الواضح من هاتين التجربتين أن المؤلف يدخل المسرح لا منجذبا بسحر أضوائه بل كان كمن يسحب عائلته خلفه من بين سطور الصفحات ليحمل منها « سامرا » يعرض فيه قضيتهم الازلية على مستوى الاجتماع العام . **ولأول مرة فى تاريخ المسرح المصرى نرانا نجلس باحترام شديد أمام شخصية الفلاح المصرى ملك القطن .**

وترجع أهمية هذه المسرحية الى أنها أول عمل مسرحى يقدم شخصية الفلاح المصرى على حقيقتها دون تزييف . وفى تقديرى انها - على المسرح - أكسبت الفلاح احتراما . فها نحن لا نرى - كما جرت العادة لدى **الريحانى ويوسف وهبى** - نموذجا كاريكاتيريا للفلاح المصرى بالغ السذاجة والتفاهة يصطدم بالقاهرة . فالحق أنه قبل « **ملك القطن** » لم تكن شخصية الفلاح المصرى الا نموذجا للسخرية والاضحاك فقط .. كما لو كان هذا الفلاح لم يخلق - فى نظرهم - الا لبعث الاضحاك فى قلوب هؤلاء الدافعين أغلى القروش ليجلسوا فى هذا المكان ويضحكون ، وليكن الفلاح حيوانا غريب التكوين يتفرجون عليه ويهزءون به . ولعل هذا مما يؤكد قولنا فى مقام سابق من أن هذه الثورة المسرحية التى قيل أنها قامت على يدى الريحانى ووهبى لم تكن فى حقيقة أمرها ثورة مسرحية اجتماعية واعية ، وانما كانت ثورة بورجوازية تساندها جنيهات السادة ذوى القدرة المادية

وتقوم على بقاء هذه الطبقة المترفة بل ان وظيفتها الأساسية كانت امتاع أولئك السادة بأى شكل وعلى أى وضع كان . ولكى تستمر تلك الطبقة فى مؤازرتها لتلك النهضة المسرحية الكاذبة : فلا مانع اذن من أن يعطيهم المسرح بحقوقهم « **فرجة** » تبعث فيهم احساسا بالتفوق عن طريق عرضها لصور الكفاح على صدور الكادحين وضيق الوعى عند الفلاحين ، بهدف التنديد بهم مثلا أو التشهير .. ابتداء من عمدة كفر البلاص الى الرجل المنحوس فى مجالات البحث عن عمل .. الخ .

من هنا كانت مسرحية « ملك القطن » تمثل فترة انتقال ثورية حقيقية فى مجال الموضوع المسرحى كالتى تحققت بالنسبة للناس اللى تحت . حقا ان هاتين المسرحيتين تمثلان بداية ثورة فكرية اجتماعية على المسرح المصرى . فالى جانب « **المضمون الاجتماعى** » والفكرى الذى يصعد الى خشبة المسرح لأول مرة .. نرى أن المسرح كنمط فنى يتخذ شكله الأصيل ، والأكثر من ذلك ينتمى الى مدارس معينة . و « **ملك القطن** » تقدم الينا - كما قدمنا - الشخصية الأصيلة للفلاح المصرى الصميم ، ونعنى بها شخصية « **قمحاوى** » المرسومة بدقة وعناية .. وتقدم الينا كذلك قضيته الأزلية ضد الاقطاع . وهذه المسرحية ليست الا امتدادا لما بدأه **يوسف** ادريس فى قصصه مع أبطاله ، والفلاحين منهم على وجه أخص . ونستطيع ببساطة شديدة ان نضع أيدينا على وجهة نظر معينة للكاتب يتناول قضاياه الفنية من خلالها . واذا دققنا النظر استطعنا أن ندرك أن وجهة النظر هذه تشكل فى حد ذاتها فلسفة خاصة بالكاتب تجاه قضية الملكية الفردية وعلاقاتها بالأفراد . وكثيرا ما نرى أبطاله تسيطر عليهم الرغبة فى الاستحواذ ، أو السيطرة ، أو حب السلطة .

● **قانون الحياة قانون الملكية :**

و « **سنباطى** » فى ملك القطن يملك الأرض ، **وقمحاوى** يزرعها ، ولا يملك الا المجهود الذى يسفحه من عمره فى فى سبيل محصول يستحوذ عليه سنباطى فى نهاية كل عام . وربما تكون هذه المسرحية عملا تقليديا يتناول كذلك موضوعا تقليديا هو اعطاء صورة حية لنهم الاقطاع واستبداده بصغار المزارعين . ولكن هذا لا يلغى أن بالمسرحية ملامح **القضية التى تشغل تفكير المؤلف وهى كيف أن الانسان يبرر لنفسه سلب ملكيات الآخرين .** و « سنباطى » فى كل عام يزيف حسابا يعود بالخسران على قمحاوى ويحرمه ثمرة مجهوده ، وهو فى ذلك انما يخدع نفسه بأنه يحصل على حقه وأن قمحاوى هذا لا يستحق أكثر من هذه القروش القليلة التى ستبقى فى النهاية بعد الحساب . بل ان « قمحاوى » لا يثير فيه

أية عاطفة ، والشيء الوحيد المهم فى نظر « سنباطى » هو أن يهيىء لنفسه ولأولاده كل أمنياتهم ، وهم فى نظره دائما أبدا محتاجون لكذا وكيت ـ دون تقدير أو نظر لنفس الأمنية التى دفعت قمحاوى الى المثابرة فى رى الارض وخدمتها من أجل محصول طيب والتى دفعت « سنباطى » الى سلب هذه الأمنية .

وفى تقديرى أن ثمة علاقة فكرية وثيقة بين المؤلف وبين موضوع « **الملكية الفردية** » التى بسببها يتقاتل البشر . وهذه العلاقة تؤرقه ، وتجعله يتصور عالما تسوده الطمأنينة وتتلاشى فيه الرغبات الدنيا بكل حقاراتها وشرورها . وهو يرى أن للأمانة سلطانا كبيرا يمكن ان تتحقق عن طريق المدنية الفاضلة . **وفكرة الأمانة فى حد ذاتها تتصل اتصالا وجدانيا بشعبنا ، وله فى الدعوة اليها باع طويل ، وفى فولكلوره عديد من التفانين الشعبية مغزاها الدعوة الى الأمانة والحض عليها . والمؤلف يضع يده على هذا الجانب الهام من الفولكلور المصرى ، ثم يتخذ منه معبرا الى عالم فنى ممتاز .** فى هذا العالم يقدم الينا حلمه بالمدنية الفاضلة ، على لسان الصول « **فرحات** » فى مسرحيته القصيرة « **جمهورية فرحات** » التى رغم قصرها تعتبر من أمتع ما ظهر على خشبة المسرح المصرى آنذاك وان كانت بها بعض البصمات الريحانية المتمثلة فى أسلوب الانماط الشخصية أو ان شئنا قلنا الأقنعة التى يتستر خلف كل قناع منها شخصية تمثل نمطا كاملا من الناس . على أننا نرى شخصية انسانية متفردة قريبة الى نفوسنا هى شخصية الصول فرحات الذى يحلم بالمدنية الفاضلة عن طريق الأمانة التى هى بدورها كنز لا يفنى . الأمانة هى الأساس الأخلاقى الوحيد الذى يبنى عليه الصول فرحات جمهوريته ، فهى لو توفرت بين الناس لانعدمت من الحياة أغلب الشرور . وهى فى حد ذاتها كنز يغنيك عن أى «**ملكية**» مادية أخرى ، اذ أنك ما دمت « **تملك** » الامانة فى داخلك فانت بالضرورة انسان غنى ، وما دمت غنيا فلن تسول لك نفسك الدخول فى حروب وحشية طاحنة مع بنى عشيرتك .

ولأن ذلك الرجل العاطل بطل حلم فرحات « **يملك** » الأمانة ، لذا فهو قد امتلك تبعا لذلك كنزا لا يفنى . والكنز هنا على مستويين ، **معنوى ومادى** . أما المعنوى فهو الثراء الانسانى العاطفى الذى يتمتع به ذلك العاطل رغم أنه عاطل . وأما المادى فهو ذلك الفص الماس البالغ ثمنه « باليت » ثمانون ألف جنيه ، والذى ضاع من سائح هندى . ويتغلب الثراء المعنوى فى داخله على رغبته فى الثراء المادى ، فتغنيه أمانته عن الطمع فى حقوق الآخرين ، وبالتالى فهو لا يفكر فى « سلب » ملكية السائح الهندى وانما يسعى اليه يردها له . وتشاء روعة الفكر الفولكلورى وطرافته فى وجدان فرحات أن يزدهر الثراء المعنوى ويؤتى ثماره فيضا ماديا حلالا . فالسائح لما رد اليه فصه الماسى أراد أن يكافىء العاطل بحفنة من ذهب . ولكن العاطل غنى ، وليس ذا نفس خربة تعربد فى داخلها الرغبة فى الاستحواذ ، ولذلك فهو يأبى قبول حفنة الذهب لانه أغنى من أن يقبل للأمانة ثمنا . وتكون هذه اللفتة الكريمة من دواعى تعميق الصلة الانسانية بين الرجل العاطل وبين السائح الهندى ، فيشترى هذا الاخر ورقة يانصيب يجعلها من نصيب العاطل المصرى . وبطبيعة الحال تكسب هذه الورقة مليون جنيه قيمة « البريمو » ، فماذا فعل بها هذا الأمين الذى أفرخت معنوياته خيرا وفيرا ؟ . انه لا يقع فريسة لزهو الملكية الفردية أو لسلطتها ، فهو كما تعرف غنى . بل ان الشعور الفردى لديه يتلاشى تماما ويصبح هو نفسه ذائبا فى الجماعة . فنراه يستغل هذه الثروة الطائلة فى التجارة ، ومن هنا ينطلق راس المال المادى بمصاحبة رأس المال المعنوى جنبا الى جنب فينتجان أبهر النتائج ، اذ تبلغ ثروة الرجل المادية حدا لا تقاس به ثروة قارون .. فيظهر البحار ويملؤها بالاعلام الخضراء والسفن الحبلى بالنعيم ، ويبعث فى الصحراء عمرانا وحضارة وانتاجا ، ويعتنى بالقوة البشرية وبالايدى العاملة فيهىء لها حياة حافلة ، ويجعل مصر أغنى بلاد العالم قاطبة بمزارعها النموذجية وخدماتها الجليلة وحالة عمالها الرائعة . وبعد احرازه كل هذه الأمجاد العظيمة .. يتنازل عن كل أمواله وممتلكاته للناس .. للشعب .

وحلم الصول فرحات تقابله الرغبة فى تحقيق نفس الحلم عن طريق العمل والكفاح من أجل التحرر السياسى ومن أجل غد أخضر ، متمثلة فى شخصية « **محمد أفندى** » الشاب السياسى المعتقل الذى يحكى له الصول فرحات حلمه . الحلم هنا تقابله الرغبة الفعلية الايجابية فى العمل على تحقيقه . ولكن ثمة حاجز بين الحلم والعمل يفصل بينهما ويمنعهما من الاندماج والتفاعل ومن ثم تحقيق الحلم عن طريق العمل والكفاح المدفوعين برغبة صادقة . وحلم فرحات هذا يعتبر طبيعيا بالنسبة للمناخ الذى نبت فيه وترعرعت صوره . فالصول فرحات فى قسم البوليس يعتبر مصبا لافرازات الحياة ، أو بمعنى أكثر دقة هو عين الكاميرا التى من خلالها تتجسم كل يوم صور شتى لشقاوات الحياة ومشاكلها الازلية .. وكلها لا تتعدى التشرد والدعارة والسرقة والخناقات ، الخ هذه الصور التى تجمعها جميعا وحدة سببية واحدة خلقتها « **مشكلة** » الحياة . وحتى هذا الشاب السياسى المعتقل لم يجمعه بهؤلاء وأولئك الا النضال فى سبيل انبساط الحياة . وكم لهذه الحياة الشقية فى الواقع من صفحات ومذكرات تنتهى ، يتصفحها ويحررها الصول فرحات ويتشرب معها عذابات الحياة ، فيحلم بمدنية فاضلة .

وقانون الحياة الذى يسود عالم **يوسف ادريس** المسرحى ، هو قانون الملكية الفردية ، قانون الرغبة فى الاستحواذ والسيطرة وحب السلطة . وهو قانون شخصى



مخض يقوم الفرد نفسه بوضع مواده بما يتفق ورغباته ثم يطالب الآخرين بالتزامه . وقانون الحاج نصار فى مسرحية « **اللحظة الحرجة** » قانون غريب ودو منطق أغرب . انه مبنى على نفس الرغبة فى السيطرة وحب الامتلاك التى تدفع بدورها الى الخوف من ضياع ما فى حوزته . ولهذه الرغبة فى الاستحواذ وجه آخر يمثله « **سعد** » وهى بدورها تدفع به الى الخوف من الخوف أثناء عملية تحقيق هذه الرغبة عمليا حينما تجابهه اللحظة الحرجة .

● الملكية بين الخاص والعام :

واذا كان الخوف هو موضوع « **اللحظة الحرجة** » البارز ، فلعل الموضوع الاساسى لها هو ما خلف هذا الخوف ، الذى يعتبر فى حد ذاته موضوعا دراميا من الطراز الأول . وأسرة الحاج نصار اسرة من الطبقة المتوسطة الكادحة التى شقيت فى صنع حياتها . ولانها شقيت كل هذا الشقاء من أجل النتيجة التى وصلت اليها ، لذا فان نزعة الملكية الفردية تسيطر عليها ، متمثلة بصورة فاقعة فى الحاج نصار . وهذه النزعة تبلور معنى أعمق من معناها السطحى بكثير ، حيث تمتد الى ما بعد حدود « الامتلاك » الفردى ، سواء كان ماديا أو معنويا ـ اذ تقوم حينئذ **قضية من أهم القضايا الانسانية هى قضية : أن تكون الملكية الخاصة جزءا لا يتجزأ من الملكية العامة وكيف أن كلتيهما مرتبطة بالأخرى ارتباطا وثيقا لا ينفصم** . فانت قد تتمتع بحيازة ثروة ما ويكون لك الحق فى التصرف فيها تصرف ذوى الأملاك فى أملاكهم وذوى الحقوق فى حقوقهم .. ولكنك فى لحظة معينة تفاجأ بأن ثروتك هذه قد خرجت عن حدودك الخاصة ولم تعد ملكا لك وحدك بل هى ملك للآخرين أيضا . وهذه لا شك « **لحظة حرجة** » اذ هى توقع الانسان فى صراع مرير بينه وبين منطقه الذاتى الخاص الذى كونه خلال سنوات شقائه فى تكوين ثروته تلك والذى أصبح من خلاله يرى حقائق الحياة والأشياء وكذلك علاقاته بالآخرين وعلاقات الآخرين به . هى لحظة حرجة حقا وذات أهمية اجتماعية كبرى .. ذلك انها لحظة تقرير مصير على المستويين ، **الفردى والجماعى** : تقرير مصيرك كفرد هو فى ذات اللحظة تقرير مصير الجماعة داخل حدود الوطن ، كما أن تقرير مصير الوطن هو بلا شك تقرير لمصيرك كفرد . وهذا المصير المزدوج يتوقف تقريره فى المقام الأول على مدى ما وفق اليه الفرد ـ فيما بينه وبين ذاته ـ من تقرير لمصير نفسه أولا مرتبطا فى ذلك بالمصير العام بل ومن خلاله . الا أن الفرد قد ينفصل عن الجماعة انفصالا وجدانيا شاسعا حتى ليتصور ، شيئا فشيئا ، أن تقرير مصيره يعنى هذا الابتعاد تماما عن العالم الخارجى له ، والانسلاخ من كل ما يربط مصيره بمصير الآخرين .

ولعل العامل المباشر خلف مثل هذه الحالة يكون بتدخل نزعة الملكية الفردية المتأصلة فى بعض النفوس والتى تبعث فيهم روح الحرص والاحتضان والتكتم على قيمة مادية ما ـ ولو تافهة ـ منحتها لهم الحياة أو قل ابتزها الواحد منهم بشق النفس من الحياة . ان نزعة الملكية الفردية ما هى الا رغبة جامحة فى تحصين الذات والاطمئنان على سير الحياة فى سلام على مدى عمر الواحد منهم حتى بعد موته . الأمر الذى يجعل من هم فى مثل هذا الموقف يغلقون الأبواب بينهم وبين اى خطر وان كانوا يعرفون سلفا أن أبوابهم هذه غير مستطيعة أن تدرأ عنهم الخطر ـ غير

انها رغبة فى التماس شعور بالأمان . وتكون النتيجة بطبيعة الحال أن انفصالهم عن المجموع لا يحميهم بل يدمرهم مقتحما عليهم حصونهم . فما دام الخطر جاثما بالباب ، فلابد — ان لم تنهض وتحم نفسك على الاقل — وان ينقض عليك فى الحال . وهنا سرعان ما يدرك الفرد المنفرد أنه فى مثل هذه اللحظة الحرجة لابد وأن تنعدم فيه الروح الفردية تماما ، وأنه كان « يجب » عليه أن يفتح الباب على نفسه ، لا لكى يقتحمه الخطر ، وانما ليخرج من داخل نفسه ، من داخل فرديته ، من داخل ملكيته الفردية التى تتحول عادة الى ملكية الافراد انفسهم لانفسهم .. بمعنى أن تصبح ملكيتى الفردية هى ملكيتى لنفسى وحسب ، أنا ثروة نفسى التى أحرص عليها وأتكتم مكاسبها ونموها واحتضنها وأدرأ عنها الخطر بتحاشى له وتحدى اياه — مع أننى لو فعلت العكس فلا شك سأجد فى المجموع شحنة معنوية جبارة سرعان ما يتصل بى سلكها وأذوب فى المجموع .

والحاج نصار لم يفطن الى هذه الحقيقة الا بعد أن جابه الموت وجها لوجه . ومع ذلك ظل الى آخر لحظة من انقضاض الموت عليه ، غير مقتنع بأن الخطر يمكن أن يهاجمه هكذا « من الباب للطاق » — فقانون الملكية الفردية الذى هو بالتالى قانون الخوف عليها ، يصور له أن اتقاء العدوان حكمة تبقى على الثروة ، والخوف من ضياع الثروة خوف من ملاقاة العدو ، فما بالك بالسعى اليه . ولقد كان يستغرب غاية الاستغراب كيف أن هذا الجندى الذى وقف ليسلب روحه ، ينفعل هكذا ويثور هذه الثورة مع أن أحدا لم يتحرش به ! . ورغم ذلك يندمج فى الصلاة كأنه يحتمى بها أو كأنه يسعى لملاقاة السماء هربا من شرور الأرض ومن ملاقاته لنفسه — منتهى الطمأنينة واللامبالاة . ولكم كان مريرا ومثيرا للاشفاق والسخرية أن يرتبط الركوع لله فى تلك اللحظة بالركوع للموت فى آن معا . والحق أن الحاج نصار بتماريه فى حماية نفسه انما كان فى حقيقة الأمر يفسح الطريق للموت يجىء اليه فى عقر نفسه . كان يحمى نفسه بطريق عكسى ، ليس بالتقدم الى الامام بل بالتوارى الى الخلف ، الى داخل النفس أكثر وأكثر ، ثم اغلاق الباب عليها . وهو اذ يقفل الباب على نفسه يتركه فى ذات الوقت مفتوحا الى نفسه ، الى مصيره المحتوم . ولم يكن يدرى هذا بالطبع ، انما كان كل ما يدريه لحظتها أنه استراح .. ظنا منه أنه حجب ثروته عن الخطر . وثروته الحقيقية ليست ورشة النجارة التى كونها بعرق الجبين وتجرع فى سبيلها غصص الجوع والتى ينوب عنه الآن فى حمل أعبائها ابنه « **مسعد** » الطيب الفطرى النفس الذى تعود أن يبذل فقط وأن يعيش حياته باذلا . أقول ان ثروته الحقيقية هى ابنه « **مسعد** » الطالب بكلية الهندسة ، التى ينميها الآن ويصرف عليها فى المدارس كيما تصبح عما قريب شيئا كبيرا يحتمون فى ظلها . و « مسعد » يدير الورشة ، والورشة تصرف على الدار وعلى « سعد » .. يعنى أن « مسعد » و « سعد » هما طرفى الدفة التى تسير سفينة الحياة بالحاج نصار وعائلته نحو مستقبل تحوطه الطمأنينة . هذه هى كل ثروة الحاج نصار التى آب اليها شقاؤه طوال الأعوام الماضية ، والتى يأمل أن تكون سندا « له » و « للعائلة » .. فكيف اذن يعرضها للخطر أو حتى يتركها تفارق بصره طالما المعركة دائرة فى قلب المدينة . صحيح أن هناك مثلهم يموتون وآخرون مهددون بالموت فى كل لحظة ومن بينهم نصار وعائلته ، ولكن ما ذنب الحاج نصار حتى يضحى بثروته فى سبيل « غيره » ؟! أما « غيره » هؤلاء فلهم رب يحميهم ويشفق بحالهم . وأما هو فعليه أن يحمى ثروته الخاصة ، يحمى فرديته : ملكية نفسه لنفسه .

ومع أن ابنه « سعد » فى لحظة تقمصه للروح البطولية الزائفة يحاول أن يقنعه — ويقنع نفسه فى ذات الوقت — أن الآخرين ليسوا غرباء عنهم بل انهم هم كعائلة



منفردة لا قيمة لهم بدون الآخرين الذين أعطوه الفرصة للوجود حيث أن وجوده قائم على وجودهم كما أنه لولا وجودهم لما اكل ولا شرب ولما وجد من يعلمه الصنعة وهو صغير ثم يتعاون معه وهو كبير ثم يتعامل معه حين افتتح الورشة فضــلا عن أن أولئك الآخرين يعلمون ابنه فى المدارس ويوظفونه ليتولى هــو الآخــر تعليم أبنــائهم وهكذا .. الا أن الحاج نصار رغم ذلك لا يريد الاقتناع بمنطق البذل فى سبيل الآخرين . انه مع الآخرين طالما أن هناك أخذ وعطاء . ان الاحساس بالملكية الفردية هنا يبلغ أوجه ، اذ يصل بالفرد الى أقصى حدود الانعزال والانســلاخ عن المجتمع .. ويصبح الايمان بالنفس أقوى من الايمان بالوطن .

● **ملكية الفرد لنفسه :**

واذا كانت رغبة الانسان فى امتلاك نفسه تؤدى به الى الانسلاخ التــام عن دائرة الجماعة والانعزال بالتالى عن روح المجتمع ، مما يفقد المجتمع تماسكه . فان المجتمع مع ذلك يكون أكثر تماسكا وانجاحا لو وفق كل فرد فيه فى امتلاك مجهوده الشخصى وتوظيفه فى خدمة الجماعة ..

أو بمعنى أدق لو انعدمت الرغبة فى « امتلاك » الغير . وهذه بالطبع مشكلة أزلية لم تفلح النظم الاجتماعية على مختلف مستوياتها فى وضع حل لهــا . والجندى الذى اقتحم على الحاج نصار مأمنه ما هبط عليه فى حقيقة الامر الا مدفوعا برغبة بلده فى الاستحواذ ، لا على الحاج وحــده بل على بلده بأرضها ورجالها ومن ثم استعبادهم والتسيد عليهم . وهى مشكلة يبلورها المؤلف فى مسرحية « الفرافير » ، وها هو « فرفور » يقف فى وسط السامر ليجرب محاولة أن يكون بنى نفسه وأن يعيد النظر فى كل القوانين التى تجعله « ملكا » لغيره من الاسياد . وسامر الليلة يتفاعل مع فرفور ويصبح جزءا لا يتجزأ من القضية ، لان السامر هو القضية والقضــيــة هى هذا السامر المقام فلولاها ما أقيم ولولا أنه اقيم ما نوقشت قضيته .

ونقول نوقشت لانه ليس هنــاك أحداث أو أفعال ، انما هناك حوار حركى كلامى يقلب المسألة على كل وجوهها المختلفة بحثا عن حل لهذه المعضلة الأزلية . والمشكلة كما تعرضها لنا المسرحية أن يظل الفرفور فرفورا والسيد سيدا .. ومعنى هذا أن يظل الفرفور طول عمره ملكا للآخرين . لذلك فان عملية البحث عن حل التى يضطرب بها هذا السامر انما هى فى حقيقة أمرها ــ على نحو من الانحاء ــ عملية محاولة لاسترداد النفس ، محاولة لتسوية وتعــديل القوانين **بحيث الا أكون ملــكا لك والا تكون ملكا لى .. فانا انسان مثلك بالضبط ولا فرق بينى وبينك على الاطلاق** ، فما الحكمة فى أن تكون أنت سيدا ــ اى مالكا لكل شئ بما فى ذلك مجهودى ومستقبلى وحريتى ؟ أو أن تكون فرفورا ــ أى مملوكا لى بمجهودك ومستقبلك وحريتك ؟!

والواقع أن هذا الســؤال ليس هو أهم سؤال ولا أول وآخر سؤال فى هذه القضية . انما هو واحد من جملة الأسئلة المحمومة التى يبعثها الفرفور مطالبا لها بأجوبة شافية فلعله خلال بحثه عن أجوبة لأسئلته هذه يعثر على حل . والحل كما هو واضح : أن يوجد على ظهر الارض نظام مالا يجعلنى فرفورا ولا يجعلك ســيدا ، بل يجعل كلا منا سيد نفســه ــ أى مالكا لمجهوده الشخصى ولنفسه تبعا لذلك . وتتضاءل القوة الميتافيزيقية التى فرضت ذلك النظام الجــائر والتى وضعت كل القوانين ضــد فرفور .. تتضاءل أمام قوة البحث عن الحقيقة المطلقة ، بل وتختفى تماما . لم يعد هناك « **مؤلف** » يلوح بين الحين والحين ليكتم أنفاس الفرفور ويميت الأسئلة فى نفســه . وحينئذ يصبح الانسان فى مواجهة أخيه الانسان ويصبح الاثنان كلاهما فى مواجهــة المشكلة وعليهما أن يتصرفا فيها . ومن هنا تبدأ الرحلة من جديد بهدف الوصول الى حل متعادل بين الاثنين . وخلال هــذه الرحلة الشاقة المضنية تتكشف كل الالاعيب غير الانسانية التى خلقها الاستعمار وفرضهــا الاقطاع وتشبث بهــا الأسياد لكى تبقى سيادتهم . ولكن الفرفور يكون قد وصل الى حالة رفض لأى منطق لا يضع فى اعتباره أن الفرفور انسان كالســيد سواء بسواء . وعلى هذا يتمرد على أى نظام يلغى حريتــه وســيادته لنفســه . وبتمــرد فرفــور تتوقــف الحيــاة ، فهــو احــدى قوتين متعادلتين فى الكفاءة ، قوة العمل التى يمثلها ، وقوة الادارة التى يمثلها الســيد ، ولا قيمة لاحــدى القوتين بدون الأخرى . وقد يحيى الســـيد كبرياءه فيتمرد هو الآخر اذ يتمرد الفرفور .. وهنــا تتوقف الحياة تماما .

ولكن الحياة لايمكن أن تتوقف ، وبالتالى لابد من العثور على حل . وباسم الأطفال الصغار تتدخل أسرة كل من الســيد والفرفور لاستئناف العمل من جديد . ولعل نوع العمل الذى يقومان به والذى هو من ابتداع السيد ــ مهنة دفن الموتى من البشر ، يومىء الى أن مبدأ السيادة دائما هو امتصاص الدماء . ودفن البشر معناه قتلهم فى سبيل مصلحة شخصية . والســيد أنجب

أولادا كثيرة اشتغلوا كلهم بدفن البشر فجمعوا من ورائه ثروة طائلة ، وهم يبدأون من الاسكندر وتحتمس حتى نابليون وموسوليني وهتلر - أى أن السيد هو الأصل أو الجذر لكل قواد الحرب الذين يهبطون على البلاد الآمنة ليسفكوا دماءها ويمتصون خيراتها . ولما يبدأ الفرفور والسيد العمل من جديد يكون دستورهما التصالح الطبقى وسيادة كل منهما لنفسه . على أنه بينما يعمل الفرفور باخلاص وجد فى حفر القبور ، نرى السيد لا يعمل بنفس ورغم ذلك يستمر الفرفور فى العمل الى أن يجيئهما ميت يطاب قبرا له ويطلب كذلك أحدهما فقط ليتفاهم معه ، ولكنهما يتقدمان سويا بهدف التفاهم فتكون النتيجة أن يثبت لهما الميت فشل هذا النظام الذى تنقصه السلطة ، ويبدأن فى اقتراحات جديدة لحلول جديدة ولكنهما يفشلان فى الوصول الى حل - للانسان حريته عن طريق سيطرته على نفسه .

● **الملكية بين السلب والاسترداد :**

ولقد تطور مسرح يوسف ادريس فيما بعد الى ما يشبه الصراع بين فكرتين متناقضتين هى فكرة سلب الملكية وفكرة استرداد هذه الملكية . ولعلهما فكرتان مترابطتان متداخلتان . فسلب الملكية يعتبر من أحد وجوهه استرداد للملكية ، وكذلك استرداد الملكية سلب للملكية على الوجه الاخر . وفكرة الملكية عند يوسف ادريس ترتبط بهذا التدفق الحيوى المجنون الذى تضطرم به الحياة فى عصرنا . وما نسميه الآن بالتقدم ان هو الا اندحار للرابطة الانسانية بين البشر ، خراب للضمائر والذمم ، ذبول للوجدانات ، هجر للأرواح عن مهودها وبيوتها . ذلك أنه ليس تقدما حقيقيا صادقا ولكنه بريق زائف خادع للبصر ، ليس فى خدمة الانسان بل ضد انسانيته فى حقيقة الأمر ، فلقد رسم **للانسان العصرى صورة للجنة على الأرض فيها ما لذ وطاب من ثلاجات وبوتاجازات و .. و .. الخ هذه المنجزات الحضارية ، ثم تركه يتطاحن ويتصارع بوحشية فظيعة فى سبيل تحقيقها ومن أجل الاستمتاع بها . والمباراة على أشدها بين البشر ، والاحترام كل الاحترام لمن « يملك »** .. ومن « يملك » يعيش حياته طولا وعرضا . وكل الناس تهوى أن تعيش حياتها كذلك طولا وعرضا . ولكى يتحقق لهم ذلك لابد وأن « يملكوا » ، ولابد أن تكون ملكياتهم قيما مادية على اى وجه من الوجوه ، وفى هذه الحالة سريعا ما تتحول القيم المعنوية الى قيم مادية ، وحتى اذا بقيت ثمة قيم معنوية فانما لكى تستغل استغلالا ماديا صرفا - السيادة للمادة .. وللملكية .

ويصبح قانون الروح تبعا لذلك قانونا باليا لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولا يسد فم أطفال صغار ولا يفى بحاجاتهم ، ولا يجعلنى - كواحد يعيش فى اطار مادى بحت - أمشى مرفوع الراس ممتلىء البطن مستريح البال مسدد كل مطالبى ومطالب أولادى ، كما انه لا ينقذنى اذا وقعت فى ضائقة ولا يحمينى اذا قصرت فى واجب ولا يرفع من سعرى فى سوق الحياة اليومية وفى زحمة الشارع الممتلىء بالآلاف مثلى من الذين تقدر قيمتهم وأسعارهم بقدر ما فى جيوبهم من اموال . ليس هذا فحسب بل ان قانون الروح هذا يظل باقيا لا للاستفادة منه روحيا بل للارتكاز أو الاتكاء عليه وقت الضرورة .. وهى دائما ما تكون احتماء فيه أو تذرعا به للذود عن مصلحة ما هى بالضرورة القصوى مادية . والناس كالنمل ، تعمل ليل نهار وبلا هوادة أو مبالاة وفى ذاتية مفرطة كيما تجمع القوت ليس للغد فحسب بل لعمر طويل بعد موتها يعيشه الأبناء وأبناء الابناء . انانية محضة فى جمع الملكية تجتاح الناس وتلهب ظهورهم وتعميهم عن كل ما هو انسانى .. وكأنها القيامة قامت فألهت الأب عن بنيه وأمه وذويه . انها حقا .. **المهزلة الارضية** . والمسألة أن المهزلة قائمة على قدم وساق حول من « يملك » من لا « يملك » ومن يريد أن « يملك » .. والجميع تجمعهم حقيقة واحدة هى الجنون ، بالحياة أو من الحياة . فها هو « محمد الأول » يصطحب أخاه الأصغر « محمد الثالث » الى مكتب الصحة ليعمل على ادخاله مستشفى المجاذيب كيما يستولى على نصيبه فى الميراث . والميراث وان كان فى حد ذاته عشرة أفدنة الا أنه صورة مصغرة للثروة التى خلفها لهم أبوهم « محمد الطيب قارون » . والحق أن أباهم لم يخلف لهم ميراثا ينتفعون به وانما خلف لهم لعنة كبرى يقتتلون عليها هى لعنة جدهم قارون الذى كان مغرما بجمع المال لحب المال فقط وبدافع من الرغبة فى الاستحواذ والتملك . وقد ورث الأبناء الثروة ولعنتها وبات لها فى نفوسهم ما يبررها .. الأولاد ومستقبلهم . ومع أنهم يدركون أن هذا المنطق - من خلال تجربة أبيهم - يلغى معنى الأبوة الحقيقى اذ يحوله من علاقة حب وحنان الى علاقة مالك بملكيته ، الا أن المهزلة تستمر ..

فالكل يبحث عن سلطة ما ، قد تكون عن طريق المال كما فى أعماق محمد الأول ، وقد تكون عن طريق الابقاء على مركز كما فى أعماق « محمد الثانى » . ومن هنا يتضح للطبيب « المعالج » مدى استحالة أن تتوائم العدالة مع الرغبة فى « التملك » ، فهو نفسه كآدمى له ما لهم من أطماع وطموح ومشاكل وأبناء وزوجة ، كان يبحث عن مدى امكانية جمع الثروة ، أو بمعنى أدق مدى حماية الانسان ومستقبل أولاده ، مع الاحتفاظ بالعدالة فى ذات الوقت . لذلك فهو يرفض التعامل بمنطق هذه **المهزلة الأرضية** ويضع نهايتها بالنسبة له ، بأن يطلب قميص الكتاف ثم يرتديه كأنه ينزع عن نفسه تهمة العقل الذى فرضت عليه الحياة جنونها .

خيرى شلبى

الحرية والثورة

في شعر محمود حسن اسماعيل

عبده بدوي



● **أدخل محمود حسن اسماعيل تركيبة سحرية جديدة فى الشعر العربى حين جرد ـ بشكل حاسم ـ المحسوس ، وجسد المجرد ، وربط بين الأشياء الأدنى ملابسة ، وفى الوقت نفسه قام بعملية حرق وتطهير للغة .**

● **وليس معنى هذا أنه مهتم بالفن أكثر من اهتمامه بالحياة ، ولكن معناه الى جانب ذلك أنه مهموم بحرية الانسان ، وتخليصه من كافة الأبعاد الخاصة بالرق .**

● **ان الشكل المتوارث ـ اذا وجد الشاعر الضخم ـ يستطيع أن يستبطن مشاكل الانسان المعاصر ، ويبرز الظواهر المتداخلة داخل عوالم التجسدات ، وأخيرا يستطيع أن يجمع من حوله الانتباه واليقظة ، والدهشة .**

حين يذكر الشاعر **محمود حسن اسماعيل** .. لابد ان تذكر تلك الرعشة التى أدخلها على الشعر العربى ، فاذا كان الشعر من فترة كبيرة فى العالم العربى قد تحول الى مغامرات فى عالم الصياغة ، والى تقاليد الكلمة العربية الشديدة الوضوح ..

فان محمود حسن اسماعيل أدخل « تركيبة سحرية جديدة » فى الشعر العربى ، حين جرد ـ بشكل حاسم ـ المحسوس ، وجسد المجرد ، وربط بين الأشياء لأدنى ملابسة ، وفى الوقت نفسه قام بعملية حرق وتطهير للغة .

صحيح أن كل هذا ليس جديدا تماما على الشعر العربى ، ولكن مغامرة الشاعر فى هذا الجانب من غير افتعال ولا ترصد ، ونجاحه فى طرح الموج الشعرى الداخلى فيما يشبه عالم الرؤيا ، جعل محمود حسن اسماعيل ظاهرة شعرية فريدة فى الشعر العربى . وجعله جديرا بأن يقول القارىء العربى : استيقظ فانى أرتب الكلمات والعالم بصورة جديدة .

صورة جديدة للعالم

واذا كان من المشكلات التى تواجه الشعراء اليوم مشكلة حل **التناقض بين الشكل المتوارث وبين الخيال الجامح ، وبعبارة أخرى مشكلة التضاد بين الطاقة الشعرية وبين اللغة ..** فان محمود حسن اسماعيل قد وفق بين طاقته الشعرية الجياشة ، وبين الشكل المتوارث .. وفق فى أن يركز لا فى أن يسترجع ، وفى أن يقدم دائما شيئا غريبا على قارئه .

ولما كانت هذه الطاقة جبارة الى حد التوحش ، وعميقة الى ما لا قرار ، وضاربة فى ادغال النفس البشرية بصفة عامة ، فانا نرى صاحبها يفجر الكلمة العربية ، ويسلط عليها شعاعا محموما ، وطاقة فوق ما كانت تحتمله فى الماضى من طاقات .

ولعل هذا وراء **عملية التكثيف فى تجربته الشعرية** ، ووراء الايقاع المتجاوب مع دفق الشحنة النفسية المزلزلة ، ووراءها هذه المبالغة فى الصور التى تجعلها دائما على ما كان ينبغى لها أن تتحمل ، ذلك لأن وراءها الطاقة التى لا يتحملها اللفظ ، ومن هنا تهوم وتشعشع ، وتحدث حولها مجالا كهربيا يصعق القارىء الهزيل فى بعض الأحيان ، ووراءها كذلك الاحساس الحاد **بمشكلات العصر** ، وحين تجتمع هذه العناصر الحيوية فى الشعر ، فان الشاعر يمتلك ما يسمى بلحظة المفاجأة القريبة من الهام النبوة ، بل ومن الجنون .. وفى ضوء هذا يقدم الشاعر دائما ما يبهر ويدهش ، ويزلزل العالم فى ذهن الملتقى ، مما يضطره الى أن يحاول امساك شىء ليتأكد من أن العالم لم يضع من حوله ، ولكن الشاعر لا يتركه ، وانما يتعقبه بعالمه الخاص ، وبطريقة ترتيبه الجديدة للأشياء ، وباحداث نوع من العلاقات والايقاعات التى لم تظهر من قبل هذه الأشياء .

الفن والحياة وحرية الانسان

محمود حسن اسماعيل .. يملك بالنسبة للمتلقى هذه الرؤيا المفاجئة ، وهذا العنف البلاغى ، ذلك لأنه يعرف كيف يستبطن نفسه ، ويعرف كيف يجهز على الوجود الخارجى للمرئيات بما يشبه الكابوس السريالى ، وبعالم متضخم بالرموز الدينية من كافة الموروثات الروحية فى



المنطقة وبخاصة الاسلام ، **وبارتكاز ذكى على التراث** ، واخيرا بنظرة متوترة للعالم ، وليس معنى هذا أنه مهتم بالفن أكثر من اهتمامه بالحياة ، ولكن معناه الى جانب ذلك **أنه مهموم بحرية الانسان** ، وتخليصه من كافة الأبعاد الخاصة بالرق ، وان كان يصل فى هذا المدى الى نوع من التجريد لا تتحمله هذه القضية الحيوية .

.. والشاعر ينفذ الى هذا بروح متناقض مع الجسد ، وبعالم يمكن أن يقال عنه انه غارق فى الضياء المقدس ، ومن يعرف سر النور فى شعر محمود حسن اسماعيل يضع يده على قدس اقداسه ، ويظهر أمامه الشاعر نقيا الى حد الاشعاع ، فاذا ضل هذا الطريق فان محمود حسن اسماعيل سيكون الطرف المضاء للنور تماما .

وحين نتحدث عن النور عند محمود حسن اسماعيل لابد أن يفد الى الذهن ما قاله « **الكسندر اليوت** » من أن احساس الفنان بالنور هو فى الصلب من ابداعه ، وان أى تحول أسلوبى عام فى تصوير الضوء لابد أن يعكس تحولا فى الحضارة كلها ..

والآن ماذا يعنى **النور** عند الشاعر ؟

ان قراءة لدواوينه لابد أن توضح لنا قصة الشاعر مع النور ، بحيث تظهره لنا فى آخر أعماله « البطل الحقيقى » فى كل شعره ..

فالله عنده هو النور « **الهى وأنت النور ..** »

والنبى عنده نور على نحو ما نرى فى قصيدة « **النور المهاجر** » .

والدين عنده هو الضياء « **ودينى الضياء الذى تنشرين** » .

ثم ان النور عنده هو زاد الرحلة ، وحركة السير ، والهدف الأخير الذى لا يخرج عن كونه الامتزاج فى النور ، فالنور عنده الوسيلة والغاية :

* زادك النور
وفى دربك ينبوع الشعاع
فانفذى .. فالسر ان سرت على قيد ذراع

* قاب قوسين من النور .. فسيرى
واهتكى كل لثام فى الضمير
وانهبى غيب المدى ، واحترقى
فى اللظى الباقى على نار ونور
مزقى كل قناع ، وانفذى
من حواشيه الى الضوء الأسير
وادحرى كل ظلام راسب
انشبته فيك أغلال الدهور

ثم انه لا ينبغى أن نتواءم مع من يسىء الى النور ، والا خنا أنفسنا :

فشربت الكأس من كف الى النور سيئة

ولا ينبغى أن نجعله جمودا لأنه حركة واندفاع ..

* من يقف بالنور يجرع من أياديه أفوله

ثم انه سر بناء الحياة ، والأمل الوحيد للمعرفة ، وهو كما قلنا غاية ليس بعدها غاية :

* ليس فيه قابع فى ذاته يعبد ذاته
لا يحب النور الا من سقى النور حياته

تجربة النور فى العمل الفنى

ثم ان النور يدخل ــ بعد ذلك ــ فى نسيج العمل الفنى ، سواء أكانت المادة هى النور أم الفجر أم الشمس أم الصفاء أم البراءة ، ومن هنا نرى عنده « موازيكو » من قطع صغيرة لا تنتهى من النور .. فهناك طريق الشمس ، وصلاة الشمس ، والشمس الكبرى ، وازدحام النور ، والزحف بالنور ، والشعاع المؤمن ، ويد الضحى ، والأحلام المضاءة ، والضياء الذى

يكبو ، وصخب الوميض ، والضــوء المبحوح والمورق ، والنفس التى تسمع أصـداء النور ، والفجر الذى يغسل بالضياء ما لوثه العصاة ، وسوق الفجر ، والفجر فى الوادى رســول أشعة .

واذا كان النور فى الفترة الأولى من شـعر الشاعر يرتبط بالنار والوهج والتمرد ، بحيث نراه أحيانا ((**شهوة النار**)) أو قاسيا كأشـد ما تكون القسوة .

* الفجر قد داسا
بنوره أشلاء هذا القتام !

فانا نراه فى الفترة الأخيرة فرحة تبدو من خلالها الحياة ، وبقاء يستعصى على الضياع .

* على الأرض نور . وفى الأفق نور
وفى كل قلب شعاع يدور

* فاتنتى سر الهوى سابح
فى نور عينيك .. فلا تسألى

* قالت : لقد غرب الشعاع
فقلت : ما غربت بشاشته وأنت بجانبى
قالت : وكيف ؟
فقلت : انت قصيدة
بيضاء فى قدح المساء الذائب !

انه متعاطف مع تلك النظرة القديمة التى تقول : **ان الأشياء كلها نور مصفى ، وان كل شىء مخلوق يعكس شيئا من الله** على قدر حجمه !

وعلى كل فهو يشبه هنا الرسام ((**فرمير**)) الذى كان يحب النور لذات النور لا لما يمس هذا النور من أشياء ، ولذلك جاءت رسـومه كلها ربانة ، فالنور ليس وسيلة لله ولكنه الله ، والنور ليس اصبعا يشير الى الحب لأنه الحب ، ومن هنا كان النور له عمق ورنين وثقل وحركة .. وهذا ما نجده عند محمود حسن اسماعيل .

وهو من أجل تعميق هذا الجانب يضـع الظلام أمامه ، ويعطى لكل منهما أسلحته ثم ينتهى دائما الى التهليل بانتصار النور ، وهو فى العادة لا يسيطر على الألوان جميعها ، فمادته الحقيقية فى الأبيض والأسود ، وان كان أحيانا يركز على اللون الأصفر باعتباره ممثلا للذبول الانسانى ، وجفاف الحــركة ، وتوقف النبض ، كما أنه لا يلتفت الى اللون الأخضر ــ كقاعدة الشـعراء العرب ــ كما نجد عند **أبى تمام** ، وكما نجد فى الشعر المعاصر ، وعلى نحو ما نرى عند **لوركا** ، ذلك لأن هذا اللون أو هذا الرمز ــ بلغة أدق ــ يعنى البعث ، وتعجل نضارة الحياة ، بل انه قد يعنى به شيئا آخر كريها كما فى قصـيدة الضباب الأخضر التى أهداها الى سقاة الضباب .. **أما محمود حسن اسماعيل فلا يتعجل الشىء لأنه يراه فى زحمة النور رؤية حقيقية أو لأنه يحتفظ فى قلبه بقدر كبير من الحنين الى الماضى !**

أزمة القرية المصرية

ومهما يكن من شىء فى الشعر بدأ رحلته من نقطة ثم انتهى الى أفق لا يمكن حصره فيه ، **فقد عاش أزمة القرية المصرية** ورقها ودخانها ، ثم انتقل الى رق ودخان أكثر كثافة فى المدينة ..

هو رق الانسان المضغوط عليه والمطلوب منه ان يزيف وجوده ، ومع أن هذا الرق كان يمس وترا فى نفسه أول الأمر ، الا انه سرعان ما أحس أن هذا الوتر مشدود فى الانسان .. كله الانسان :

* القيتنى بين شباك العذاب
وقلت لى : غن
وكل ما يشجى حنين الرباب
ضيعته منى
هذا جناحى صارخ لا يجاب
فى ظلمة السجن
ونشوتى صارت بقايا سراب
فى حانة الجن
أواه يا فنى
لو لم أعش كالناس فوق التراب

* وخطا الناس لا تسير ، ولكن
نوحها فى الطريق يهذى صداه
تتلاقى جنائزا .. لم يعد فيها
لوجه الغناء الا رؤاه ..
عشش الرق فى دجاها ، وزنت
عتمة الليل من دواهى أساه
وشكت شيبة السلاسل ، حتى
عشق القيد سخطها واشتهاه !

على أن هذا لا يعنى أن الشاعر متصالح مع الانسان فهو يخافه ، ويتوجس منه ، وهو حين يقوم برحلة فى وجوه الناس ((**وراء الوجــوه المستعارة وهى تزيف حقيقة الانسان**)) ينتهى الى ما يدين هذا الانسان وراء العديد من الأقنعة التى يتستر وراءها .

على أن بين الاحساس برق القــرية ورق المدينة .. عــالم كبير غاص فيه الشاعر الى ركبتيه حيث عالم الساسية الذى كان يختطف البريق اختطافا من كل انسان للاستفادة منه .. ولكن الشىء الذى لا ينسى هو أن محمود حسن

اسماعيل كان أكبر من هذا العالم ، فقد تجاوزه ، ورفع جناحيه الكبيرين عنه ، **ثم سرعان ما أصبح صوتا مستعرضا تهدر فيه معارك العروبة ، وأفراح الاسلام .**

فابتدأ من عام ١٩٤٨ نراه يحتضن قضايا الشعب فيتحدث عن الجلاء الكاذب ، وتجبر الاقطاع ، والحفلات الراقصة باسم البر ، ويتحدث عن معارك الحرية فى القناة والجزائر والمغرب .

ثم يهدر بغناء حار من كل قلبه لثورة ٢٣ يوليو ، ويتابع انتصاراتها .. وان كان لا ينسى دائما قضايا العروبة ، وايام الاسلام .. فما أكثر ، وما أرق ما غنى للرسول عليه السلام ، وما أجمل ما شدا **لاقبال والكواكبى والمعرى** ، وهو لا يفصل بين العروبة والاسلام — فى شعره — وانما يعتبرهما شيئا واحدا .. وجودا واحدا .

تجربة الانسان المعاصر

فاذا تركنا هذا الجانب الذى اخذ الشىء الكثير من عمر الشاعر ، وجدناه شيئا آخر عميقا عنده ، **فالشاعر ينشد حرية الانسان** التى يخيفها كل نوع من انواع الضغط ، والتى يحس أنه محكوم عليه بها .. وهو اذا لم يجدها فى الخارج يجدها فى نفسه .. فهو غاص بنفسه ! وهو شديد المراقبة لهذه النفس ، وهو يعانى من تلك الكآبة التى يسميها ((**كيركجارد**)) كآبة ابراهيم . !

كما يعانى من هذا القلق الذى يهز دائما الأشياء من حوله ، وحتى فى يأسه المتفائل يحس الانسان رائحة الكآبة والضجر ، ولعله أخيرا يذكرنا بقول برنانوس : الانسان حر ومسئول ووحيد فى الليل :

* والرق نار من قديم الزمان
من نفسها تأكل
تحررت نفسى ، وعى اللسان
فجاءها يعول
عبد وحر فى دمى ساكنان
رباه ما أفعل
اهم بالقيد .. فتهوى اليدان
ويضرب المعول
فى كل ما أحمل
فأسحق العود .. وتبقى البنان

* ليتنى كنت رياحا
تهتف الآباء منها
أنا اهواها ولكنى
رغم انفى لم أكنها !

* لا أعرف الهدوء
ولا وقوف الضوء
ونظرتى تنوء
ان مسها عبق
مصفد الأفق
دموعه وضوء
لسجدة القلق .
قلق ! قلق ! قلق !

* من عمق ذاتى وسرى
ومن سراديب صدرى
ومن صلاتى الحزينة
على ضفاف السكينة
ومن تلفت نفسى
لعالم غير حسى
ومن هدير المعاصى
ويأسها فى الخلاص
ومن تمزق قلبى
على خطا كل ذنب
عرفت كل وجودى
سحرا لهذا النشيد !

ان محمود حسن اسماعيل لا يمت هنا بنسب عميق الى سارتر ، بقدر ما يمت الى تلك الوجودية المؤمنة الممثلة فى الوجودى الألمانى الكبير كارل يسبرز ، والوجودى الفرنسى جبرائيل مرسيل .. وليست هذه النظرة جديدة تماما على الشعر العربى ، ولكن محمود حسن اسماعيل يمكن أن يكون الممثل الحقيقى لها فى هذا العصر ..

الشاعر فى تيار عصره

ثم ان تمكن محمود حسن اسماعيل من اللغة العربية ، وقدرته المذهلة على فض أسرارها ، وشعوره بانه مراقب ، وتمكنه من المواءمة بين الرفق والهياج .. بالاضافة الى ادراكه أن الخيال ليس مهربا بقدر ما هو قدرة على الادراك ، وعلى استخلاص النظام من الفوضى .. كل هذا قد فجر ينابيعه ، وأوقفه بعيدا عن الجمود والشلل الذى حاصر كثيرا من جيله ، فهو الوحيد الباقى لجيل الرومانسية ولجيل الرمزية العظيم الذى يستطيع أن يقول شيئا جديدا وثريا فى هذه الأيام .. وهو الوحيد الذى يقف حجة على أن الشكل المتوارث — اذا وجد الشاعر الضخم — يستطيع ان يستبطن مشاكل الانسان المعاصر ، ويبرز الظواهر المتداخلة داخل عوالم التجسدات وأخيرا يستطيع أن يجمع من حوله الانتباه واليقظة ، والدهشة .

عبده بدوى



لقاء كل شهر..

ضمير آسيا وافريقيا.. معنا فى المعركة

فى القاهرة .. طليعة النضال فى منطقتنا العربية . وراعية كل حركة ثورية شعبية فى آسيا وافريقيا . فى القاهرة كان اللقاء .. لقاء الوجوه السمراء التى جاءت تدين العدوان ، وتكشف التواطؤ الثلاثى ضد التقدم والحرية فى العالم كله . فقد كان مبنى الاتحاد الاشتراكى العربى على النيل مكان اجتماع وفود من **سبعين دولة افريقية وآسيوية وخمسين مراقبا من كل أنحاء العالم** . كل هؤلاء اجتمعوا فى اليوم الأول من يوليو الماضى وحتى الثالث منه فى المؤتمر الطارىء الذى دعت اليه سكرتارية منظمة تضامن آسيا وافريقيا . وكان جدول أعمال المؤتمر محددا لأغراضه فى وضوح . فقد تضمن عدة نقاط كان أهمها :

١ ـ كفاح الشعب العربى وعلاقته بكفاح شعوب العالم .

٢ ـ الخطوات الضرورية لمجابهة مؤامرات الاستعمار واسرائيل . ومواجهة كافة الضغوط الاستعمارية ضد الشعوب المتحررة .

٣ ـ تأييد موقف الجمهورية العربية المتحدة النضالى وحقها فى ممارسة سيادتها .

٤ ـ تأييد شعب فلسطين فى كفاحه المشروع من أجل العودة الى أرضه السليبة .

٥ ـ تأييد النضال المسلح فى عدن والجنوب العربى ضد الاستعمار .

٦ ـ تأييد سوريا فى نضالها ضد الامبريالية والصهيونية .

٧ ـ تأييد كفاح الشعب اليمنى ضد كافة ألوان التدخل الاستعمارى .

٨ ـ البترول وفعاليته كسلاح فى معركة الحرية والتقدم .

٩ ـ أحقية الشعوب العربية فى تحقيق أمانيها فى الاشتراكية والوحدة .

١٠ ـ القواعد والأحلاف الاستعمارية ودورها فى العدوان ضد الشعوب العربية .

هذا وقد بدأت الجلسة الافتتاحية بتلاوة رسائل التأييد التى وردت من رؤساء الدول الى المجتمعين . فقد تلقى المؤتمر رسالة من **الرئيس جمال عبد الناصر** جاء فيها **« ان اجتماعكم فى القاهرة هو احدى شعلات الأمل وسط غياهب الظلم والعدوان** . نحن نقف اليوم بعد خوضنا معركة الجزائر ومعارك الاستقلال فى افريقيا لنواجه معركة أخرى من معارك الاستعمار فى عدوانه على الوطن العربى ليسلبه حقه فى الحرية والتقدم . ان العدوان الغادر ليس الا حلقة فى سلسلة معارك طويلة بين الاستعمار وبين الشعوب المناضلة فى القارات الثلاث . واذا كان الاستعمار قد استطاع أن يتواطأ ويتكتل ليوجه الينا ضربة فاننا بتضامننا قادرين على رد ضرباته . **واذا استطاع الاستعمار كسب جولة**



هنا وجولة هناك فان تضامن الشعوب قادر على انزال هزيمة مرة به وكسب النصر فى النهاية » .

كما تلقى المؤتمر رسائل من **الرئيس السوفيتى « بودجورنى »** ورؤساء كوريا الشمالية ومنظمة جبهة التحرير الفيتنامية وموريتانيا وكمبوديا وتشيكوسلوفاكيا ورئيس وزراء الأردن والعراق . ثم تحدث السيد **« أنور السادات »** رئيس وفد الجمهورية العربية فى المؤتمر فرحب بأعضاء الوفود بوصفهم طلائع أفريقيا وآسيا الثائرة . ثم تحدث عن ظروف العدوان الاسرائيلى الاستعمارى وكيف أن اسرائيل خط أمامى للاستعمار والاحتكارات العالمية .

واختتم السيد « أنور السادات » خطابه بقوله **« ان المعركة تحتم على كل الأصدقاء أن يفكروا معا وأن يعملوا معا يدا بيد ، وقلبا مع قلب » .**

ثم تحدث السيد **« يوسف السباعى »** سكرتير عام المنظمة فبين أن المؤتمر يعتبر مواجهة لجريمة شنعاء من أبشع جرائم الاستعمار فى تاريخه الطويل الحافل بالجريمة والعدوان . وأن الاستعمار الأمريكى يقوم بأشد الحروب المحلية ضراوة ضد شعب فيتنام . ثم ذكر تعاقب الانقلابات الرجعية المضادة فى أفريقيا وآسيا واسقاط النظم الثورية فيها ، وكيف أن الامبرياليين يتخذون من اسرائيل أداة للاستعمار الجديد . ثم أهاب فى النهاية **بكل الشعوب الأفرو آسيوية والشعوب المحبة للسلام أن تدين العدوان ونعمل على ازالة آثاره وضرورة تأييد حق الشعب العربى فى فلسطين** . كما تحدث فى اليوم الأول للمؤتمر رؤساء وفود فلسطين وسوريا وفيتنام الشمالية وجبهة تحرير جنوب اليمن المحتل ، وقبرص والكونغو برازافيل وسيلان . وكانت كلماتهم ادانة للعدوان الصهيونى الاستعمارى على الشعوب العربية .

وفى اليوم التالى تحدث رؤساء وفود الاتحاد السوفيتى وتنزانيا ومالى والكونغو كينشاسا وكوريا الشمالية وجنوب غرب أفريقيا والأردن وجنوب أفريقيا . قال رئيس الوفد السوفيتى السيد **« لبشانوف »** : « ان وفد بلاده جاء ليعبر عن ارادة الشعوب السوفيتية ويعلن بشكل قاطع أن المعتدى يجب أن يدان وقواته يجب أن تنسحب الى ما وراء خطوط الهدنة . ثم أضاف **« ان العدوان الأخير كان محاولة أخرى لقوى الامبريالية لقمع حركة التحرر الوطنى بواسطة هجوم استفزازى ضد الدول العربية التى اختارت طريق التحولات الاقتصادية والاجتماعية التقدمية فى صالح الشعب العامل » .**

ثم طالب المندوب السوفيتى فى كلمته بالمزيد من دعم القوى التحررية وتعاونها الوثيق فى النضال . ثم تحدث الدكتور **« لازاريدس »** مندوب قبرص فأكد قيام القواعد العسكرية الاستعمارية بدور فعال فى العدوان . وأن الشعب القبرصى قد قام بدوره فى كشف التواطؤ الاستعمارى مع اسرائيل . وتلاه رئيس وفد الكونغو فقال أن أفريقيا كلها مهددة **« وأن علينا الآن أن نطلق شعار وحدة النضال ضد الصهيونية والاستعمار فى الشرق الأوسط » .**

والقى الدكتور **« سيد نوفل »** كلمة الجامعة العربية فبين كيف أن العالم يمر الآن بأعنف الاختبارات وعلى أساس نتائج هذه الاختبارات يتحدد مفهوم الحرية والسلام فى مواجهة الاستعباد والظلم والعدوان . ثم أعلن **« كيم هى جون »** رئيس وفد كوريا الشمالية تأييد بلاده لكفاح الشعب العربى . وأعقبه رئيس وفد مالى فطالب بادانة اسرائيل وانسحابها غير المشروط من الأراضى التى احتلتها وعودة اللاجئين الفلسطينيين الى أراضيهم . وتحدث السيد **« مبارك أحمد مبارك »** رئيس وفد الساحل الصومالى فبين أن العدوان الأخير على الشعب



العربى يعد تحديا خطيرا لنا نحن أبناء افريقيا وآسيا وأوربا اللاتينية . ثم تحدث رئيس وفد تنزانيا فأشاد بدور القاهرة الطليعى منددا بالعدوان الاستعمارى الآثم .

والقى السيد **«شفيق أرشيدات»** رئيس وفد الأردن فكشف مدى فظاعة الجرائم التى تمارسها اسرائيل والتى فاقت فى أساليبها ما مارسه الفاشيست أيام الحرب العالمية الثانية . وانفضت جلسة المؤتمر الصباحية فى يومه الثانى لتبدأ الجلسة المسائية التى تحدث فيها مندوبو الجزائر ولبنان ومنغوليا وممثل جبهة التحرير الوطنى بالبحرين . وقد كان أبرز ما دار فى الجلسة المسائية مطالبة السيد **« كمال جنبلاط »** رئيس وفد لبنان بأن يكون تأميم النفط العربى الرد الايجابى والفعال على المؤامرة العدوانية الثلاثية الى جانب مقاطعة بضائع الأعداء كما أعلن مندوب الجزائر استعداد بلاده لتقديم كافة التضحيات لتحرير الأجزاء المحتلة . وأن الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية تساعد بتقديم الأسلحة ولكننا نطالبها بزيادة هذه المساعدات الفعالة .

كما أعرب رئيس وفد غينيا عن تأييد بلاده للشعوب العربية وقال ان العدوان الأخير على الشعب العربى جزء من الاستراتيجية الأمريكية فى فيتنام والكونغو . وفى اليوم الثالث والأخير للمؤتمر كانت الجلسة الصباحية وقفا على كلمات رؤساء وفود جزر كومور والسودان وباكستان والمغرب والمانيا الديموقراطية . ثم تحدث السيد **« خالد محيى الدين »** فشرح طبيعة أحداث الشرق الأوسط وكذلك طبيعة اسرائيل وكونها قاعدة عسكرية عدوانية . ثم طالب فى ختام كلمته بنهوض أفريقيا وآسيا بواجباتها وذلك بادانة العدوان بشكل ايجابى والعمل على ازالة آثاره ، وممارسة كافة الضغوط الممكنة لمصلحة قضية الشعب العربى العادلة .

ثم تلاه السيد **«على عبد الرحمن»** عن السودان فبين كيف أن الشعوب النامية والبلدان الاشتراكية تعيش فى حرب حقيقية فى مواجهة أساليب استعمارية تهدد الوجود الانسانى كله . **وأعقبه رئيس وفد باكستان فقال ان أى عدوان على بلد عربى هو عدوان على باكستان** ، وندد بالمعاملة الوحشية التى عاملت بها اسرائيل أسرى الحرب العرب . ثم تحدث السيد **« عبد الله الطريقى »** خبير البترول العربى فتناول أهمية البترول كسلاح فعال وقال ان الاحتكارات البترولية كانت وراء التهديدات بغزو سوريا بعد حصولها على زيادة عائداتها من البترول الذى يمر فى أراضيها . **ثم قال ان ٦٥٪ من بترول أوربا الغربية تحصل عليه من الدول العربية .**

وقد بدأت بعد ذلك كلمات مراقبى المؤتمر فتحدث ممثلو عن مجلس السلام العالمى واتحاد طلاب ج.ع.م ولجان التضامن فى كل من المجر وكوبا ويوجسلافيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا . ثم تحدث عن خطورة العدوان ممثلوا عمان وزيمبابوى والكويت والكامرون . وفى الجلسة المسائية – والختامية – تحدث السيد **« كريشنا مينون »** رئيس وفد الهند فقال **ان الهدف من اقامة اسرائيل كان حماية الامبراطورية البريطانية .** ثم دافع عن أحقية الجمهورية العربية المتحدة فى ممارسة سيادتها على مياهها الاقليمية وفند الحجج القانونية التى ادعتها اسرائيل والقوى الاستعمارية . **ثم شن هجوما عنيفا على الامبريالية الأمريكية .** حتى وقف السيد **« يوسف السباعى »** فالقى البيان الختامى للمؤتمر وقراراته التى جاءت معبرة عن ارادة شعوب العالم المتحرر أصدق تعبير . فقد استعرض البيان أبعاد المؤامرة الاسرائيلية الاستعمارية وكشف حقيقة الدور الذى تؤديه اسرائيل كعميل للاستعمار واداة له . ثم قرر البيان ما يلى :

١ – تايد جميع القرارات الخاصة بفلسطين فى مؤتمرات التضامن السابقة .

٢ – ادانة العدوان الاستعمارى الاسرائيلى .

٣ – العمل بمختلف السبل والوسائل على ازالة آثار العدوان .

٤ – مطالبة الشعوب الآفرو آسيوية بحث حكوماتها على سحب اعترافها باسرائيل .

٥ ـ مطالبة الشعوب الافرو آسيوية بالعمل على تصفية الاستعمار بشكليه القديم والجديد ، وازالة القواعد الاستعمارية العسكرية العدوانية .

٦ ـ دعم الشعب العربي في اجراءاته لمكافحة العدوان وتأييده في سعيه لتأميم بتروله .

٧ ـ حث الدول الافرو آسيوية على مقاطعة اسرائيل اقتصاديا والغاء اتفاقياتها معها .

٨ ـ حث الدول الأفرو آسيوية على تحديد موقفها من القوى الاستعمارية وتقدير المؤتمر للجهود التي بذلتها الدول المتحررة داخل الأمم المتحدة في الوقوف الى جانب الشعب العربي في كفاحه الشريف العادل .

٩ ـ دعم الشعب الفلسطيني في كفاحه من أجل العودة .

١٠ ـ مقاومة التسلل الاسرائيلي في البلدان الأفرو آسيوية .

١١ ـ تأييد كفاح شعب جنوب اليمن المحتل .

١٢ ـ ممارسة كافة الضغوط لمصلحة القضية العربية .

١٣ ـ تكليف السكرتارية الدائمة بتأليف لجنة لمتابعة تنفيذ هذه القرارات والعمل على ايضاح حقيقة اسرائيل .

وهكذا انتهى المؤتمر صريحا في أهدافه . مؤكدا رسالة شعوب التضامن في مناصرة قضية الحرية أينما كانت . ولقد رافق انعقاد المؤتمر ما كان يجري في الأمم المتحدة من مناورات استعمارية للحيلولة دون ادانة اسرائيل ودمغها بالعدوان . مما يستلزم بالضرورة انسحابها من الأماكن التي احتلتها على أساس أن كل ما يترتب على العدوان باطل وغير شريف . ولقد بذلت أمريكا **ـ زعيمة الثورة المضادة لكل ثورات الشعوب ـ** ضغوطا هائلة على الدول حتى لا تصوت الى جانب مشروعي دول عدم الانحياز والاتحاد السوفيتي بما حواه المشروعان من ادانة اسرائيل وانسحابها والتأكيد على عدم أخلاقية ما فعلته اسرائيل . وعاشت شعوب العالم في ترقب وحذر لما سيسفر عنه الاقتراع . ولقد نبع خوف الشعوب من احتمال عدم ادانة اسرائيل واجبارها على الانسحاب بما تحمله هذه النتيجة من انتكاسة لكل ما تعارف عليه العالم من قيم أخلاقية شريفة . **لكن الشعوب أصيبت بخيبة أمل كبيرة حين صح ما توقعته بسقوط المشروعين وعدم حصولهما على أغلبية واجبة .** بل ان احدى عشرة دولة افريقية صوتت الى جانب المشروع الأمريكي بكل ما حمله من خبث وخطر على قضية التحرر والسلام في العالم . ومن المؤسف أن تحضر وفود لهذه الدول مؤتمر التضامن في القاهرة وتوافق على ما جاء في بيانه من استنكار للعدوان الاسرائيلي والعمل على ازالة آثاره بانسحاب قوات اسرائيل المعتدية .

ان هذا الموقف قد حير الكثيرين . بل ان الشعب العربي اليوم لينظر بمرارة الى هذه الدول التي قالت غير ما فعلت . والتزمت بقرارات مؤتمر التضامن في حدود قولها وكتابتها فقط . **ماذا يعني كل هذا ؟ .**

هل هي أزمة التضامن ؟ . هل هي الضغوط الأمريكية الهائلة تلعب بمصائر الشعوب ؟ . أسئلة حائرة كثيرة . لكنني أقول بمنتهى الثقة .. مزيد من العمل والاصرار والصمود في وجه كل ما يواجه شعوبنا من تحديات . مع مزيد من التعمق والوعي . والفهم السليم لكل أبعاد معاركنا مع الامبريالية والصهيونية العالمية . **والنصر في النهاية حتما للشعوب** . الشعوب التي عبرت عن اراداتها في مؤتمر التضامن الطارىء في القاهرة . ولتهنأ أمريكا بصداقتها لاسرائيل ، وعدائها للشعوب والحرية والسلام . ولتذكر أن أساليب أمريكا قد دمرت قبلا قوى كانت أعتى منها . مهما حاولت أمريكا أن تستحدث الوسائل وتبتكر الأساليب .

حازم محمد هاشم





معركة ذات الصوارى
للفنان كامل مصطفى

عندما يصبح الفن سلاحاً فى المعركة

الفن سلاح من أسلحة الانسان فى مواجهة أعدائه .. والفنان التشكيلى يعبىء الجماهير بما تعبر عنه الخطوط والأشكال ، ويزكى روح المقاومة والنضال .

لقد استخدم انسان ما قبل التاريخ سلاح الفن لمواجهة الوحوش التى كان يقاتلها كل يوم .. ورسم على جدران الكهوف التى سكنها لوحات قوية التعبير كان كلما تطلع اليها امتلأت نفسه بالشجاعة والثقة فى النصر وانه قادر على التغلب على أعدائه .. وكانت هذه الرسوم أيضا هى المدرسة التى يتعلم فيها الاطفال كيف يواجهون عدوهم الذى سيقاتلونه فى مستقبل الأيام ...

ان الفن يرفع معنويات الانسان عند مواجهة التحديات ويقوم بدعم الجماعة الانسانية فى وجه أعدائها .. وعلى طول تاريخ الفن القديم قام الفنانون بتسجيل المعارك والانتصارات العسكرية كما نجد فى لوحات النحت البارز والرسم الحائطى الملون من الفن المصرى القديم فى معبد أبو سنبل بالنوبة ومدينة هابو بالجبل الغربى بالأقصر وعلى جدران الكرنك وفى مقابر الملوك وغيرها من الآثار .. وان أقدم أثر مصرى يبدأ بهالتاريخ المدون هو لوح «نارمر» وعليه رسم بارز يصور انتصار الملك « مينا » فى حربه لتوحيد الوجهين القبلى والبحرى .

وفى الآثار البابلية والأشورية والفارسية ما يماثل هذا الاتجاه ولعل أشهر ما عرفه التاريخ من رسوم المقاومة كان فى العصر الحديث ويتمثل فى مجموعة من أعمال الفنان الاسبانى « **فرانشيسكو جويا** » الذى قدم للعالم ٨٥ لوحة بعنوان « **كوارث الحروب** » وهى تختلف عن انتاج أى فنان آخر من سابقيه ، فهى عبارة عن رسوم تسجيلية للكوارث والأهوال والجرائم التى ارتكبتها

جيوش الاحتلال ، وبطولات المقاومة الشعبية التى احرزها الشعب الاسبانى ضد جيوش نابليون .. وقد قال جويا عن هذه الأحداث :

« اننى لم أستطع تجاهلها فهى تمثل مجد وطنى وعزته » .

عندما قامت الثورة الفرنسية وأطلقت صيحتها للتحرر من الملكية والاقطاع فى أوربا .. كانت اسبانيا تعانى من أزمات سياسية واجتماعية طاحنة .. وقد تبنى الفنان **« جويا »** الدعوة الى الحرية والاخاء والمساواة ، وعندما زحفت جيوش نابليون على بلاده رأى فيها الشعب الاسبانى منقذا ومحررا لهم من الاقطاع والرجعية والملكية المستبدة ، ورسم الفنان الجنرالات الفرنسيين وكذلك الملك جوزيف أخو الامبراطور بونابرت الذى عين ملكا على اسبانيا .

ولكن الجيش الفرنسى لم يكن سوى جيش غاز .. ولهذا سرعان ما تكونت حركة مقاومة جيش الاحتلال .. وتمردت العاصمة مدريد فى ٢ مايو ١٨٠٨ على القوات الفرنسية الباغية التى استمرأت البقاء فى أرض الوطن . وتكونت فى اسبانيا جمعيات التحرير وتشكلت فرق المقاومة الشعبية حول الشعارات التى تطالب بحرية الفكر وحرية الصحافة وحرية الانسان عموما .. وكانت هى نفس المبادىء التى وضعتها الجمعية الفرنسية فى ذلك الوقت فى بلادها ولكنها حرمتها على البلاد التى تستعمرها وتستنزف خيراتها .

وهكذا انقلبت لوحات جويا لتصبح سخطا على المستعمرين ، فتحولت لوحاته للملك جوزيف الى **« الملك الدخيل »** .. ثم رسم لوحاته عن فظائع الحرب التى شنها المعتدون .. مشاركا بهذه اللوحات فى العمل السرى من أجل التحرر الذى اجتذب كل المواطنين .

فرسم الأهالى وهم ينقلون جثث الضحايا الممزقة الى القبور **« الموتى يدفنون موتاهم »** .. وصور الابرياء وقد ربطوا الى الاعمدة والجنود يقتلونهم وينثرون أشلاءهم على قارعة الطريق .. وفى لوحة أخرى يسجل منظر الجنود وهم يخطفون امرأة من زوجها الذى قيدوه الى الحائط بينما يحاول أحد الجنود تقبيلها ... وكانت هذه الرسوم المشحونة بالغضب والاشمئزاز سلاحا سحريا وكأنها البترول يصب على النار .. فكانت تحريضا واضحا للمواطنين على حمل السلاح والقتال للدفاع عن كل مقدساتهم فى حربهم التحريرية ضد الغزاة .

ثم سجل الفنان بطولات الشعب المتحرر واستبساله فى القتال عندما رسم لوحة **« ثورة مدريد فى ٢ مايو ١٨٠٨ »** فنرى أبناء العاصمة الباسلة يهاجمون فى حماس بالغ جنود الجنرال مورا وينزلون بهم الهزائم : لقد عبر « جويا » عن الحقد الذى استقر فى اعماقه عندما رسم عدو بلاده كوحش دموى مفترس ينهب ويعتدى بينما الفلاحون المسلحون بالحراب البدائية والسكاكين الصغيرة يهاجمونه فى بسالة . وكذلك صور النساء اللاتى هوجمن وهن يدافعن عن أنفسهن بوحشية .

ومنذ « جويا » حتى القرن العشرين تناول الفنانون موضوعات الحرب والمقاومة والحرية فى أعمال شهيرة أمثال لوحة **«أوجين ديلاكروا»** **« الحرية تقود الشعب »** . ولوحة **« المارسليز »** للفنان **« دورية »** ثم أعمال فنانى المكسيك وغيرها من لوحات وتماثيل فى جميع بلاد العالم .

وخلال الحربين العالميتين ساهم الفنانون فى كل مكان بلوحاتهم



الكاريكاتير فى المعركة
للفنان طوغان

ورسومهم فى مقاومة المعتدين وتأجيج روح المقاومة والقتال عند مواطنيهم للدفاع عن كل المقدسات .

ولكن تيار الفكر الرجعى الذى يملك امكانيات مادية ودعائية هائلة أخـــذ يشجع فى مجالات الفنون اتجاهات ترمى فى المحـــل الأول الى تجريد الانســــانية من سلاح الفن عنـــدما تخوض معارك نضالها . فانتشرت اتجاهات فنيـــة ومدارس تمعن فى زيادة عزلة الأعمال الفنية عن الجماهير وتشـجع نمو الحركة الفنية داخل دائرة ضيقة من المتذوقين وذلك بخلق نجوم كنجوم السـينما من الفنانين المستغرقين فى الابحاث الشكلية ودخلت الأعمال الفنية سوق المزايدة وتحولت من أداة تعبـيرية لتوصيل المشاعر . الى سلعة لجلب الربح والشهرة . وهكذا وفى أحسن الأحوال غرقت الحركة الفنيـــة فى أبحاث شكلية خالصة وأهمل تماما واجب الارتباط الدائم بين ثقـــافة الجماهير التى تتطور وفق قوانين وظروف خاصة بها وكذلك متطلبات المعالجـــة الموضـوعية للمشكلات الاجتماعية وعلى رأسها قضـــية نضال الجماهير فى معركتها من أجل التحرر من الامبريالية .

ورغم هذا فقد شارك فنان مثل « **بيكاسو** » بأسلوبه الرمزى فى التعبير عن مأســـاة قرية « **جرونيكا** » الاســـبانية التى دمرتها طائرات الفاشيست الايطاليين خلال الحرب الأهلية الاسـبانية عندما ساهمت حكومة موسولينى فى تأييد القـوى الرجعيـة المعادية للنظام الجمهورى فى اسبانيا عام ١٩٣٦ . كما شارك أيضا بلوحته الحرب فى كوريا عام ١٩٥١ واذا بها أقل اغراقا فى الاغراب من لوحة ١٩٣٦ .

وهـكذا نجد ضمير الفنان الحر يدفعه الى التعبير عن مأساة العدوان الاسـتعمارى على الشعوب بأسلوب موضوعى .. ولعل ما حدث من تغير فى موقف الفنان « **منير كنعان** » خير دليل على هذا فقد استغرق هـــذا الفنـــان المصرى لسنوات طويلة فى صياغة أعمال تجريدية متطرفة ترفض عن عمد أى معالجـة موضوعية أو التعبير عن أى انفعالات أو أفكار أو مشاعر مشتركة بين الناس .. بل واضرب عن الرسم الصحفى الذى هو مهنته الأصلية لزمن طويل سابق على العـــدوان الاستعمارى المتخفى وراء اسرائيل على بلادنا ، وحجته فى



الفنانون نزلوا الى الجمهور

هذا أن اخلاصه لمذهبه الفنى تمنعه من ممارسة الرسم الصحفى .

ولكن عندما احتدمت المعركة عاد الفنان « **كنعان** » الى المشاركة بسلاح الفن فى المعركة مستخدما أسلوبا واضحا وبسيطا ومعبرا ، هو أسلوب الرسم الصحفى .

ان مقدسات شعبنا وآثارنا عندما تتحول الى متاريس نقف وراءها مدافعين عنها .. عندئذ تحتضر كل محاولة لمناقشة الفن أو الجمال من الناحيـــة الشكلية الخالصة ... وتصبح كل الأبحاث الجمالية التى لا تدفع الفن فى خدمة قضية الوطن ، أبحاثا عقيمة لا معنى لها ولا جدوى وراءها .. فالمعركة تفرض الالتزام بمعناه الكامل والحس والحقيقى .. لأنها معركة شاملة ، ولا يعود للفن سوى وظيفة واحدة هى بث شحنات انفعاليـــة وفكرية فى المتذوقين تقوم بدور ايجابى واضح وقوى ومحدد فى تعبئة الجهود للمعركة .

لقد شـــارك الفنانون المصريون مشاركة ايجابية بأنفسهم وفنهم فى كل المعارك الوطنية التى مرت ببلادنا فى العصر الحـديث .. ففى أعقاب **ثورة ١٩١٩** أقام المثال الراحل **محمود مختار** تمثال نهضة مصر وعبر فيه عن روح تلك النهضـــة ، كما خلد زعيم تلك الثورة فى تمثاليـة لسعد زغلول بالقاهرة والاسكندرية وجسد فى لوحات النحت البارز على قاعدتى التمثالين أحداث وأهداف الثورة .

كما ظهرت أعمال الفنـــانين فى الأماكن العامة فى فترات المد الثورى عام ١٩٤٦ ثم أعوام الـكفاح المسلح بالقناة عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ فحملت مظاهرة ١٤ نوفمبر الصامتة لوحات سياسية ضخمة كما مهدت الملصقات الحائطية لهــــذه المظاهرة وعبأت الجماهير لها .. وفى عام ١٩٥٦ عندما وقع**العدوان الثلاثى الأول**كانت مشاركة الفنانين أوسع مدى وأكثر ايجابية من أى وقت مضى ، فخرجت الأعمال الفنية فى المظاهرات وأقيمت المعارض فى الشوارع والمقاهى ومحطات السكك الحديدية وكان أسلوب « **الأفيش** » أو « **اعـــلان الحائط** » يغلب على معظمها .

لقد كانت معركة بور سعيد امتحانا للشعب المصرى بجميع طبقاته حيث قدم هذا الشعب البرهان على أهليته فى الحرب والاستقلال والحياة العزيزة الكريمة وشارك كل المصريين سواء فى بور سـعيد أو غـيرها من بلاد الجمهورية فى تقديم هذا البرهان . وقد قدم أطفال بور سعيد معرضا هاما عن المعركة التى خاضـــتها مدينتهم وذلك عقب طرد المعتدين فى ديسمبر ١٩٥٦ . وأقيم هذا المعرض فى قاعة الفنون الجميلة بالقاهرة ثم انتقل الى روما وفينـــا وبودابست فكان صورة حيـــة تجسم انفعال هؤلاء الأطفـــال وتعبيرهم الصادق الذى يبرهن على مدى تغلغل الوعى بقيمة حريتنا وحرية بلادنا .

فرسم الطفل على ما فيه من بدائية ملىء بالتعبير البسيط الواضح الذى يعجز الفنـــان الكبير عن أدائه .. فالطفـــل رغم انه لا يعرف سببا للحرب .. ولا يعى مدى خطورتها على الانسانية ، ولكنه أقدر على التعبير عنها عندما يرى أباه وأمه منزعجين وقد امتـــلأ البيت بالفزع وضاعت الطمأنينة وظهر شبح الموت ممثلا فى قنابل وحرائق وضمار .. انه عندما يلمح اندفاع أبويه والمحيطين به للدفاع عن ديارهم وأنفسهم يتشبع بروح المقاومة ويعبر عنهـــا بتلقائية وصدق يجعلان لرسومه تأثيرا عميقا فى المشاهدين .

وفى معركتنا المصيرية التى نخوضها اليوم نجد أن الفنانين التشكيليين قد انفعلوا بها منـــذ اللحظة الأولى للتعبئـــة الثورية وجندوا أنفسهم للقضيةوعملوا لها بالصورة والكلمة . فترك الفنانون مراسمهم ومشكلاتهم التكنيكية ونزلوا الىالشارع يرسمون الملصقات وينظمون المعارض التى تدور حول المعركة مع الامبريالية وصنيعتها اسرائيل .. فساهمت هذه اللوحات فى رفع الروح المعنوية وتوعية الجماهير وتعريفها بدورها فىالمعركة .. ورغم وجـــود بعض الملصقات السيئة التشكيل والخاطئة الهـــدف فيما يتعلق بالاتجاه الصحيح للتوعية الذى كشفت عنه تطورات المعـركة الا أن شكل الانتاج الفنى قد تغير عموما فى هذه المرحلة .. فتراجعت الأساليب المركبة والتكنيك المعقد الى مرتبة ثانوية وأصبح الشـــكل البسيط والتعبير المباشر أساسه الانتاج الفنى للوصول الى الجماهير العريضـــة بطريقة سهلة وسريعة .. وأصبحت الشعارات الثورية الوطنية جزئا من التشكيل باعتبـارها من مستلزمات الوظيفة الجماهيرية للفن التشكيلى فى معركتنا الشاملة الحالية .

وفى جميع أماكن تجمع الفنـــانين التشكيليين بالقـــاهرة والاسكندرية وغـــيرها من عواصم المحافظات دب نشاط ملحوظ منذ اللحظات الأولى للتعبئـــــة للاسهام بسلاح اللون والخط . وهـــكذا عمق الموقف من ارتباط الفنان التشكيلى بالوجدان الشعبى فى بلادنا وأثبتت الغالبيـــة العظمى من الفنانين عمق ايمانهـــا بقضايا الجماهير .

أما الدور الذى يقوم به رســـامو الصحافة وخاصة رسامو الكاريكاتير السـياسى فهو لا يقل بأى حال من الأحـــوال عن الدور الذى تقوم به أجهزة الاعلام المختلفة ، خاصة رسوم الفنانين الذين تنبهوا منذ زمن طويل لمدى اتساع دائرة تأثير فن الكاريكاتير واعتبروه « **قيـــادة لا تنكيتا** » وكان من أبرزهم الفنانون زهدى ومصطفى حسين . وحلمى التونى . وعبـــد السميع . وجـــورج . وصـــلاح جاهين ... وغيرهم . ان رســـامى الكاريكاتير يتمتعون بشهرة وشعبية بين قراء الصحف لدرجة أن الكثيرين من جمهور القراء يبحثون عن رسوم هؤلاء الفنانين بعد قراءة العناوين الرئيسية للصحف وقبل الاسترسال فى قراءة أى خبر . والقارىء يعتبر الحـــدث الذى يتنـــاوله رسام الكاريكاتير أهم الأحداث الجارية ، ومن الممكن اعتبـــار مجموع رسوم الكاريكاتير الصحفى سجلا وافيـــا للأحداث التى تمر ببلادنا . هــــذا فضـــلا عن دورها المباشر فى المعركة بالنسبة للشعب المصرى الذى اشتهر عنه حب الفكاهة .

صبحى الشارونى



الولايات المتحدة..

لماذا ناصبتنا العداء ؟

أمريكا اقوى دولة فى العالم .

أمريكا أغنى دولة فى العالم .

ربما كان ذلك صحيحا بالمقياس المادى للقوة والغني .

لكن هناك مقياس آخر أكثر أهمية عند قياس قوة وغنى دولة من الدول هناك المقياس الفكرى والروحى المستمد من حضارة الأمة وتجاربها فى التاريخ وتراثها الحضارى والثقافى .

أمريكا اقوى دولة فى العالم ..

أمريكا أغنى دولة فى العالم ..

هكذا قال الرئيس **جمال عبد الناصر** فى مؤتمره الصحفى الذى عقده يوم الأحد ٢٨ مايو ١٩٦٧ .

ولكن الرئيس عبد الناصر أشار الى علة العلل فى السياسة الأمريكية عندما تساءل سيادته مستدركا فقال : **« ولكن لماذا تتحيز أمريكا ضدنا ، لمصلحة اسرائيل ؟ »** .

وحدد الرئيس كذلك ما تفتقر اليه السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية عندما قال : **« لماذا لا تلتزم أمريكا جانب العدل والحق ؟ »** .

وعبر السيد الرئيس كذلك عن فاجعة العالم فى واحدة من أكبر دولتيه عندما تساءل : **« ماذا تكون نظرة العالم الى أمريكا عندما يجدها تنحاز الى الجانب الذى يخلو من العدل ؟ »** .

والحق أن الرئيس جمال عبد الناصر قد عبر ببصيرة نفاذة عن عقدة السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

أقول ، لا تقاس قوة الدولة ، ولا يقاس غنى الدولة بالمقياس المادى فى هذين المضمارين فحسب ، ولكن هناك **التكوين النفسى والفكرى والروحى** المستمد من الماضى والذى يؤثر فى حاضر ومستقبل الدولة وفى تحريك سياستها الخارجية وفى تفاعلها مع الأحداث العالمية كواحدة من دول العالم المتفاعلة مع غيرها فى البوتقة البشرية .

والولايات المتحدة الأمريكية لم تدخل معترك الحياة السياسية حتى عام ١٨٩٨ كما يقرر المعلق الامريكى المشهور « **والتر ليبمان** » ويوافقه على ذلك الكاتب المعروف « **فرانسيس لوفتهايم** » فى محاولة « **لتحديد موقف أمريكا الآن** » .

ويقرر لوفتهايم أنه توجد فى الولايات المتحدة الأمريكية الآن ، أزمة فكرية ثقافية عميقة الجذور تنعكس على مسلك واتجاه وأهداف السياسة الخارجية .. وتنبع هذه الأزمة من سوء تفسير الأحداث وهو يدين السياسة الخارجية الأمريكية بالافلاس المعنوى الافتقار الى المثل العليا التى يجب أن تكون الأساس فى رسم السياسة الخارجية لأية دلة .

ويقرر **لوفتهايم** أن قلائل من الساسة الأمريكيين هم أولئك الذين أتيح لهم البعد الانسانى العالمى فى النظر الى الأحداث ، وفى تحريك السياسة الأمريكية .. وحتى هذه القلة منهم كانت تمثل انفلاتا وشذوذا لم تتجاوب معه الحياة الأمريكية السطحية النخبة الخالية من العمق الانسانى والأخلاقى .. وآية ذلك فشل محاولةالرئيس الأمريكى **ودرو ويلسون** لصنع معاهدة الصلح فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولانشاء عصبة الأمم ، عندما اعترض الكرنجرس الأمريكى آنذاك على كليهما .. وكانت هذه أولى المحاولات لاطلالة أمريكية على أحداث السياسة العالمية التر

يتحرك فى اطارها تاريخ العالم الحديث ... وأخيرا يقرر لوفتهايم أن السياسة الخارجية الأمريكية قد فقدت اتساقها

وفقدت عنصر استمرار الحلقات وتماسكها ، حاضرا مع ماض ثرى بالأبعاد الفكرية المستخلصة من تاريخ سابق لأمة تعرضت لقدر كاف من تجارب التاريخ ..

والحق أن **فريسنس لوفتهايم** قد أصاب فى ملاحظاته على السياسة الأمريكية فى القرن العشرين ..

والحق أن تأمل أحداث السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية يطلعنا على مدى فقر دم هذه السياسة وتهافتها وتخبطها بين المبادىء والنظريات المتناقضة ، والبرامج الفضفاضة الخالية من أى مضمون حقيقى ..

ونضع بين يدى القارىء جملة من مواقف السياسة الخارجية الأمريكية فى العصر الحديث وندع له استخلاص معانيها ..

أولا :

● شهدت نهاية القرن الثامن عشر حركة استقلال أمريكا عن الاستعمار البريطانى ، ويدل هذا على ضحالة التاريخ الأمريكى الحديث من الخبرات والتجارب الانسانية الهامة فى حياة الشعوب خصوصا اذا تذكرنا أن أمريكا لم تكن بالكاد قد استكشفت قبل هذا الاستعمار .

ثانيا :

● فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حاولت أمريكا الخروج من عزلتها والمساهمة فى تحريك الحضارة الانسانية على مسار تاريخها فحاول رئيسها **ودرو ويلسون** – كما سبق القول المشاركة فى صياغة معاهدة الصلح وتكوين عصبة الأمم وادخال أمريكا عضوا فيها ، ولكن فشلت هذه المحاولة التى تمثل فيها البون الشاسع بين سطحية الجماهير الأمريكية آنذاك وبين اطلالة فكرية انسانية بدت شاذة على سطح الحياة الأمريكية ، فلم يوافق الكونجرس الأمريكى على المعاهدة ولا على تكوين عصبة الأمم وفضل تقوقعا فى عزلة أمريكية ، مصطبغة بالأنانية ..

ثالثا :

● فى أعقاب الحرب العالمية ، وقرب نهايتها ، اندفعت السياسة الأمريكية الى جانب الحلفاء فى حربهم ضد النازية والفاشية ، وساهمت مساهمة فعالة فى هزيمتهما ، وخيل للعالم ، ولفترة طويلة ، ان الحرية والمساواة والديموقراطية قد كسبت دولة فتية قوية هى أمريكا .. ولكن بذور الرعونة وتكلف القوة ومحاولة أظهارها كانت بادية فى معارك أمريكا ، **وخصوصا فى ميدان حربها مع اليابان** .. فقد سجل التاريخ أن أمريكا قد ضربت مدن اليابان بالقنابل الذرية ، لم يكن ثمة ضرورة لذلك ، اذ كانت اليابان قد أعلنت بالفعل رغبتها فى التسليم .. ولكنها كانت نية أمريكية أكيدة فى محاولة استعراض القوة التى حصلت عليها أمريكا – لا من صميم تراثها ، ولكن من تراث حضارى المانى يهودى – وهو الداء الذى استشرى بعد ذلك ، وثمنا لذلك ، فى السياسة الأمريكية –، عندما اعتبرت أن سياسة القوة هى السياسة المكفولة النفاذ فى التاريخ المعاصر .

رابعا :

● لم يثبت انضمام أمريكا الى جانب الديموقراطية والحرية والمساواة والمثل الانسانية السليمة بانضمامها الى بريطانيا وفرنسا فى الحرب العالمية الثانية – كما أذاعت دعاية الحرب ، ولكن الأمر الذى تأكد ثبوته هو انضمام أمريكا الى الحركة الاستعمارية الجديدة فى العالم ، **فاصبحت تمثل الاستعمار الجديد** وتعتبر نفسها الوارث الشرعى – بحكم القوة ومسايرتها لتطوراتها الحديثة – وبحكم الغنى – بالمعيار المادى – لمستعمرات بريطانيا وفرنسا وغيرهما .. فلم يكد يتقلص الاستعمار الفرنسى فى الهند الصينية – مثلا – بعد معركة **ديان بيان فو** ، حتى دخلت أمريكا محاولة أن ترث تركته الى حد التورط فى **حرب كوريا** ..

خامسا :

● **لقد أصابت الكارثة – أمريكا بالشلل والجمود الفكرى** .. وهو الداء الأمريكى الناتج عن الخوف من الشيوعية أن تتسرب الى داخل أمريكا نفسها – بل ان هذا الخوف تعدى الحياة الداخلية الأمريكية – ، الى حد أن ارتسم هذا الفزع الهستيرى من الشيوعية – بكل سماته وأعراضه المتشنجة – على سياستها الخارجية .. فها هى تحارب حربا

وحشية فى فيتنام بزعم محاولة دون كيشوتية لوقف التقدم الشيوعى متورطة فى حرب وحشية ، يهدر فيها الدم والمال الأمريكى ببشاعة منقطعة النظير .. **كما يهدر فيها الدم النقى لشعب فيتنام البطل الحر ..**

سادسا :

● لقد بلغ غرور القوة بأمريكا ان تصورت أنه يمكنها خلق دولة وحمايتها **فعملت على انشاء دولة العصابات الصهيونية اسرائيل على أرض شعب عربى هو الشعب الفلسطينى** .. غرور قوة بلغ حد الحلم بانشاء دولة ومحو أخرى .. احلال شعب محل شعب وتغيير قومية **وهى محاولة عقيمة لا تستند على حق ولا عدل** ، وتخلو من سائر القيم الانسانية اللازمة لسمعة دولة متحضرة تدعى القوة مهما كان مفهوم القوة وتصورها ..

* * *

كل هذه المواقف — وغيرها كثير — تدل دلالة واضحة على تخبط السياسة الأمريكية وترديها فى وهاد عميقة من التناقض والتهافت ، **وتدل على التخبط بين مبادىء الفكر ، وأساليب العمل على مستوى الدولة الكبرى فى المجالات الخارجية** .. مما يدمغ سياستها الخارجية بأنها سياسة لا أخلاقية ، سياسة نفعية — بالمعنى السوقى الدارج للنفعية ، لا المعنى الفلسفى العلمى للنفعية — سياسة بغيضة ، بدأ لونها الفاقع يظهر رويدا رويدا ، وأخذت رائحتها الكريهة تعلو شيئا فشيئا ، حتى أصبح واضحا للعيان والأنوف والأذهان ، **أن أمريكا تخسر حياتها فى مجالات الدعاية فى العالم .**

ولو علمنا وتأكدنا أن الحرب الحديثة هى حرب دعاية فى المقام الأول ، لأدركنا أن الدوائر تدور على أمريكا لتسقط فى النهاية فى هاوية الدمار ..

أعود فأكرر أنه لا تقاس قوة الدولة ، ولا يقاس غنى الدولة بالمقياس المادى فحسب .. ولكن هناك التكوين النفسى والفكرى والروحى الجوانى الذى يلزم القياس عليه اذا أردنا قياس قوة الدول قياسا دقيقا .

ولما كان المذهب الفلسفى هو الذى يعبر تعبيرا دقيقا عن حضارة معينة من الحضارات .. من حيث أن الفلسفة هى جماع ثقافة الحضارة وخلاصتها فى كل عصر من العصور ، فجدير بنا أن ننظر الى ما يسمى بالفلسفة الأمريكية المعاصرة عسى أن نجد فيها ما يعين على فهم السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية ..

ولقد تبلورت الفلسفة الأمريكية فى مذهب ضحل من المذاهب الفلسفية هو المذهب البراجماتى كما تمثل عند **جون ديوى ووليم جيمس** من فلاسفتهم .

وخلاصة هذا المذهب أن مقياس صواب الفكرة وخطئها عند البراجماتيين — هو أنهم يتساءلون : **«هل هذه الفكرة نافعة لنا فى حياتنا ؟»** اذا كانت الاجابة « نعم » ، اذن فالفكرة صحيحة ، واذا كانت الاجابة « لا » فالفكرة خطأ .. وهم يقبلون تجاوزا ، واذا اتسع الوقت ، أفكارا لا تتعلق بالنفع وعدمه ، كفكرة الله والخلود وغير ذلك من أمهات الأفكار الانسانية ، على أساس أنها تعطى عند معتقدها — أحيانا — شيئا من المتعة الذهنية أو الراحة النفسية ، وهو أساس نفعى كذلك ..

وليس هنا مجال التعليق على هذه الفلسفة السطحية البرانية ، ويكفى القول بأنه من العبث ربط صواب وخطأ الأفكار بما يسمونه « **منفعتنا** » اذ أن المنافع تتعارض بين الأفراد والجماعات والأمم .. وكذلك تختلف « **منفعتهم** » دون شك من وقت الى الآخر .. وينتج عن ذلك — دون ريب — عدم ثبات الحقيقة والصدق بالنسبة للأفكار حسب المعيار الأمريكى البراجماتى .. وهو الأمر اللازم للحقيقة كقيمة ثابتة ، والذى لا ينفصل عن حقيقتها ولا ينسلخ عن طبيعتها ..

وينتج عن تشبع الفكر الأمريكى بهذا المذهب البراجماتى نتائج خطيرة تتمثل فيما نلاحظه من تهافت السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية فلا جدال أن سياسيا مثل **جون فوستر دلاس** قد استوعب فلسفة بلاده البراجماتية وتخبط مع نتائجها وكذلك غيره من صناع السياسة الأمريكية ..

وكأنى بالساسة الأمريكان يتساءلون ازاء أى مشكلة عالمية : **« أين نفعنا ؟ »** ثم يندفعون فى اتجاه ما يظنونه بالنظرة السطحية لمنفعتهم ، بطريقة تضيع من بين أصابعهم حتى النفع ذاته ..

وهكذا تتردى السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية فى أقذر مهاوى الانزلاق ، وتظهر لا أخلاقيتها ومجافاتها للانسانية ومثلها العليا ، مما سوف يكون له أكبر النتائج على مستقبل الحياة الأمريكية ، وأكبر الآثار فى اندحار أمريكا لو كانت — لا قدر الله — حرب عالمية تكون أمريكا طرفا فيها .. وهى نتائج محتمة لأن حياة الدول اليوم أصبحت معلقة بنجاح أو فشل دعايتها .. والسياسة الأمريكية تخسر على طول الخط .

وأوشك يوم يجىء فاذا العالم كله يهتف :

أمريكا .. كانت أقوى دولة فى العالم ..

أمريكا .. كانت أغنى دولة فى العالم ..

أمريكا .. ليت أنه لم تكتشف أمريكا ..

* * *

ان هناك قوة الله .. قوة الحق .. قوة الفضائل .. قوة الخير .. قوة القيم الأخلاقية والروحية السامية فى عالم الانسان يا أمريكا ..

على الجوهرى

قضية الوحدة الإفريقية.. إلى أين؟

يعـد **چورچ بادمور** احد الرواد الذين قـدموا الكثير من الأسس التنظيمية لحركة الوحدة الافريقية ولد فى ترنيداد سنة ١٩٠٣ ولكنه ظل مشدودا الى افريقيا موطن أجداده الأوائل الذين سبقوا فى عصور مبكرة الى منفاهم فى الأمريكتين .. وكان تحريرها ووحدتها هما المثل الذى وضعه نصب عينيه طوال حياته . وقـد خصص جميع كتاباته للدفاع عن حرية افريقيا ووحدتها ، **ويعتبر بادمور أحد واضعى نظرية الوحدة الافريقية وقد الف عنها كتابا يضعه المهتمون بالشـئون الافريقية فى مستوى وثيقـة حقوق الانسان أو البيان الشيوعى لماركس .**

والمعروف أن بادمور قد كرس حياته من أجل افريقيـا ومستقبلها وقـد ترك الصحافة والسياسة وأخـذ يتجول فى أوربا وآسيا وافريقيـا يدعو لفكرته . وقد تعرض للكثير من الاضطهاد والهجوم العنيف أثناء حكم النازى فى المانيا ، وعانى من أعداء الملونين فى كل مكان . وخاصة أولئك الذين يثير حقدهم وجود أشخاص ملونين يعتنقون أفكارا تقدمية مثل بادمور .

وقد دعا بادمور جميع الذين يرجع أصلهم الى افريقيا حيثما وجدوا الى توجيه أنظارهم الى قارتهم موطن اسـلافهم والعودة اليها ، **وقد عاد بادمور الى افريقيـا بمجرد اعلان استقلال غانا حيث عاش بجانب رفيق كفاحه القـديم د . كوامى نكروما كمستشار للشئون الافريقية .**

لقد مات **چورچ بادمور** سنة ١٩٦٣ ولـكنه رأى بداية تحقيق كثير من أحلامه ومبادئه التى عاش من أجلها ويتناول بادمور فى كتابه عن **(الوحدة الافريقية)** جميع الجهود التى بذلها أبناء افريقيا من أيام **دكتور دى بوا** لتحقيق حلم السود فى توحيد قارتهم ، **وأملهم فى خلق مجتمـع افـريقى متجانس تتعايش فيه كل الاجناس وتعمل من أجل هدف واحد هو رفاهية الانسان الافريقى .** وقد حاول بادمور أن يوضح كيف أن للافريقيين مثل الآسيويين مصلحة ملحة فى السلم وفى عالم تسوده الحرية واللاعنف كى يتمكنوا من تعويض قرونا كاملة من التخلف الذى فرضه عليهم الاستعمار الغربى .

ويحكى بادمور فى هذا الكتاب قصة أول مؤتمر للجامعة الافريقية الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٨ أثناء عقد مؤتمر السلام فى فرساى .

فى الوحدة الافريقية :

يتناول بادمور فى هـذا الفصل الجامعة الافريقية وموقفها من صراع الملونين من أجل التحرر من سيطرة الانحيـاز والأساس النظرى الذى تعتمد عليه الجامعة الافريقية كنظرية وكعقيدة ، يقول بادمور : **(تؤيد الجامعة الافريقيـة موقف الجبهة الأفرو آسـيوية ضـد السياسة العنصرية التى بلغت ذروتهـا فى فلسفة هيرن فولك المعروفة بالأبارتيد بالاضافة الى أنها تستوحى مضمونها من كفاح حركات التحرر الوطنى فى الدول الآسيوية ومن نظرية غاندى فى اللاعنف كوسيلة لتحقيق تقـرير المصير والاستقلال الذاتى ومساواة الأجناس كما أنهـا تعارض النظام الاحتكارى الراسمالى فى الغرب وهى تحـدد مكانها فى معسكر الحيـاد وتعارض جميع أشـكال الضغط والعنصرية سواء كانت بيضـاء أم سوداء وتربط نفسها بجميع القوى التقـدمية بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة وتعمل من أجل تحقيق العدل الاجتماعى والتعـاون والسلم لجميع الشعوب) .**

ويحاول بادمور أن يوضح كيف أن للافريقيين مثل الآسيويين مصلحة ملحـة فى السلم وفى عالم تـسوده الحرية واللاعنف كى يتمكنوا من



تعويض قرون كاملة من التخلف فرضها عليهم الاستعمار الغربى .

ويرى بادمور أن (تحقيق الوحدة الافريقية يجعل منح حق تقرير المصير للمناطق التى لم تتحرر بعد شرطا أساسيا لخلق الظروف التى ستساعد ، على توحيد الحكومات الافريقية على أساس اقليمى مما سيساعد فى النهاية على خلق ولايات متحدة افريقية ، وذلك لأن الاحساس النامى الذى يربط بين الافريقيين ذوى الوعى السياسى فى جميع أنحاء القارة ، بأن مصيرهم واحد وان ما يحدث فى جزء من القارة يؤثر على جميع الافريقيين فى باقى أنحاء القارة .. هذا الاحساس يعد فى مقدمة العوامل الموضوعية التى ستخلق المناخ السياسى والاجتماعى لتحقيق الوحدة الافريقية .

وهذا الكلام يعود بنا الى الوراء أربعين عاما عندما أشار **دكتور دى بوا** فى كتابه (**الزنوج**) الى حقيقة تفرض نفسها اليوم على المسرح العالمى بشكل لا يجعلها مجالا للجدل وهى أن (**القضية المشتركة بين جميع الأجناس السوداء ضد موقف الأوربيين الجائر قد وجدت طريقها للتعبير عن نفسها وان التفكير فى الجنس البشرى يعنى التفكير فى الملونين لأن البشرية ملونة وليست بيضاء وان مستقبل العالم سيكون نتاج ما يصنعه الملونون .. هذا هو التحدى الذى لا مفر منه فى النصف الأخير من القرن العشرين**) .

ويحكى **بادمور** فى هذا الكتاب قصة أول مؤتمر للجامعة الافريقية الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٨ أثناء عقد مؤتمر السلام فى فرساى يقول : « بعد اعلان الهدنة فى الحرب العالمية الأولى سافر دكتور دى بوا الى باريس آملا أن توافق قوات الحلفاء المنتصرة على تبنى ميثاق حقوق الانسان للافريقيين مكافأة لهم على الخدمات التى قام بها السود فى ميادين القتال فى أوربا وفى كل مكان » .

ويتحدث دكتور دى بوا عن الظروف التى تم فيها عقد أول مؤتمر للجامعة الافريقية يقول : « ان خطتى التى كانت تنحصر فى أن يكون لافريقيا صوت يستطيع توصيل شكواها الى العالم أثناء انعقاد مؤتمر السلام فى فرساى كانت مجرد مشروع لم أكن أحلم بأنه سيخرج للنور لولا وقوع هذا الحادث وهو ان افريقيا السوداء (غرب افريقيا) هل من حقها ارسال عضو من السنغال للحكومة الفرنسية وكان هذا العضو (محور الحادث) هو **بليز ديان** وقد كان يعتبر من أكبر الساسة السود تأثيرا فى فرنسا فى ذلك الحين وكان صديقا حميما **لجورج كليمنصو** وعندما أصيبت فرنسا بكارثة عسكرية سنة ١٩١٧ قام رئيس الوزراء بتعيين مستر ديان حاكما عاما لغرب افريقيا ثم كلفه بتجنيد مالا يقل عن ٣٠ ألف من الافريقيين من الجبهة الغربية لصد الهجوم الألمانى فى معركة مارن فى يوليو سنة ١٩١٨ .

ويعلق المؤرخ الافرو أمريكى **مستر أ . روجير** الذى كانت تربطه بالنائب الافريقى معرفة وثيقة على ذلك يقول : « ان ديان قد قبل هذا المنصب لسببين أولهما انه كان يعرف ان فرنسا أقل الدول الاستعمارية تعصبا ضد السود وثانيهما أنه أحس انه اذا أقدم السود على نجدة فرنسا ومشاركتها فى الحرب فان ذلك سوف يساعد بالتالى على تحريرهم » .

ولكنه عندما وصل الى افريقيا صدم بأول طعنة من التعصب العنصرى فالحاكم الفرنسى الأبيض فى السنغال دهش عندما علم أن هذا المنصب الكبير يشغله افريقى فبدلا من أن يذهب بنفسه لاستقباله كما تتطلب المناسبة أرسل أحد صغار الرسميين ومعه فرقة من القوات السوداء لتقوم بواجب استقبال مستر ديان الذى اعتبر أن الاهانة لم تكن موجهة اليه بقدر ما كانت موجهة لكرامة فرنسا ذاتها ورفض مستر ديان أن يغادر الباخرة وأبرق الى كليمنصو يبلغه ما حدث ورد كليمنصو ببرقية شديدة اللهجة الى الحاكم الفرنسى يأمره باستقبال ديان استقبالا عسكريا لائقا والا فعليه أن يستقيل فورا . ونزل ديان وسط مظاهر العداء من جانب السود وقليل من الأصدقاء ولكن سرعان ما استطاع أن يكسبهم واستجاب ٨٠ ألف افريقى الى النداء الذى وجهه اليهم ديان أى أكثر من ضعف العدد الذى طلبه كليمنصو وتم كل شىء فى أقل من ٣ أشهر مما أشاع السرور فى نفس كليمنصو وعندما عاد ديان الى فرنسا قدم له كليمنصو وسام الشرف ولكن ديان اعتذر عن قبوله قائلا انه أدى واجبه فقط وانه قد كوفىء بما فيه الكفاية .

ولا شك ان ديان قد صادف كثيرا من الانتقـادات وقد اعتبره البعض خائنا لانه جعـل الافريقيين وقودا للحرب من أجل مصلحة فرنســا وبعضهم أثنى عليه لانه استطاع أن يفعل أكثر مما فعله اى شخص من أجل تقوية وضع الشعوب السوداء فى الامبراطورية الفرنسية . وقد برز ديان بعد انتهاء الحرب فى البرلمان الفرنسى الى أن أصبح نائبا لوزير المستعمرات سنة ١٩٣١ .

هــذا هو الافريقى الذى جاء لمساعدة دكتور دى بوا وحصل من كليمنصو على تصريح بعقد أول مؤتمر للجامعة الافريقيــة فى باريس أثناء عقد مؤتمر السلام فى فرساى لقد قال كليمنصو وقتها لديان (لا تعلن عنه ولكن نفذ فورا .)

التفرقة العنصرية فى الجنــوب الافريقى :

يتحدث بادمور فى هذا الفصل عن التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا وموقف الكنيسة الهولنـدية منها يقول : « ان السياسـة العنصرية فى جنوب افريقيا ... وسمتها الايجابية الوحيـدة هى التضييق الكامل والمطلق على الافريقيين فى جميـع مجالات الحيــاة السياسـية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . هــذه السياسة ، سياسة **دكتور مالان** الانتحارية والتى تتعارض حتى مع أشد النظم الاستعمارية ضراوة ، تلقى بكل أسف التأييد المطلق من الكنيسة الهولنـدية التى تقـول **(لا مساواة بين البيض والسود فى الدولة ولا فى الكنيسة .)**

وقد تناول بادمور فى نفس الفصل الأوضاع فى كينيــا قبل استقلالها وخاصة مشاكل المجتمع المتعــدد الاجناس فى كينيا وبعض دول وسط افريقيا (الروديسيتان) كيف يقول : « ان العلاقة بين البيض والسود لن تستقر سواء فى كينيا أو فى روديسيا الجنوبية بالذات الا اذا ازيلت جميع العقبات الاقتصادية الموضـوعة أمام السـود من أجل حرية العمل والتملك والحيــاة ولن يحدث ذلك مطلقا الا اذا وزعت القوى السياسـية والاقتصـادية على جميـع القوى العنصرية على أسـاس من المساواة المطلقة فى جميع نواحى الحياة العامة وبذلك تتحقق الوحدة الوطنية ويمكن ايجاد حل نهـائى لمشاكل المجتمع المتعدد الأجناس .. **والزمن المحدد للقيام بهذه العملية هو الآن لان غدا سيكون متاخرا »** .



الولايات المتحدة الافريقية :

ويتركز فى هــذا الفصل المغزى الحقيقى للكتاب كله يقول بادمور عن الزعماء الافريقيين : انهم كلما كانوا صادقين مع شعوبهم فانه لن يكون هناك شىء يخشونه لأنهم يسيطرون على زمام مصائرهم ومصائر شعوبهم ولانهم يملكون تأييد ومساندة القوة المعنوية الهـائلة الممثلة فى المؤتمر الافرو آسـيوى والتى أعلنت **(ان الاستعمار بكافة صوره وأساليبه شر محض ولابد من التخلص منــه لان اضطهاد الشعوب واستغلالها يتنافى مع أولى الحقوق الأساسية للانسان التى يتضمنها ميثـاق الأمم المتحدة ويتعارض مع اتجاه العالم نحو السلم والتعاون) .**

وفى تحليله للأسس الايديولوجية التى ترتكز عليها الوحدة الافريقيـة يقول بادمور : انه من خلال النضال من أجـل الحرية الوطنية والكرامة الانسانية تقدم الوحـدة الافريقية ايديولوجيـة متميزة تتعارض مع القبلية وتفتح الطريق أمام الانسان الافريقى كى يقـوم بدوره فى اثراء الحضارة وتعميقها . ان الوحـدة الافريقيـة فوق الطبقات والجنس والقبيلة والدين وبمعنى آخر انهـا تريد فرصا متساوية للجميع فالمواهب تكافأ على أساس من الجدارة . أن رؤياها تمتد الى وراء حدود الدولة تمتد الى ضم جميع الدول الافريقية المتحررة فى اطار نهـائى هو الولايات المتحدة الافريقية .. فى داخل هذا الكومنولث الافريقى سوف يكون الناس بغض النظر عن قبائلهم أو أجناسهم أو لونهم أو عقائدهم أحـرارا أو متساوين وسوف تتمتع جميـع الوحدات الوطنيـة التى يشملها الاتحاد الفيدرالى مستقلة فى شئونها الاقليمية ومتحدة فقط فى الشئون التى تمس مباشرة المصالح المشتركة للوحدة الافريقية . **(هذه هى رؤيتنا لافريقيـة الغـد هدف الوحـدة الافريقية .)**

عواطف عبد الرحمن

مولود فرعون

من ثوار الأدب الجزائرى

اذا كانت الأرض تورث الكاتب الأصيل أعمق خصائصها .. فقد أورثت « الجزائر » .. **مولود فرعون** حزنها الفاجع ، وصلابتها الدفينة .

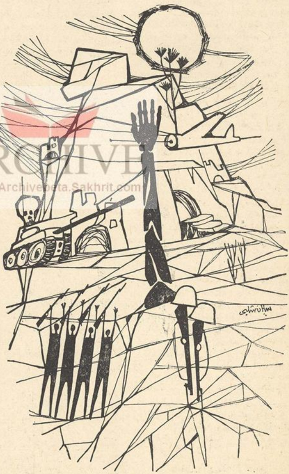
ولد مولود فرعون فى ٨ مارس عام ١٩١٣ .. والجزائر تمر حينئذ بأقسى فترات تاريخها ، يغتصب الاستعمار ثروتها ، ويطحن كبرياءها .. ويخنق مقاومتها .. فتبقى سجينة وراء سور شاهق من السيوف والحراب .

واذا كان أطفال الجزائر يولدون وسط الأسى ، ويتمرغون فى تراب الفقر ويشربون جرعات الحرمان فانهم يشبون سريعا وينضجون قبل الأوان **كانما يستحث وطنهم الجريح فيهم النضج ، ويتعجل أخذهم بالثار له .**

وكبر مولود فرعون .. وأبوه الفلاح الهارب من قحط الجزائر الى مناجم الفحم بشمالى فرنسا يطمع فى أن يرى ابنه « راعى غنم » يريح شيخوخته المكدودة من قسوة الترحال وعذاب الغربة ، غير أن مولودا أظهر شغفا بالكتاب وحبا فى القراءة استرعى انتباه أحد المدرسين اليه

فما زال يحتضن تقدمه المتصل حتى حصل له على مكان بالمدرسة الثانوية الفرنسية فى « تيزى أوزو » عاصمة الاقليم .. فترك قريته « تيزى هيبيل » اليها .. وما زال بالمدرسة الثانوية حتى فتحت له أبواب كلية المعلمين بمدينة الجزائر .

رحلة طويلة قاسية على الابن الفقير وعلى أبويه المعدمين عرف فيها الثلاثة الكدح والصبر والتمزق والحنين .. وعاد مولود فرعون الى الأرض التى خرج منها صبيا مهزولا ، وقد أصبح معلما شامخ القوام ..





م . فرعون

معتد للنظرة .. عامر القلب بحب قومه والاشفاق عليهم .

وخلال جولاته الكثيرة ادرك مولود فرعون هول المأساة التى تجثم على صـدر الجزائريين وعمق الضياع الذى يستشـعرونه على الأرض السليب ، وعاش معهم قلق الحرب العالمية الثانية هى يشاركون ببطولة نادرة فى سحق « النازية » بين مجند فى الجيش الفرنسى ، او كادح فى المزارع والمصانع يمد الجنود بالغذاء والعتـاد : وانتفض مولود بدوره للأمل الذى أخذ الفرنسيون يسكبونه فى سمع الجزائريين بمنحهم الاستقلال غداة النصر ، ثم قبعت فى نفسه خيبة الأمل الكبرى التىطحنت الجزائريين يوم عيـد النصر .. **حين خرجت المظاهرات فى مدينـة القسـنطينة تعلن الفرحة وتطالب باعلان استقلال الجزائر تحقيقـا للوعد ، فاسرعت الطائرات الفرنسية تحصد بقنابلها أرواح المطالبين بالحـرية . وباتت قسـنطينة ليلة ١٣ مايو عام ١٩٤٥ تضم أطلالها على رفات خمسة واربعين الف شهيدا !! .**

فمنذتلك الليلة انطوت الجزائر على نفسها تفتش فى أعماقها .. وتستعيد تاريخها .. وتتأمل واقعها .. وترسم خيوط معركة المصير .. لقد عرف الشعب الجزائرى أن طريق « الدم » هو طريق « الحرية » ، فليتنزع ارضه اذن شبرا شبرا من تحت اقـدام المستعمرين حتى يلقى ببقاياهم بين امواج البحـر ، أو يدفنهم تحت رمال الصحراء .

وبدأ الاعداد للثورة .

تمشى الصمت فى الدروب . . وتبـادل الشعب النظرات مكـان الكلمات .. ووقفت بأبواب المدارس الفرنسية الوحيدة الباقية بالجزائر صفوف من الأطفـال كانوا بالأمس يرفضون دخولها . واختفى الشبان من المقاهى وأرصـفة الطريق .. وأخـذوا طريق الجبال فى صفوف متصلة ..

وفى عام ١٩٥٢ .. انهار الصمت ، وارتفعت صرخة تخطت الأسـوار ونفـذت الى قلب العالم . وتلفت المثقفون فى العالم فاذا بين أيديهم أدب جزائرى راسخ القدم يتمثل فى ثلاثة أعمال روائيـة عظيمة : « التـل المنسى » لمولود معمرى .. و « الأرض والدم » لمولود فرعون .. و « البيت الكبير » لمحمد ديب .

أدب عملاق باصـالته وارتباطه بقضـية الانسان الجزائرى ، لم تطمس اللغة الفرنسية التى كتب بها نبضات روحه الجزائرية العربية .. ولم تحول انطلاقته وجهة أخرى غير وجهة الانسان المتطلع الى حريته .. وسرعان ما أصبح الأدب الجزائرى الوليد جزءا هاما من الأدب الانسانى العالمى .

وقد بدأت المسيرة فعلا فى الأول من نوفمبر ١٩٥٤ . وتشـكل جيش التحرير الجزائرى الذى خاض المعركة فى بسـالة . وتشكل كذلك جيش حقيقى من الكتاب الذين يدعمون النضـال الوطنى : يتغنون بالحرية .. ويستـثيرون البطولة ويبشرون بالفجـر .. **وانضم الى الرواد الثلاثة : مولـود فرعون ومولود معمرى ومحمد ديب .. صف طويل من جيـل الأدباء الشبان : مالك حـداد وكاتب ياسين ومصطفى الأشرف ، ومالك وارى .. وآسيا جبار ممثلة المرأة الجزائرية فى هذه الطليعة .**

كان دور مولود فرعون .. وزميليه محمد ديب ومولود معمرى .. دورا قياديا بطوليا ، حين حطموا أسوار العزلة المفروضـة على الجزائر ، ونفذوا الى العالم الخارجى يضعون بين يديه صورة صادقة عما يجرى وراء الأسوار وكانت اعمالهم الفنية بمثابة « **محاكمـة** » حقيقيـة للاستعمار .

وضع مولود فرعون **روايته الأولى « ابن الفقير »** يستعيد فيها أحداث حياته وشـبابه ونضاله من أجل المعرفة فى بلاد أغلق الاستعمار فيها المدارس وعمل على قطع صلات أهلها بماضيهم وتراثهم وأشقائهم وثقافتهم ويستعرض من خلال ذكرياته مأساة الفلاحين الكادحين خلف حفنة دقيق فوق أرض نجيلة صلبة أووا اليهـا بعد أن استحوذ الغرباء على المزارع المشرقة بالخضرة والرى والنماء .

فالفقر هو المأساة الكبرى عند أهل القرية جميعا ، تقف لقمة العيش وراء كل خطوة يخطونها أو عمل يقدمون عليـه ، هى مبعث آلامهم وآمالهم ومنازعتهم وصلحهم ، كل ما يهون عليهم الأمر رضا بالقضـاء الذى

لا مرد له واستسلام ساذج للاقدار .. وتضامن امام تتابع الكوارث ، انهم حشد هائل من المنكوبين الذين يحملون على ظهورهم الشقاء .. وفى نفوسهم الخوف .. وفى اصواتهم المرارة :

« يسكنون بيوتا بدائية فقيرة تتسلق قمة مرتفع يعلو كل منها الآخر ، وكأنها عظام عمود فقرى هائل لحيوان رهيب من حيوانات ما قبل التاريخ .. »

وعلى هذه الأرض الشحيحة الفقيرة يكون التساند الانسانى مصدر السعادة :

« فالسعادة أن يكون لك جيران يعينونك أو يغيثونك ، يرثون لك أو يقاسمونك مصيرك . »

الوحدة على هذه الأرض كئيبة كآبة الموت .. فان وقع بينهم خصام فما أسرع ما يعقبه صلح صبيحة العيد أو أمسية فاجعة .. ان تبادلوا الحب أو الحسد لم يتفرقوا شيئا :

« بعض الجيران يعيشون فى قلق ، ولا يملكون سوى حجرة واحدة . يهون الأمر حين يكون الأطفال صغارا ، ينام الجميع على بساط واحد يلتصق بالام أصغر الابناء ، يليه من يكبره .. حتى يكون أكبرهم أشد بعدا ، وينام الاب الى جوار زوجته ، أما حين يكبر الابناء فعلى الصبى الكبير أن يهجر المنزل بالليل حتى تصبح له حجرة خاصة به ، وتمثل الفتاة الناضجة مشكلة كبيرة أن عثر لها على مأوى أمين بالليل كان ذلك من فضل الله .. »

والقصة واقعية .. جذابة مؤثرة .. توجها مولود فرعون على الغلاف بمقدمة بعبارة للكاتب الروسى « تشيكوف » تعكس روح القصة وترسم الاطار الذى تدور فيه حوادثها :

« نحن نعمل لخدمة سوانا ، حتى سن الشيخوخة والعجز ، وعندما يدنو أجلنا نموت دون دمدمة ونقول فى العالم الثانى : اننا ذقنا الآلام ، وبكينا وعشنا سنين طويلة من المرارة .. وان الله سيرأف بنا » .

وعبر هذه اللوحات التى تنشر خلال **روايته الثانية « الأرض والدم »** — التى استطاع أن ينتزع بها جائزة الأدب الشعبى فى فرنسا فى عام ١٩٥٣ .. منافسا خمسين كاتبا فرنسيا فى ميدانهم وفى لغتهم — تكتمل لنا **صورة عن الفلاح القبائلى** ، عن صفاته الطيبة من اعتزازه بالشرف والفضيلة والكرم ، ومساويه من اعتزازه الخرافى بالنفس وعناده الاحمق ومنطقه الساذج وحذره الساخط .. ثم الغيرة والخوف اللذين أورثتهما اياه طبيعة قاسية واقتصاد متخلف وكفاح مر غير مثمر ..

فى رواية « **الأرض والدم** » يزداد احساسنا بشقاء الانسان الجزائرى ، فهو ضائع خارج وطنه يعذبه الحنين ويشده الى بلده ، فيعود اليه ليعرف عذاب التقاليد التى تتربص بالعواطف البشرية .. وتقضى على طمأنينة النفس . وتشهد مأساة الزوجة المصابة بالعقم .. لكننا نستمع الى مولود فرعون وهو يناقش مشكلة « الأرض » .. ولمن تكون ؟ .

« ان أرضنا طيبة ، أنها تحب وتمنح فى الخفاء ، وتتعرف سريعا على أبنائها ، على هؤلاء الذين خلقوا لها والتى خلقت لهم ، من شاء ان يكشف جمال أرضنا فليمنحها حبه .. »

ثم نرى كيف يمثل الدم رابطة قوية فوق ارض الوطن انه أساس القرابة التى تجمع المجتمع : فى أسر وقبائل .

يشد الدم الانسان الى أهله والى أرضه ، فاذا ابتعد الجزائرى لم يترفق به الحنين حتى يعود ، كما لن يستطيع أن يحيا بين الجزائريين الا من خالط دمه دماءهم ، من شاركهم مآسيهم ، من أحب أرضهم وأحبته الأرض فلذا رفضت «الأرض» عامر .. لأنه تزوج من فرنسية التى يختلف عالمها عن عالم عرب الجزائر .. أن مولودا يطرق فى رفق أبواب **« المسالة القومية »** .

ويتعقبنا الجوع فى رواية **« الأرض والدم »** بمثل ما اعتصرنا فى قصة **« ابن الفقير »** .. ونستشعر المرارة وراء سخرية مولود فرعون :

« الجوع . انه رفيق قديم ، يسهل احتماله ، والأمر فى غاية البساطة : قلل نصيبك من الخبز شيئا فشيئا ، واخلط دقيقك بكثير من الضجيج ، واختزن ثمار البلوط لتضيف منها الى دقيق الشعير . ثم ان هناك الصوم الذى يستطيع المرء أن يغترف منه على هواه .. وكم كان الصوم حبيبا الى النبى ، أن من



يألف الحرمان يسهل عليه احتمال الجوع ، بفقدالشهية . ويعتاد الغذاء القليل ، ان الجائع لا يتألم أكثر مما يتألم المتخم .. انه اختلاف فى الدرجة فحسب .. »

و « **الدروب الصاعدة** » **رواية مولود فرعون الثالثة** – التى ظهرت عام ١٩٥٧ – هى التعبير الفنى العظيم عن النضج الكامل للشعب الجزائرى وتألق احساسه القومى ، **وعن المعركة الفاصلة التى يزحزح فيها الجديد القديم ، ويعيد الجزائرى الى مكانه الطبيعى ، لا فوق أرضه فحسب بل الى مقوماته النفسية الأصيلة ، الى دعائمه الروحية والفكرية والعقائدية . فلئن صورت**

« الأرض والدم » ماساة الجزائرى المنتزع من أرضه لقد تناولت « الدروب الصاعدة » ماساة الجزائرى المنتزع من عقيدته ، والتى رمز اليها بالعربى « المسلم » الذى أعتنق « المسيحية » فانقطعت الوشائج بينه وبين أشقائه ، واذا كان الاستعمار قد عمل على تخريب الروح .. الى جانب تخريب الأرض ، فان استعادة الروح الضالة هى

الطريق الى استعادة الأرض السليب التى دفن تحتها الآباء والأجداد ، يرصدون من مخابئهم أبناءهم ويحاسبونهم – دائما – على تفريطهم فى أرضهم الغالية ، « فحتى الموتى يغرسون فى أعماق الأبناء بذور « القومية » .. ويسندونهم من وراء القبور فى معركتهم الوطنية للاحتفاظ بأرضهم ..

فى أدب مولودفرعون يجد الجزائرى نفسه ، ويكتشف ذاته ، يرى الجوانب المختلفة من حياته ويطالع عيوبه دون خجل ، ويطحنه اليأس حتى يلمع بصيص من أمل يتشبث به وتولد فى نفسه ثقة جديدة .

يقول عنه الأديب الفرنسى العظيم **أندريه مالرو** .. فى مجلة « لوموند » :

« **ان مولود فرعون يرسم صورة صادقةعنالواقعالانسانى الجزائرى ، ويبدع فى تحليل المشاعر والعواطف الانسانية ، يتحسسها ويعرضها بكل أبعادها الحقيقية فى انثناءات النفس البشرية المعقدة ، وله موهبة سيكلوجية مذهلة .. وواقعية انسانية لماحة ..** »

وفى أسلوبه بساطة وشاعرية .. وتحس من خلال تتبعك قصصه انه اتخذ من التعبير عن القبائل ونقل آلام أهلها ومشاعرهم وتعريف العالم بهم رسالة له .. ولقد عده الناقد الفرنسى المعروف **بيير دوبوادوفر** أصدق ممثل للقبائل فى الرواية العالمية المعاصرة .. كما بقيت أعماله أروع وادق ما كتب عنها . وله دراسة اجتماعية شائقة بعنوان « **ايام القبائل ..** » .

كان أدب مولود فرعون انعكاسا صادقا لآلام الشعب الجزائرى ، وتطلعاته الى مستقبل أفضل كما كان مشاركة فعالة فى معركة التحرير المحتدمة فى الجزائر ..

وهكذا أصبح مولود فرعون فى عين الاستعماريين الفرنسيين بمثابة شعلة فى ركب الثوار الجزائريين المتمردين على السيطرة الفرنسية .. ومن هنا بدأ الاستعماريون يتربصون به ، بهذا الانسان الوديع الخير الذى يحمل فى قلبه اشراقة أمل تريح الملايين من المكدودين ، وايمانا بأن الخير أقوى من كل شر ، وأن له النصر الأخير لأنه ارادة الملايين من البسطاء .

وأصبحت المدارس هدفا لضربات الاستعماريين ، فانتقل مولود فرعون الى مدينة الجزائر ، وأقام بها وسط عذابات تمزق روحه ، يمشى بين الجثث المتناثرة فى كل صباح فى الطرقات ، ويرى مصيره بينها بعيدا عن ثرى « **القبائل** » الحبيبة ، تغلف روحه اكتئابة عميقة ، ويمضى لا يتلفت وهو يتوقع الموت فى كل لحظة .

لم يقصر أصدقاؤه فى حقه على ترك الجزائر كما فعل جميع الأدباء الجزائريين **ديب وحداد والأشرف وياسين وآسيا جبار** . لكنه كان يعتبر بعده عن البلاد نوعا من الموت المخيف أهون منه اختراق الرصاص لجسده على ثرى الوطن .

وأغرق مولود لحظات فراغه وسط قصائد الشاعر القبائلى .. سى موهاندن .. قصائد لم يقدر لها أن تكتب يوما ولكنها تراث شعب « القبائل » تتناقل على الألسن بلغة بربرية .. جمع مولود هذه القصائد من أفواه شعب القبائل الذى بقى أمينا عليها . وترجمها الى اللغة الفرنسية ترجمة شاعرية رائعة . وأثبت بجانبها النص القبائلى مكتوبا بحروف لاتينية .

كانت « القبائل » حية المورق ، فهو يستشعر حنينا ممزقا كلما ابتعد

عنها . بل لقد احس هلعا غريبا وهو فى مدينة الجزائر همس به الى صديقه الكاتب الفرنسى الحر « **عمانويل روبليس** » الذى عاد الى فرنسا بعد اشتداد ارهاب منظمة الجيش السرى .. وبداية المفاوضات الجزائرية الفرنسية .. قال مولود فى رسالته :

« أخى ..

ان مدينة الجزائر لتلقى فى روعى انها دار أخرج منها مالكوها واحتلها غرباء عاجزون عن اكتشاف أصحابها ، اغتصبوا حق التصرف فيها برغم كل منطق ، ونجحوا فى تحويلها الى مستشفى مجانين . احيانا أقول لنفسى اننا فررنا جميعا : من رحل منا يائسا ، ومن بقى منا عاجزا .. »

ويقارن بين حياته فى « القبائل » وحياته فى مدينة الجزائر فيقول :

« لست أعرف بالضبط نوع عملى هنا ، قد أكون أكثر هدوءا عن ذى قبل غير انى لن أجد الراحة طالما أن كل شىء لم يتضح فى ذهنى ، وطالما لا أعرف بالتحديد ما يجب ان أفعله ، ولا كيف اصبح نافعا .. كنت أعرف دورى فى القرية وفى مدينة « **فورناسيونال** » وكنت أحاول جهدى أن أؤدى مهمتى ، ومنذ قدمت الى مدينة الجزائر وأنا أتخيل أن حياتى لم يعد لها معنى غير اقتراب من الشيخوخة ، وتربية أطفال يكبرون ويتخطوننى وينحوننى شيئا فشيئا .. »

وتكاثرت على مولود فرعون الهموم والأمراض والمضايقات والارهاق ، حتى تمنى أحيانا أن يصيبه الجنون الذى يجد فيه الخلاص مالا يستشعره العقلاء .. ولكنه يستدرك فيقول :

« ان علينا أن نحيا وأن نتخذ مظهرا يحفظ كبرياءنا ، أن نحتمل المعتدين ، وأن نضحك للحمقى وللخبثاء حتى نأمن شرهم .. »

ويقص صديقه الأديب الجزائرى محمد ديب بعض الذكريات التى عايشها بالقرب من مولود فيقول :

« ان مولود فرعون كان كل ما يتمناه أن يجد وسط المأساة « أصدقاء حقيقيين يستشعر الى جانبهم العزاء » .. فقد تزايدت همومه منذ عام ١٩٦٠ ، وكانت عيناه السوداوين تلمعان بشعاع غريب كلما ذكر أمامه اسم أرض الجزائر الحرة . »

ظل كبير القلب واسع المغفرة حتى فى أقسى أيام المأساة ، ويشارك فى يناير عام ١٩٦٠ فى تأبين الفيلسوف الجزائرى الفرنسى **البير كامى** بتليفزيون الجزائر فى هدوء وتحفظ ، لم يشأ أن يحاكم كامى بل حاول أن يتفهم دوافع موقفه فى رحابة صدر .

واقتربت المفاوضات لوقف اطلاق النار ، وثارت ثائرة المتطرفين فاخذوا يجدون فى البحث عن وسائل تحطيم هذه المفاوضات . وكان حرمان الشعب الجزائرى خيرة أبنائه وقادته اجدى هذه الوسائل .. وهكذا تقرر اغتيال مولود فرعون .. احد كبار مفكرى الجزائر . والممثل الأصيل لشعب القبائل ، والكاتب الجزائرى الوحيد الباقى فى ذلك الوقت على أرض الجزائر .

أصدرت منظمة الجيش السرى قرارا باعدامه .. وفى ١٥ مارس عام ١٩٦٢ ذهب مولود فرعون الى ضاحية « البيار » ـ احدى ضواحى مدينة الجزائر ـ لحضور اجتماع تنظمه هيئة المراكز الاجتماعية لهيئة التحرير الجزائرية .. وبدأ الاجتماع ولم تمض لحظات حتى فتح الباب على المجتمعين ، واندفع رجال مسلحون من منظمة الجيش السرى الارهابية يتصدرهم قائدهم معلنا حكم المنظمة الذى أصدرته باعدام سبعة من بين رجال المركز الاجتماعى .. ونادى أسماء أربعة من الاوروبيين : **مارسيل ايمار ومارسيل باسيه وماكسى مارشان وبتيبون** .. وثلاثة من الجزائريين : **مولود فرعون وعلى حاموتين وصلاح ولد عوضية ..** وفى صمت وذهول وقف ستة رجال ، فقد كان رابع الأوربيين « بتيبون » غائبا .. وخرجوا الى فناء الدار الذى شهد حنانهم وأبوتهم ورعايتهم لأبناء الجزائر .. وقفوا يستندون بوجوههم الى الحائط مغمضين عيونهم على بشاعة المشهد ، وضغطت أيدى القتلة ، فانطلقت الرصاصات تنفذ عبر أجساد الأبطال الصامتين .. سمعت أصوات الرصاص ، ولم تسمع للقتلى صرخات .

وانطلقت عربة تعوى حاملة السفاحين الذين خلفوا وراءهم مائة رصاصة فارغة وخمس جثث هامدة .. وجريحا شامخا يحتضر ويتلوى لكن لا يلفظ بشىء ، فلم يكن قد بقى الا دمه اخذ يسكبه قطرة قطرة خلال أربع ساعات على سرير مستشفى حتى انطفأت أنفاسه .. فدوت صرخة مرة طوقت العالم المحزون : **مات مولود فرعون .**

وفى ١٩ مارس عام ١٩٦٢ وقعت اتفاقية وقف اطلاق النار .. دون أن تطوف بهجة النصر على الوجوه ، فقد كانت مأساة اغتيال مولود فرعون تجثم بكل ثقلها الرهيب على أنفاس المحاربين الذين وضعوا السلاح ـ بعد أن أعطوا كلمة شرف بوقف القتال ـ دون أن يأخذوا بثأر مولود فرعون .. ولماذا يأخذون بثأر مولود ؟! . لقد كان الاستقلال فى أول يوليو عام ١٩٦٢ هو الثأر الحقيقى لمولود فرعون .. وهو الذى كان يقول :

« ان سيادة الخير أقسى عقاب يمكن أن يلحق بالشر .. »

وهكذا حاول القدر أن يطفىء الشمس .. ويقتل النور ..

ولكن مولود فرعون يعيش .. وشمسه لا تغيب . فهو أغتيل فى ضاحية « البيار » مثلما أغتيل « **لوركا** » شاعر اسبانيا فى « غرناطة » .. ومثلما يمضى فى كل عصر رائد فدائى ممن يؤمنون بدور الفن فى اسعاد البشر سعادة حقيقية .. لا مجرد الهائهم عن مآسيهم بقطرات من السلوى والنسيان .. مضى مولود فرعون .

« فابن الفقير » يقرؤها الملايين الآن . وتترجم الى أربع لغات عالمية . وأغانى « القبائل » أصبحت جزءا من تراث الشعب الجزائرى .. أن مولود فرعون فى كل مكان يضىء القلوب .. والدروب .

من أجل ذلك كانت لمحة وفاء صادقة من كتاب آسيا وافريقيا .. « أصوات العالم الثالث » أن تذكروا فى أثناء انعقاد مؤتمرهم فى بيروت فى الشهر الماضى .. مولود فرعون .. رمز الجزائر المتحررة .. المكافحة من أجل مستقبل زاهر .. ليس فيه غدرا أو خيانة أو ارهاب .. مستقبل تعطره أشجار البرتقال وزهور الياسمين .. وعيون أطفال «القبائل» الذين أحبهم : مولود فرعون .

فاروق يوسف اسكندر

لا سلام

حتى يعود شعبنا

لا سلام ... « حتى يعود شعبنا »
اقولها .
اقول ... لا سلام .

بهذه العبارة التى تحمل بين طياتها دفقات الثورة وحرارة النداء . بدأ الشاعر الفلسطينى هارن هاشم رشيد ديوانه الأخير « حتى يعود شعبنا » وهذه العبارة رغم أنها تحمل الفاظا قليلة الا انها بما تحمله من معانى لا يمكن أن تكون بسيطة ... فهى أولا صدى موجز ورنة دقيقة لكل ما فى الديوان من نغمات . ففيها نبصر صورة الديوان وتقاطيعه واضحة لا تشوش أو اهتزاز فيها . والديوان كله موال ثائر ونغمة حارة تردد دائما لا سلام .. لا سلام .

ثم ان هذه العبارة لم تأت عفوا أو بطريق الصدفة أو التقليد والمجاراة فهى ثمرة ناضجة قطفها الشاعر من بين بساتين وجدانه ومشاعره بعد أن ظلت تمتص منه قطرات تفكيره وخمائر مشاعره وحرارة احساسه طوال أيامه الماضية . فقد قطع هو وشعبه ما مر من سنين وأيام بعد النكبة فى مضغ الأحزان واجترار الهموم والأسى . قطعها فى اليأس القاتل والرجاء المستضعف والدعاء الهزيل والنواح والدموع والآهات . وتغنى بقيثارته الشاعرة للظلام والهشيم . وقطرات الدموع .. والخراب والضياع وتغنى بها وناح على الانسانيات الضائعة والمبادىء الزائلة والقيم الشاردة ، وتغنى بالحب اليائس المستكين الذى جعل منه بستان المحب وحديقته الغناء التى اليها يلجأ كلما اشتد قيظ الحياة واندلع لهيبها .

تغنى بكل هذا .. ولكن ما معنى ان يظل طوال حياته انسانا يحس ويتألم فى عالم مجرد من الانسانيات ومنزوع المشاعر والأحاسيس ؟ . ما معنى أن يقطع عمره فى النواح والبكاء فى دنيا تسخر دائما من بكائه وترقص على رنات مدامعه .. ؟

ما معنى أن يحرق شمعة عمره فى ظلامه الداجى الكئيب بين عالم استل بيديه القذرة صباحه المضىء الزاهى وتركه يدلج يائسا فى هذا الليل السديم ؟ . ما معنى كل هذا وهو ما زال انسانا يحمل قلبا ومشاعرا وضميرا ثم انه ما زال بكامل ارادته لا تنقصه الا أن ينزع من فوقها هذه القشور الهشة التى غلف بها اليأس والجمود ارادته . ثم انه ما زال رجلا شجاعا يصرخ فى دمه الانتقام وتحتد فى ضميره صيحات الثأر والكفاح .

اذن ماذا بقيت له من صفات تائهة حتى يسكت على حقوقه بهذه الصورة الملعونة ويترك نفسه كالجيفة السوداء يجرفها التيار أينما شاء وتلاعبها الرياح أينما هبت .

لذلك ليس عجيبا أن نرى شاعرنا بعد كل هذا وبعد معاناته من كل هذه التجارب المريرة التى مر بها يصيح فى هذا الديوان :

لتنته حكاية الزيتون والحمام .
لتنته .. لتنته وينشر القتام .
ولترتفع رايات الانتقام .
عنيدة عنيفة ولينشر الظلام .

بهذه الصور القاسية وهذا التدفق الثائر على الوجود يظل الشاعر يجول بمعوله المتمرد بين جنبات الحياة باحثا عن الخلاص بأية وسيلة . فكل الوسائل مشروعة لديه مهما كانت منحطة أو مرذولة أو غير مشروعة . ما دام يعيش بلا وطن ولا مكان يأويه فى هذا الوجود ... اذ كيف يحتفظ بقيم ووضعته فى جانبها القفر الحقير المملوء وحشة وفراغا وهزءا ووحشية ، وتركت على جانبها المزهر الناضر ذئابا يمرحون يرقصون فى غير مبالاة أو احترام لأية قيمة أو مبدأ تجاه هؤلاء الذين غرسوا هذه الزهور ورووها بقطرات وطنيتهم ودفقات حماسهم ..

كيف يحدث هذا اذن ثم يأتى هذا الشعب المنتهك الحقوق الضائع فى جوانب الحياة القفرة الحقيرة ليسجد لها ويقدم لها القرابين والذبائح . ؟ لا انه الآن قد فرغ من هذه المرحلة وما عاد طفلا تجاه قضيته ، فقد نضج ونضجت معه قضيته وأصبح الآن لا يهمه أن تندلع نيران الشر فى العالم فتحيله الى ذرات فاحمة من الأسى والدمار لا يهمه كل هذا فقد أصبح من هذا النوع الشرير القاسى وربما المنزوع الانسانية والضمير حتى يعود الى وطنه وتستتب له أموره كما كانت صافية جلية :

نقولها .. وبعدها .
فلتنعق الغربان .
فليغرق الوجود كله .
ليدفق الطوفان ..

ولتحجب السماء عن عيونهم أعمدة النيران .

أعمدة الدمار والغبار والدخان .

ثم يقول :

ما قيمة الوجود كله .. ما قيمة الأوطان .

ونحن فى الوجود كله بلا مكان .

هذه الصرخة القاسية وهذه الانتفاضة الجياشة من عالم اليأس والظلام نراها تتردد فى كل جنبات الديوان . فالديوان كله يمكن أن يكون صرخة واحدة أو بمعنى أصح قصيدة واحدة رغم ما به من ثمانى عشرة قصيدة ، كل منها لها اتجاهها الا أن الكل مربوط بخيوط متجانسة ومجزوبة دائما نحو نقطة واحدة هى ... لا سلام .. لا سلام ..

فقد عبر الشاعر فى بساطة وسهولة عن حياة اللاجئين الخاصة . عبر عن المهاجرين منهم بحثا عن الرزق ولقمة العيش ، وعبر عن الفراغ الذى يمتد على خيام اللاجئين ثم عبر عن الحب ولكن بصورة أخرى غير الصورة التى عهدناها كثيرا . فالحب عنده أولا وأخيرا هو حب بلده التى منها وحدها سيورق الحب الحقيقى وتتمايل أزهاره بين ربوعها . ثم عبر عن الروح السائدة بين اللاجئين موضحا تكاتفهم واحساسهم الموحد بمأساتهم . ثم عن موقفه هو كشاعر من هذه المأساة من ناحية ثم موقفه من قومه من ناحية أخرى :

أغنيهم وأبكيهم وأدفعهم الى القمم
وانسج من مآقيهم ضياء الفجر فى الظلم .

ثم تغنى بالأمانى والآمال العذبة التى كثيرا ما ترفرف فوق مشاعر اللاجئين وهى تغنى لهم أغنية الصباح والحب والحياة . ثم تغنى بالروابى والبحيرات والمزارع التى يحتضنها وطنه السليب وجعلها رموزا ناطقة بمعنى المأساة وقسوتها . ثم تغنى بما بين الأب وأولاده من مشاعر وأحاسيس ربما كانت مختلفة تماما عما نحسه ونلمسه فى حياتنا العادية لأن شاعرنا فى هذا الديوان جرد شعبه من كل عاطفة وجعله شعبا قاسيا متمردا لا يحمل الا الوعى والعمل من أجل قضيته . ثم تغنى بالجيش الجديد لفلسطين وأشاد به ووضع فوق كفيه نبراس الخلاص .

بين كل هذه الأشياء التى تغنى بها الشاعر فى هذا الديوان لم ينس أبدا أن وطنه فى احتياج الى القوة وفى احتياج الى الثورة والكفاح والتمرد والقسوة ، ولذلك جاءت كل هذه الموضوعات ، رغم ما فيها من تعدد ، مشوبة لهذا المعنى بل هو بالنسبة لها بمثابة النخاع . ففى قصيدة « مسافرون » مثلا التى أضفى عليها الشاعر من رعشات الأحاسيس واختلاجات القلوب وهدهدة المشاعر ما يبعدها عن موضوعنا رغم ما فيها من موجات الصياح والضجيج والقبل والدموع . رغم كل هذا فقد جعلها الشاعر تخدم موضوعه فى أبيات قليلة . فيقول بعد أن يصف ساعات الفراق وبعد أن يصف المشاعر واللحظات التى تتقدم هذا الرحيل والتى تتبعه :

أمسافرون فمن لجولات التقحم والقراع . ؟

من للبلاد ؟ نساؤكم . ؟ أطفالكم ؟ من للدفاع ؟ .

ثم أنه بعد أن يصف بحيرة النقب فى قصيدته المسماة بهذا الاسم . بسنابلها وبلابلها وموجها الأخضر وما يخيم عليها من هدوء وروعة وسحر وصفاء وبعد أن يذكرها بالهوادج والأفراح التى كانت تعيش فى دروبها راقصة مغنية . بعد كل هذه الصورة الموحية بذكريات حياة سابقة كانت مشحونة بالنور والأفراح والأضواء بعدها لا ينسى فلسفته وقضيته فيقول :

بحيرتى وددت لو ألقاك يا بحيرتى .
على أسنة الرماح فأزهو فى أمتى .

حتى عندما يتكلم عن نفسه كشاعر لا يترك نفسه يذوب فى ذاتيته المجردة تاركا وراءه عقيدته الجديدة ولكنه يتكلم عن قضيته وفلسفته فى شكل منسجم وجميل مع ذاتيته كشاعر :

ولكم سهرت الليل أكتب أو أسطر أو أجول .

من أجله وطنى العزيز وقد أناخ به الدخيل .

من أجل يوم الزحف يهدر لا يحيد ولا يميل .

وهكذا نرى فى كل جنبات الديوان ترديدا لنغمة حارة صارخة مختلطة فى فتنة ووقار بموضوعات الديوان الأخرى .

على أن ما يلفت النظر فى هذا الديوان خاصة وفى شعر الرشيد عامة ما يمتاز به من بساطة ووضوح . لدرجة أن بعض الناس كثيرا ما يتهمون أشعاره بالتقريرية ولكن فى الحقيقة أن أشعاره رغم ما فيها من بساطة ووضوح كثيرا ما نحس فيها التدفق والعمق ، فهو يعالج قضايا عميقة بل ربما مستعصية فى نفس الوقت الذى يخرجها لنا فى أسلوب سهل وتركيبات سلسة وبسطية .

فشعر الرشيد فى الحقيقة شعر كل اعتماده على الايحاء النبيه . فهو يعطيك معنى ربما تخيلناه سطحيا ولكنه كثير ما يجذب بخيوطه السحرية معانى أخرى بعيدة العمق لم يذكرها لنا الشاعر ولكنه أثارها فى أحاسيسنا وأخيلتنا بما وضعه أمامنا من تركيبات بسيطة .

وعلى كل حال كفانا ما نلمسه فى شعره من تدفق وحيوية لكى نحكم عليه بالعمق والجدية . فليس من السهل على أى شاعر أن يكون متدفق الشاعرية الا اذا كانت شاعريته تنهل من معين فياض وعميق .

ثم كفانا كذلك ما نلمسه من صدق وانفعال تجاه موضوعه الأساسى وهو قضيته وقضية شعبه وقضية أمته . لقد خاض فى هذا المجال باحساسه الصادق وشاعريته الحاسة ورؤاه الجلية الواضحة بدون ملل أو تكلف أو صنعة . ولذلك حق عليه فعلا أن يسمى بشاعر المأساة الفلسطينية لان شعره صورة نابضة الأضواء والظلال لحياة أهله ولجوانب مأساتهم .

سيد أحمد الماحى